

الطبعة الثالثة 2022 م

تلك الأسباب¹

وظن أهلها أنهم قادرون عليها

د. سمير الغول


Vibes 28 Publisher

الكتاب: تلك الأسباب- الجزء الأول- وظن أهلها أنهم قادرون عليها

الكاتب: د. سمير الغول

التصنيف: ديني / فلسفي / علمي

الناشر: VIBES 28 PUBLISHER

رقم الطبعة: الطبعة الثالثة

سنة النشر: 2022م

الترقيم الدولي (ISBN): 979-8-9857819-0-8

حقوق النشر محفوظة ©

لا يجوز دون الحصول على إذن خطي من المؤلف استخدام أي مادة من مواد هذا الكتاب أو استنساخها أو نقلها كلياً أو جزئياً — في أي شكل وبأي وسيلة، سواء بطرق إلكترونية أو آلية، بما في ذلك الطباعة وإعادة النشر أو الاستنساخ الفوتوغرافي، أو التسجيل أو استخدام أي نظام من نظم تخزين المعلومات واسترجاعها


Vibes 28 Publisher

الناشر: VIBES 28 PUBLISHER
بلنجهام – واشنطن - الولايات المتحدة الأمريكية.

P.O: 21867

Tel: +1(360)-865-4660

Email: Info@Vibes28publisher.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى كل أصحاب النيات الطيبة... إلى كل الذين يفكرون ويسعدهم أن يفكر الآخرون...
أهدي هذا الكتاب.

الفهرس

1	المقدمة	1
13	الفصل الأول: وظن أهلها أنهم قادرون عليها	2
33	الفصل الثاني: المفاعل جهنم	3
47	الفصل الثالث: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ	4
63	الفصل الرابع: كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا	5
87	الفصل الخامس: جسداً له خوار	6
101	الفصل السادس: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا	7
161	الفصل السابع: وفار التنور	8
168	الفصل الثامن: ويل للمصلين	9
177	الفصل التاسع: انشروا	10
192	الفصل العاشر: وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا	11
201	الفصل الحادي عشر: ليس على الأعمى حرج	12
211	الفصل الثاني عشر: الأنصاب والأزلام	13
219	المصادر	

المقدمة

الحمد لله رب العالمين

عند الشروع في كتابة هذه السلسلة لم يكن المنهج المحدد والواضح في تحليل اللفظ القرآني بهذا الوضوح عند الكاتب، لكن مع تقدم الوقت ومع زيادة العمق المعرفي والغوص في فهم مكنون اللفظ القرآني تشكل المنهج وأصبح لدينا ركائز ثابتة يتم من خلالها فهم وتحليل اللفظ القرآني.

سلسلة تلك الأسباب ليست سلسلة تدعو القارئ اعتناق أفكارها، وإنما تدعو القارئ إلى اختبار الأفكار الواردة بها والتحقق منها. قد تبدو الأفكار غير التي اعتدناها، لكن لا شك أنها لم تأتي هكذا من خيال جامع بل من نتائج تحليل ومتابعة دقيقة للفظ القرآني، وفهم السياق الذي جاء من خلاله وفهم حالة الكلمة التي يصفها اللفظ.

تبدأ سلسلة تلك الأسباب بهذا الجزء خفيف المحتوى والذي تضمن بعض الأفكار البسيطة، والمعلومات الخفيفة حيث تناول هذا الجزء تحليل اللفظ القرآني بشكل بسيط للغاية مع دمج بعض المعلومات العلمية الاسترشادية لتوضيح الحالة التي يصفها اللفظ. سوف يتم تناول نظريات اللغة وشرح المنهج المستخدم في سلسلة كتب الأسباب خلال الجزء الثاني من السلسلة وتحديدًا من خلال الفصل الأول والثاني.

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين الذي أنزل القرآن وجعله هدى للناس وتفصيلاً لكل شيء. أما بعد، لا يمكن اعتبار المعجزات المادية حالات منفردة خاصة بالقوة الإلهية، تمت بعيداً عن التقدير الذي أشار إليه ربنا في كتابه. بل هي تطبيق قوانين إلهية منتظمة، ويقدر معلوم؛ لو أتيح لنا التوصل لهذه القوانين لاستطعنا إنتاج حالات شبيهة بالمعجزات. القول بأن الأشياء الخارقة تمت هكذا، بدون قوانين؛ هو قول يشبه القول بالعشوائية، لا القول بالتقدير والحساب.

كل الأشياء الخارقة للعادة؛ هي في الحقيقة تمت بقوانين وأقدار محسوبة، ولكن معارفنا ضيقة بالقدر التي تجعلنا لا ندرك هذه القوانين بسهولة.

إذا اكتنف النفس غموض فلا بد لها أن تحاول كشف هذا الغموض، فهي لا تطيق صبراً، لذلك تجدها عندما تعجز عن فهم أمر تحيله إلى شيء غيبي. هذا الأمر مريح للنفس ولكنه خلاف التدبر والسير في الأرض الذي حث عليه القرآن في أكثر من موضع.

إن كان حجة الذين من قبلنا هو قلة المعارف المتاحة فلا يجب أبداً الاستسلام لرؤية السابقين في ظل هذا التراكم المعلوماتي الرهيب. كذلك لا ينبغي للقادمين في المستقبل أن يعتبروا ما نقول مرجعاً لا يمكن تجاوزه، إذا تجددت المعارف وتكشفت كثير من الحقائق. الكل مطالب بأخذ دوره وخوض تجربته والكل سوف يأتيه فرداً فيسأل عما كسب.

الله خالق كل شيء بقدر، وقدر كل شيء تقديرًا، أي جعل لكي شئ قانون ومقدار يتحرك من خلاله ويتفاعل مع غيره من خلال هذا التقدير والقانون لا يجيد عنه. هذا التقدير لا بد أن ينعكس كذلك على جميع التداخلات التي نسميها تجاوزاً إعجازية، ويقول ربنا عنها أنها آيات ولم يرد في وصفها صفة الإعجاز أبداً في كتاب الله. هذه الآيات الخارقة للعادة لا بد لها هي الأخرى أن تكون قد تمت بقوانين وأقدار وليست خارجة عن نطاق التقدير الذي حث ربنا عبادة على السعي لفهمه وكشفه. الآيات الخوارق في كتاب الله هي هدى للناس، ودليل على أنهم قادرون على الإتيان بمثله؛ بالأسباب، وحسن التقدير لأن الله طالبنا بتدبرها وأن نطلق للعقل العنان، وها هو العقل يسأل ويبحث ويريد أن يكتشف قوانين هذه الأقدار. كل ما يحتاجه الناس هو التدبر والتساؤل كيف تم ذلك وكيف حدث وما هي الرسالة التي يرسلها ربنا في كلماته لنا وماذا يطلب منا. القرآن ليس كتاب قصص للتسلية وإنما هو هداية عن طريق قراءة كل ما حوى من حروف و كلمات وتعبيرات وبحث كل إشارة فيه قدر ما نستطيع.

لا شك أن القوانين المُسَيَّرَة للطبيعة والكون تتميز بالشمولية، والثبات والصرامة؛ إذ لا يمكن لها أن تتبدل أو تتحول، ولكنَّ ما يتبدل ويتحول هو فهمنا نحن وتصورنا عنها، ومدى إدراكنا لهذه القوانين والسنن الكونية. مصدر هذه القوانين والتقديرات والأسباب، والسنن واحد؛ فلا بد لها أن تكون منسجمة متوافقة مع بعضها البعض سواء الآيات اللفظية التي جاءت في كتاب الله أو الآيات الكونية التي يذخرها الكون. لا ريب أن القرآن الكريم قد قصَّ علينا بالحق قصصاً وأخباراً، ونقل إلينا أحاديث - هي بلا شك الأحسن، والأبلغ، والأصدق - عن خرق هذه القوانين والسنن، تأييداً للأنبياء والمرسلين. طالما جاء هذا القص وهذا الإخبار في كتاب يسمى القرآن فنحن مطالبون بقراءته أي بالبحث فيه والنظر بعمق وكلاً على قدر ما أفاء الله عليه، لا أحد يحتكر كلام رب العالمين ولا وصاية على النور الذي أرسل ربنا.

لست هنا بصدد الحديث عن قدرة الله وعلمه سبحانه وتعالى، فهذا شيء ثابت، وإثبات المُثبت مضيعة للوقت والجهد، وإنما الحديث في هذا الجزء عن مدى إتاحة هذا العلم، وهذه القدرة للإنسان. علم الله محيط، وقدرته مطلقة؛ أما علم الإنسان وقدرته، فهي محكومة ومحدودة بحدود الأسباب والقوانين. قدرتنا - إن جاز لنا التعبير - تعمل تحت مظلة القدرة الإلهية، وليست منفردة بذاتها، والاعتقاد في ذلك هو عين الإيمان اليقيني بالله.

المتابع الجيد لكم المعارف والعلوم التي تُنشر كل يوم، والتوسع غير المحدود في التجريب، والفحص، والاستنتاج؛ يستطيع بكل سهولة ملاحظة أن الجدار بين ما هو خارق للعادة و"مُعْجَز" وبين ما هو في المتناول و متاح، يريد أن ينقض. العلم الذي يكتشف القوانين، والأسباب، والأقدار، وينظمها؛ هو معولٌ نقضٍ هذا الجدار الذي يزداد هشاشة يوماً بعد يوم. يقول الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (سورة القمر الآية : 49).

القدر هو: مجموعة التقديرات، أو بمعنى أكثر وضوحاً: مجموعة من القوانين، والتعليمات، والحسابات المنضبطة، وهي المسئولة عن كل أمر في هذه الحياة. إننا نحيا مع الأسباب، وكل ما يخص هذه الحياة له أسبابه، لكننا في كثير من الأحيان لا نفقه تلك الأسباب.

لقد تعددت وكثرت الكتب التي تحدثت عن الإعجاز العلمي في كتاب الله، ولاقت تأييداً كبيراً من البعض. وعلى الجانب الآخر، كثيرون هم من يعارضون هذه النوعية من الكتابات. والحقيقة أن لكلٍ منهما - سواء المؤيد، أو المعارض - وجهة نظره المعتمدة في هذا الأمر. المؤيد يبحث عن دليل علمي، ليثبت لنفسه أنه على الحق المبين، حتى وإن كان مؤمناً مستقر الإيمان. إنها النفس البشرية التي تسعى جاهدة للوصول إلى أعلى درجات سلم اليقين. الأنبياء - وهم صفوة البشر، ومع وجود الوحي - بحثوا عن ذلك اليقين، وما سأل نبي الله إبراهيم عليه السلام ربه ليريه كيف يحيي الموتى؛ إلا بحثاً عن الاستقرار والطمأنينة التي تملأ القلب.

أما المعارض فيرى أن العلم والنظريات متغيرة، ولا يجوز ربطها بالقرآن، فلو ثبت خطأ تلك النظريات والفرضيات العلمية؛ لتزعزعَ إيمان الناس ويقينهم بالقرآن. هؤلاء المعارضون وكثيرٌ من الناس، يتعاملون مع الاجتهاد والفكر على أنه أمرٌ واقعٌ، فإما قبوله كاملاً، أو رفضه كاملً. لو حاول هؤلاء التعامل مع جميع أنواع الاجتهاد والفكر منذ وفاة الرسول الكريم، صلوات ربي عليه، وحتى يومنا هذا على أنه أمرٌ قابلٌ للنقاش، واجتهادٌ يخص صاحبه، يخطئ ويصيب، لبقى النص القرآني الكريم ثابتاً وشاهداً وهادياً؛ ما حدث كل هذا الارتباك.

الانتخاب الطبيعي للأفكار لا يمكن أن يؤتي ثماره إلا في جو خالص، من حرية الفكر والإبداع؛ فالأفكار الصالحة تقوى وتؤيد وتزدهر، بعكس الأفكار غير الصالحة، أو غير المنطقية التي تحمل بذرة فناءها داخلها، والتي لن تستطيع الصمود طويلاً في بيئة مثالية تنعم بحرية التفكير.

الأفكار الحية لا تحتاج إلى إرهاب فكري كي تُرهب معتنقيها حتى يعتنقوها، وإنما تدعوهم للبحث وتخطب فيهم العقل والمنطق. كذلك هو كتاب الله يدفع الناس دفعاً ويحثهم على التدبر، واستعمال العقل، وعدم الحجر على الآراء مهما كانت، ليصبح مبدأ هاتوا برهانكم؛ هو المبدأ المهيمّن والمسيطر عوضاً عن الإيمان الأعمى.

الكلمات في القرآن الكريم بحارٌ تَمُوج بالمعارف، فكل مسمى يحمل كنوزاً، ما خفي منها أضعاف أضعاف ما نعلمه. اللغة الوحيدة التي تجد فيها التناسق والتناغم بين حروفها، وكأن الكلمات قد صيغت على شكل معادلات رياضية موزونة ومضبوطة؛ هي هذه اللغة العظيمة، وأخص منها الألفاظ القرآنية. البحث في دلالات، ومعاني، وجذور الكلمات، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقوم به علماء لغة فقط، ولكنه يحتاج إلى علماء أفذاذ في الرياضيات والإحصاء، وعلماء في الفيزياء، والفلك، والفلسفة، وعلم النفس؛ ليستخرجوا لنا كنوز هذه اللغة الإلهية الرائعة، ولإيجاد علاقات الحروف بعضها ببعض، وعلاقتها بتغير المعنى، ووصف حالة كل كلمة، ومسمى كل اسم.

يعتقد علماء الطبيعة والقائمون على دراسة المادة، أنه كلما نحونا نحو المكونات الأولية، حصلنا على معلومات أكثر غزارة، وفهماً أكثر عمقاً، واقتربنا كثيراً من الحقائق. كذلك اللغة العربية كلما اعتمدنا الجذور، حصلنا على معلومات أكثر دقة؛ وكلما غصنا في فهم الحرف ومدلوله كلما اقتربنا من فهم الحكمة خلف هذا النظم البديع الذي جاء في كتاب الله . هذا الكتاب بفضل الله، يحاول قراءة الآيات القرآنية ذات التعبيرات العجيبة والبديعة مع الأخذ في الاعتبار البعد المعرفي العميق الذي نعيشه اليوم.

يجدر بي الإشارة إلى أن كتب الإعجاز العلمي بشكلها التقليدي تحاول التوفيق بين الاكتشاف العلمي الحديث، وبين بعض الآيات في كتاب الله بعد استقرار الكشف العلمي. حيث كثيراً ما نسمع بعد اكتشاف فتح علمي أو نظرية علمية أن القرآن قد أشار إليها في آياته.

سلسلة كتب تلك الأسباب لا تنتهج هذا النهج أبداً، فهي كتابات تسبق بخطوة؛ إذ تقوم هذه الكتابات على محاولة فهم الآية أو التعبير القرآني في إطار منهجي محدد وصارم محاولين كشف الكون وفهم علاقاته من خلال الكلمات والتعبيرات القرآنية. تطرح سلسلة تلك الأسباب أسئلة، وتقدم احتمالات أكثر بكثير من أنها تقدم حقائق ثابتة. إنني أعدُّ قراءة هذه السلسلة، كمن يمارس التمارين الرياضية، فهي جديرة بأن تحرك مراكز الفكر لدي القارئ، وتطرح الأسئلة، وتحاول الإجابة قدر المستطاع عن الغموض الذي يلف كثير من التعبيرات القرآنية. سوف تشعر وأنت تقرأ الكتاب كأنك في حاجة للتوقف، والتفكير أمام كثير من الأمور. قد تختلف أو تتفق معي، وفي كلتا الحالتين يجب ألا تعتبر ما أقوله أمراً واقعاً، ولكن هي مجرد أطروحات ومحاولات لطرح الأسئلة. إن نصف العلم هو القدرة على طرح الأسئلة، وكلما كانت الأسئلة أعمق وأشمل، حصلت على إجابات منطقية ومقبولة. إنها محاولة لبعث روح جديدة تنطلق من كتاب الله، تتعثر أحياناً وتنهض أحياناً، حتى يأذن الله لها وينفخ فيها فيفتح أمامنا طاقات المعرفة وأبواب العلم.

خوارق العادات (الآيات) التي اختص الله بها أنبياءه ورسله، لا شك أنها كانت لإثبات رسالتهم التي أرسلهم بها الله أمام أقوامهم، في وقت كان التجسيد هو المسيطر على عقول الناس؛ فما حاجتنا اليوم لمثل هذه المعرفة الآن، والتي يمكن أن تشكك الكثيرين في حقيقة تلك المعجزات والخوارق؟ حدثت أمام السابقين لكي تمنحهم دليلاً عقلياً على وجود الله، وها هي نقرأها في كتاب الله ويطلب منها وتدبرها وتعقلها لان ما تخفيه هذه الآيات من خلال الألفاظ التي عبرت عنها، كقيل بأن يكون آية على وجود الإله وعلى علمه المحيط.

لا شك أن دراسة القصص القرآني بشكل علمي متزن، وفحص التعبيرات القرآنية بشكل منهجي، سيفتح الباب على مصراعيه أمام البشرية في اكتشاف هذا الكون المترامي الأطراف، سواء على مستوى حدود المكان (الجغرافيا)، أو مستوى حدود الزمان (الماضي،

والحاضر، والتنبؤ بالمستقبل). لقد أثبتنا ذلك من خلال أجزاء الكتاب المتتالية، وكيف من خلال فهم اللفظ القرآني بطريقة جديدة استخرجنا كما من المعلومات، لم تُطرق من قبل بالدليل والبرهان.

المعجزة أو قل إن شئت الآية الأعظم التي أيد الله بها هذه الأمة؛ هي القرآن الكريم الذي أنزله على رسوله، وعندما طلب المشركون من رسول الله أن تكون له "معجزات" مادية كان رده كما أمره ربه (سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا).

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خَالِفًا لِطَفِيرِ الْأَرْضِ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتِ عَلَيْنَا كَيْفَ مَا نَشَاءُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا أَوْ يُكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا مَكِّابًا نَقْرُوهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (سورة الإسراء الآية: 93).

ليس هناك ما يمنع أن نبحت خلف كل حادثة، وخلف كل "معجزة" (آية)، متسلحين باليقين أن لكل شيء قدرًا، وعلى الله نستعين، فإن أظهر الله الأمر على أيدينا حققنا مراد الله وأرضيناه، وإن لم نوفق يكفيننا شرف الاجتهاد الذي ربما يفتح طريقاً لمن يأتي بعدنا، أن يَصِوبَ ما أخطأنا فيه، ويتلافى ما أسرفنا، ويذكر ما نسينا.

المنهج الذي تبنيته في هذا الكتاب هو تحليل الألفاظ القرآنية محل الدراسة، ومحاولة معرفة وفهم دلالة الكلمات من خلال كتاب الله نفسه، مستعيناً بجذر الكلمة من قواميس اللغة، مثل قاموس اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور، و العين للفراهيدي، إضافة إلى دلالة الكلمة في السياق القرآني، ثم الاسترشاد بالمعلومات العلمية لفهم اللفظ القرآني. أضف إلى كل ما سبق الإستعانة بأقوال المفسرين القدامى منهم والمحدثين، حول الآية محل الدراسة، ثم ضمنت خواطري، وفهمي، واجتهادي للآية الكريمة من خلال ربط هذه الأمور جميعها بعضها ببعض، ثم انتقلت للدلائل والرؤية العلمية التي يمكن أن تشير إليها الآية القرآنية، مدعماً

وجهة نظري بالمراجع العلمية والأوراق البحثية. يمكن تلخيص المنهج المستخدم في سلسلة كتب تلك الأسباب في النقاط التالية إلى حين التعرض للمنهج وجدوره في الجزء الثاني من الكتاب.

ملخص المنهج

اللغة هبة إلهية من الله اصطفى آدم وأعطاه القدرة على التسمية ووصف المسميات بكل دقة (النظرية التوقيفية) والتي انتقلت منه إلى البشرية.

ألفاظ القرآن جميعها ألفاظ حقيقية ليس فيها مجاز ولها خاصية الإفصاح عن نفسها وتحمل مفاتيح فهمها. الألفاظ خارج القرآن يحتمل فيها أن تكون حقيقية تصف المسمى بكل دقة؛ أو غير حقيقة ليس لها دلالة أو اعتبارية.

جذر الكلمة يمثل حالة عامة لها صفات وخصائص محددة ولكل كلمة جذر واحد فقط، ولا يمكن وصف الجذر بكلمة واحدة بل بتعبير كامل.

الحالة العامة للجذر لها مدلولان: مدلول مادي يمكن تجسيده ومدلول لا مادي يحمل نفس الصفات والخصائص.

الجذر الثنائي تتغير حالته بتغيير الحرف الثالث بشكل منتظم تبعاً للمدلول الصوتي للحرف الثالث. وجود أكثر من أصل للجذر الواحد يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية لذا يجب دراسة الأصول المتعددة وإرجاعها إلى أصل واحد. (قد تم دراسة بعض هذه الجذور). (المعاجم بها أصول متعددة لنفس الجذر وهذا يتنافى مع حقيقة النظرية التوقيفية).

لا يمكن للجذر الواحد أن يحمل أصلاً متضاداً لأن ذلك يتنافى مع كون اللغة هبة إلهية. والصحيح أن للجذر أصل واحد يمثل حالة عامة تفرع منها التضاد. (المعاجم بها أصول متضادة وهذا يتنافى مع النظرية التوقيفية) لا يمكن فهم اللفظ إلا من خلال السياق وفي إطار الحالة التي يصفها بكل دقة دون التدخل بالزيادة أو النقص.

يصرف اللفظ إلى الحالة الأشهر التي يمثلها ما لم توجد قرينة تصرفه إلى حالة أخرى بدليل قوي، وليس مجرد رؤية شخصية.

آيات القرآن جاءت من خارج الإطار المعرفي للنبي صلوات ربي عليه فتفاعل معها واستخرج الأحكام فجاءت أقواله وأفعاله بخلاف القرآن من داخل إطاره المعرفي. يشمل هذا الكتاب عشرة فصول، إما خواطر حول آيات قرآنية لها دلالات مستقبلية، أو محاولة لفهم إحدى "المعجزات" الآيات التي ذكرت في كتاب الله، ومدى إمكانية حدوثها، أو رؤية جديدة لبعض آيات الذكر الحكيم.

الفصل الأول: وظن أهلها أنهم قادرون عليها

يتناول هذا الفصل معنى القدرة، ومعنى الظن، وارتباط الآية الكريمة بنهاية العالم. فهم لفظ القدرة بمعناه الشامل يشير إلى أن الإنسان في طريقه إلى التحكم بالظواهر الطبيعية حتى يتحقق ظنه بالقدرة. قد تكون هذه الآية الكريمة إشارة على أن الإنسان قادر على التحكم بالظواهر الطبيعية، مثل الأعاصير، والزلازل، والبراكين.

الفصل الثاني: المفاعل جهنم

يتطرق هذا الفصل لاستخدام كلمة الحجارة في التعبير القرآني عن وقود النار، والذي دعانا لكي نتساءل، لماذا الحجارة تحديداً كوقود للنار وما مدلول ذلك؟

الفصل الثالث: كان في المهد صبيا

تطرق هذا الفصل لما يسمى معجزة نبي الله عيسى، وكلامه في المهد، وهل تكلم وهو طفل رضيع؟ اعتمد الفصل بشكل كامل على مدلول الكلمات في كتاب الله، والفرق بين مدلول كلمة صبي، ومدلول كلمة طفل، وتفسير كلمة المهد في كتاب الله مع مقارنة ومتابعة لأقوال المفسرين.

الفصل الرابع: خلق الإنسان من علق

يشمل هذا الفصل شرحاً مفصلاً لمراحل تكون الجنين، بفهم مختلف تماماً عما استقر في الوجدان، وعما ورد في كل مقالات الإعجاز العلمي لهذه الأطوار. شرح الفصل مفهوم العلق بشكل جديد، وقام بتحليل أغلب الكلمات التي جاءت في وصف تكوين الجنين.

الفصل الخامس: جسداً له خوار

تعرض هذا الفصل لمفهوم لفظ الكلام وكيف أن الكلام في كتاب الله جاء محددًا يشير إلى نوع من البلاغة، ولا يتساوى أبدًا مع القول أو الحديث. من خلال هذا الفصل تتبعنا لفظ الكلام في كتاب الله وقد أُرشدنا هذا التتبع إلى مظهر من مظاهر تطور البشرية وانتقالها من مجرد القول أو الخطاب إلى الكلام البليغ.

الفصل السادس: فطرة الله التي فطر الناس عليها

يشمل هذا الفصل شرحاً مستفيضاً عن علاقة السلوك الإنساني والشعور النفسي بالطبيعة المادية للكون. تم طرح مجموعة من الأسئلة خلال هذا الفصل مثل: هل السلوك النفسي اللامادي للإنسان مرتبط بالكون بشكل مادي؟ هل من الممكن أن يسبب هذا السلوك النفسي كوارث طبيعية إذا انحرف وشد عن السلوك الطبيعي؟ يشمل هذا الفصل العديد من التفصيلات، وتعقيباً على قصص هلاك القرى والتأثير الفيزيائي للسلوك الإنساني الجمعي، وكذلك مجموعة من القصص المختصة بتأثير العقل فوق المادة، وأبحاثاً عن تأثير النيات في المادة.

الفصل السابع: وفار التنور

يحتوي هذا الفصل على تصحيح كلمة تنور التي وردت في قصة الطوفان العظيم، الذي حدث في عهد نبي الله نوح، ومحاولة فهمها من خلال السياق القرآني، والتي جاءت مغايرة تماماً للفهم التقليدي، وعلاقة التنور بالبركان، والتغيرات المناخية العظيمة.

الفصل الثامن: ويل للمصلين

تناول هذا الفصل سورة الماعون وهي السورة التي تحذر الناس من أن يكونوا عقبة في طريق الآخرين. لا يعرف الناس من هذه السورة العظيمة سوى ويل للمصلين؛ قاصدين من ذلك مقيمي الصلاة الشعائرية؛ بينما السورة تتحدث عن شيء آخر تماماً يمس حياتنا جميعاً، ويعكر صفوها. لو علم الذين يصعبون كل سهل على الناس، أنهم هم المعنيون بالويل لفكروا ألف مرة قبل التعنت، وتعطيل أمور الناس.

الفصل التاسع: انشروا

تناول هذا الفصل مجموعة آيات من سورة المجادلة بالتحليل والبحث واستطعنا استخراج كم هائل من المعلومات من هذه الآيات عن التفكير المستقبلي والتخطيط وإدارة الحوارات المجتمعية وكيفية المعارضة.

الفصل العاشر: وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِيمًا

تناول هذا الفصل قصة العبد الصالح مع نبي الله موسى من منظور مختلف وفهم الثلاث حالات التي حدثت وسأل عنها نبي الله موسى وكانت من وجهة نظره تجاوز غير مقبول. كيف أشارت هذه الحالات إلى علوم مستقبلية وكيف استخلصنا كم معقول من الشروحات.

الفصل الحادي عشر: ليس على الأعمى حرج

لقد تناول هذا الفصل آية ليس على الأعمى حرج التي شكك فيها الكثير وقالوا عنها أنها ليست بليغة وأن فيها تكرار ليس له فائدة. لقد تناولنا هذه الآية بشيء من التفصيل لنكتشف بلاغة لا حصر لها.

الفصل الثاني عشر: الأنصاب والأزلام

تطرق هذا الفصل إلى مفهوم الخمر والميسر لنكتشف أن الميسر ليس القمار، والأنصاب ليست أصنام، والأزلام ليست سهام للاقتراع. إنها ثلاث ألفاظ قرآنية شكلت أساس قويم لكيفية تعامل الإنسان مع جسده وشكلت معلومات طبية كثيفة ومرجع لا مثيل له، خصوصاً لإنسان هذا العصر.

ختاماً.. أرجو من الله أن أكون قد وفقت في سبيل إخراج هذا العمل بهذه الصورة، وأحطت به الإحاطة المقصودة، وحققت من خلاله الأهداف المنشودة، فإن كنت قد وفقت فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، وإن كانت الأخرى فحسبي أنني لم أدخر جهداً، والكامل لله وحده.

الفصل الأول: وظن أهلها أنهم قادرون عليها

لقد رصدَ المركز الدولي للتحكم والسيطرة تكوُّن إعصار من الدرجة الخامسة؛ إذ تبلغ سرعة الرياح في مثل هذه الأعاصير أكثر من 250 كم/ الساعة قبالة الساحل الشرقي للولايات المتحدة الأمريكية، وقد تم التعامل مع الموجات الناشئة وتفكيكها، ويمكنكم الآن الاسترخاء على شواطئ سواحلنا الشرقية، والاستمتاع بالطقس الربيعي الساحر. منذ ساعتين تم رصد نشاط غير عادي في باطن بركان "نيراجونجوا" بالكونغو، وقد قام المركز بالتعامل معه، من خلال بث موجات مثبتة أدت إلى التوقف الفوري للنشاط البركاني، ومن ثمَّ يمكنكم ممارسة أنشطتكم اليومية دون قلق، ونتمنى لكم رحلاتٍ بريةٍ سعيدة بين أحضان الطبيعة الساحرة. قد لوحظ منذ دقائق تحرك الصفيحة التكتونية العربية باتجاه الشمال الشرقي في اتجاه الصفيحة التكتونية الإيرانية، وتم إيقاف تحركها بسلام، وتجنيد المنطقة زلزلاً كارثياً، ونستطيع الآن أن نؤكد أنه لا يوجد ثمة أي نشاط غير طبيعي بهذه المنطقة.

قد تكون مثل هذه الأخبار بعد قرنٍ أو قرنينٍ من الزمان، من الأخبار المصاحبة للنشرة الجوية، كحركة الرياح الموسمية، وتكوُّن المنخفضات الجوية وسقوط الأمطار، أخباراً روتينية، لا تثير فضول المشاهدين أو تجذب انتباههم، بسبب الأمان البيئي، الذي أصبح نتيجةً طبيعيةً للتقدم العلمي والتكنولوجي غير المسبوق. قد يشاهد أحفادنا أفلاماً وثائقية عن الآثار المدمرة لأعاصير، مثل إعصار "موراكوت" الذي ضرب تايوان في أغسطس 2009م ، وسببَ فيضاناتٍ عارمة، فقد بلغ عدد ضحاياه نحو 700 شخص بين قتيل ومفقود؛ أو إعصار "سيدر" الذي أصاب بنجلادش مخلفاً وراءه 4100 قتيل ومفقود عام 2007م؛ أو حتى إعصار "نرجس" الذي تشكَّل في خليج البنغال ليضرب ميانمار في 27 أبريل 2008م، بسرعة قدرها

165 كيلو متراً في الساعة، تاركاً خلفه 78000 قتيل، و56000 مفقود، فضلاً عن الخسائر المادية التي تقدر بـ 10 مليارات دولار.

قد تصبح مثل هذه الأخبار أو الأفلام الوثائقية مثار تندر وسخرية من أحفادنا؛ إذ كيف عاش أجدادهم في أكف طبيعية متوحشة لا ترحم، وكيف طاب لهم العيش وهم لا يدرون ماذا يمكن أن يفعل بهم بعد ساعات أو حتى بعد لحظات، وكيف هم اليوم - وبفضل العلم الحديث - أصبحت الأرض مكاناً أكثر أمناً وراحةً، ولا شيء يحدث فيها خارج السيطرة أو غير اعتيادي.

لا شك أن عقل الإنسان لا تحده الحدود؛ إذ يسعى بكل السبل لترويض الطبيعة وجعلها رهن إشارته. فمذ أن وطئت أقدامه هذه الأرض، وحياته مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقدرته على التحكم، وتسخير ما حوله. عندما نجح الإنسان الأول في تسخير النار، تحولت حياته إلى مرحلة جديدة من التطور والرقى، ومنذ ذلك الوقت البعيد وهو لا يكف عن التفكير في تسخير الطبيعة والتحكم في مواردها من حوله، بدءاً من ترويض الخيول البرية، لتساعده في حمل أمتعته وترحاله، وانتهاءً بصواريخ تسافر عبر الفضاء.

هل آن الأوان ليعلن إنسان هذا العصر أنه بصدد ترويض الطبيعة والتحكم في ظواهرها، وهل هناك دلائل تشير إلى قدرة الإنسان يوماً على فرض سيطرته وهيمنته على تلك الطبيعة، وتحويلها إلى طبيعة "ديجتال"، بضغطة زر واحدة يحرك الزلازل، ويثير البراكين، ويكُون الأعاصير. هل يمكنه من نفس غرفة التحكم إجماع عنفوان الطبيعة، وإيقاف فوراتها، ومن ثم استئناسها. هل هناك ما يمنع في أن يمتلك الإنسان هذه القوة وهذه القدرة، هل من الممكن أن نستمع إلى أمين منظمة الأمم المتحدة يوماً، وهو يعلن أننا على الأرض أصبحنا قادرين.

خواطر قرآنية

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة يونس:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة يونس: الآية 24).

يقول السعدي في تفسيره لهذه الآية (وهذا المثل من أحسن الأمثلة، وهو مطابق لحالة الدنيا، (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَيَّنَّتْ) أي: تزخرت في منظرها، واكتست في زينتها، فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين؛ فصرت ترى لها منظرًا عجيبيًا، ما بين أخضر وأصفر، وأبيض وغيره؛ أما قول الله سبحانه: (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) أي: حصل معهم طمع، بأن ذلك سيستمر ويدوم، لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه). ابن كثير فسر (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) بقوله: (وَظَنَّ أَهْلُهَا) أي: الذين زرعوها وغرسوها (أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) أي: على جذاذها وحصادها. كما ذهب الطبري إلى ما ذهب إليه ابن كثير في قوله تعالى: (وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا): (وَظَنَّ أَهْلُهَا) يعني: أهل الأرض، (أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) يعني: على ما أنبتت. وقال القرطبي في تفسيره، أن المقصود بـ(قَادِرُونَ عَلَيْهَا) أي قادرون على الانتفاع بها وبثمارها.

ويفسر ابن عاشور (أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا) (أي: أنهم مستمرون على الانتفاع بها مُحْصِلُونَ لثمراتها).

من وجهة نظري، أن الآية الكريمة بها مدلولات أخرى كثيرة، ومعانٍ أكثر عمقًا، فكل كلمة في القرآن لها مدلولها، ولا يمكن أن تحل كلمة محل أخرى في المعنى بنسبة مائة بالمائة لو تتبعنا كم الاختراعات الحديثة والاكتشافات الجديدة، التي يُفاجئنا بها العلم كل يوم، بل

كلّ ساعة، لأدركتّ الدليل الواضح على أنّ الإنسان في محاولة دائمة ومستمرة، يحدّوه الأمل في أن يقدرّ على الأرض، ويفرض سيطرته عليها.

كلمة (قَادِرُونَ) التي ذكرت في الآية تحمل من الإعجاز ما لا تستطيع كلمات، مثل: جني ثمار الأرض، أو حصادها، أو الانتفاع بها، على تحمّلها والتعبير عنه. كلمة (قَادِرُونَ) من الكلمات التي اختص الله بها نفسه، فقد ذُكرت مشتقات كلمة (قادر) في القرآن الكريم أربعة عشر مرة، خص الله بها نفسه في اثني عشر موضعاً منها.

كلمة (قَادِرُونَ) نفسها جاءت في القرآن الكريم في خمسة مواضع؛ منها أربعة مواضع خاصة بالفعل الإلهي، والخامسة هي التي نحن بصددّها. سنحاول في السطور القليلة القادمة سرد تلك الآيات التي ورد فيها فعل قادر منسوباً لرب العالمين، ونحاول فهم معنى كلمة (قَادِرُونَ) ومدلولاتها:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا) (سورة الإسراء: الآية 99).

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَنْزِلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الأنعام: الآية 37).

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انظُرْ كَيْفَ نَصَرِفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ) (سورة الأنعام: الآية 65).

(وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) (سورة المؤمنون: الآية 18) (وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُزِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ) (سورة المؤمنون: الآية 95).

(وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ) (سورة يس: الآية 81).

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (سورة الأحقاف: الآية 33).

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ) (سورة المعارج: الآية 40).

(بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ) (سورة القيامة: الآية 4).

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ) (سورة القيامة: الآية 40).

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ) (سورة المرسلات: الآية 23).

(إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) (سورة الطارق: الآية 8).

هذه المواضع الاثنا عشر ذكرت فيها لفظة (قادر) و(قادرين)، وكما نرى أنها فعل خاص برب العالمين اختص بها نفسه سبحانه وتعالى. الآيتان اللتان جاءتتا بهما كلمة (قادرين) أو (قادرين) مرتببتان بالبشر؛ فقد جاءت أوصاف مذمومة استحق أصحابها العذاب؛ لأنها ظن من الإنسان أن لديه قوة فوق قوة الرب أو تساويها، قدرة مطلقة ليست مقيدة. أن يظن الإنسان نفسه يملك الحقيقة المطلقة، سواء هذه الحقيقة قدرة ما، أو علم معين؛ هو ظن يدل على غرور وكبر لا يصدران إلا من يجهل أكثر مما يعلم. أول هذه الآيات في سورة القلم (وَعَدُوا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ).

جاء في التفاسير أن كلمة (حرد) تعني: القصد، والمنع، والغضب، وجاء معناها في معجم المعاني: قوة، وشدة، وغيظ؛ ومن هنا يتضح لنا أن هؤلاء القوم الذين قصدوا أن يمنعوا الرزق عن المساكين والفقراء يتوهمون امتلاك القدرة، مع أن الله هو الرازق على الحقيقة، فمنعهم الفقراء إثم، ولكن اعتقادهم القدرة على ذلك هو الكفر الذي استحقوا عليه العقاب.

جاء في تفسير الجلالين (وَعَدُوا عَلَى حَرْدٍ) أي: منع للفقراء (قادرين) عليه في ظنهم؛ لأن هؤلاء القوم جاءوا بفعلٍ عظيم، وهم يعتقدون أنهم قادرون؛ فكان الرد الإلهي كما في الآيات التالية:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (19). فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (20)) (سورة القلم: الآيتان 19-20).

يخبرنا القرآن كيف أن هؤلاء القوم ضالون، ومحرومون، وظالمون، وطاقون؛ لأنهم لم يكونوا من المُسَبِّحِينَ، أي: منسجمين مع الفطرة التي أودعها الله في نفوسهم، وكيف أن الغرور أصابهم حتى ظنوا امتلاك القدرة؛ القدرة الحقيقية ليست في متناول هؤلاء، لأنه ببساطة من يظن القدرة لا بد أن يقدر ويحسب كل القوانين والعلاقات التي تتحكم في هذا الأمر، هذا هو لفظ قدر، الذي دائماً ما يرشدنا ربنا أنه هو من يقدر الأشياء. يقدر الأشياء أي: يجعلها خاضعة لتقديرات وحسابات دقيقة، تأخذ في حسابها كل العلاقات المرئية وغير المرئية.

هل الإنسان مهما أوتي من قوة لديه هذه الإمكانية في أن يحسب، ويزن كل العلاقات التي تحكم الأشياء؟ بالطبع لا يظن القدرة بمفهومها القرآني إلا متواضع الفهم، أصابه الغرور والكبر فجعله لا يرى أسفل قدميه. لقد كان الرد الإلهي مزلزلاً على هؤلاء الظانين في أنفسهم ظن القدرة، لقد تفسخت وانهارت مظاهر القدرة لديهم، فهل ملكوا على الحقيقة القدرة، وتقدير الأشياء، أم أن الأمر كان مجرد كبر وغرور؟

(فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ (25) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (26) قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ (27) قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (28) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ (29) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ (30)) (سورة القلم: الآيات 25-30).

كلمة (قادرين) في الآية الثانية محل دراستنا، فهي أيضاً وصفٌ اتصف به أهل الأرض في غير محله، ينم عن شعور بالعظمة والغرور.

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (سورة يونس: الآية 24).

ما يعنيني هنا ليس ذم الصفة بقدر معرفة المقدمات التي أدت إلى استشعار القوم القدرة على الأرض؛ فلقد ظنوا أنهم قادرون عليها، ومعنى (ظن) كما جاء في معاجم اللغة هو: إدراك الذهن للشيء مع ترجيحه، وقد يكون مع اليقين. الظنَّ جاء في كتاب الله بهيئات ثلاث: ظنُّ يغلبُ عليه السوء كقول الله تعالى:

(وَيَعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوِّ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوِّ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا) (سورة الفتح: الآية 6).

وظنُّ يغلبُ عليه الخير، كقول الله تعالى:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ) (سورة النور: الآية 12).

وظنُّ لا خير ولا سوء فيه، فهو فقط ظنُّ معرفة، كقوله تعالى:

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة البقرة: الآية 230).

الظن في حد ذاته ليس خيراً أو شراً، وإنما يصف حالة ترجيح شيء ما، ويصنف خيراً، أو شراً، أو ظناً معلوماتي، بناء على الأمر المظنون فيه. الظنُّ في قوله تعالى (وظن أهلها أنهم قادرون عليها) هو ظنُّ معرفة لا خير ولا شر فيه؛ وكما قلنا إن تعريف الظن هو

إدراك الذهن للشيء مع ترجيحه، وهنا يجب أن نتوقف ونتساءل ما الذي جعل القوم أصحاب الأرض يظنون أنهم قادرون عليها. لا بد أن لديهم من الشواهد والحقائق ما يؤيد ذهابهم إلى هذا الظن، أي: الظن بالقدرة على الأرض، والتحكم فيها. وحرف الجر (على) يُوجي بذلك، فكأن الأرض أصبحت تحت تصرفهم، أو أصبحت لهم سيطرة عليها.

قراءة الآية الكريمة تخبرنا أمرين، أولهما: أن وقتاً ما في المستقبل سيتحكم الإنسان فيه بالأرض لدرجة كبيرة جداً، تجعله يعتقد أن كل شيء تحت سيطرته وتحكمه، وهذا الشق لا غبار عليه. ثاني الأمرين: هو ظن الإنسان القدرة وغروره المعرفي، الذي يصور له أنه أصبح متحكماً ومكتشفاً لكل العلاقات التي تحكم الأشياء، ومن ثم انفصاله روحياً ومعرفياً عن الله. عندما تتغلب أنانيته على فطرته، ويظن أنه لا شيء يعجزه، واعتماداً على عقله، يظن امتلاكه القدرة على إخضاع كل شيء لسلطوته جهلاً بحقيقة الأشياء وتشابكاتها غير المنتهية، هنا تأتي الطامة الكبرى.

يبدو أن ظن الإنسان القدرة والاتكاء على ظن كهذا سيجعل منه شخصاً ساكناً لا يسعى لجديد، ظناً منه أن كل شيء قد فهمت آلياته، وسيطر عليه. هذا السكون الذي سيورثه ظن القدرة، هو سبب من الأسباب الرئيسية لانهايار المنظومة الكونية. الكون جميعه يسبح، أي في حركة مستمرة دائمة، والسكون هو الوضع الشاذ في هذا الكون، والذي سيلفظ مباشرة حفاظاً على بنية هذا الكون من الانهيار. إذا كان السكون مصدره الإنسان الذي هو ذروة سنام هذا الكون، ويحمل مسؤولية الانسجام مع هذا الكون - سوف نأتي على حقيقة العبودية، ومسئولية الإنسان من خلال الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب - ثم لا يقوم بدوره بشكل كامل يصبح انهيار هذه المنظومة مسألة وقت ليس إلا.

ليس محذوراً أن يسعى الإنسان بكل طاقته لكي يُخضع كل شيء لسيطرته، ولكن المصيبة هو أن ينصب نفسه إلهاً ويعلن موت الإله، كما ذكر الفيلسوف الألماني "نيتشه" في كتابه

"هكذا تكلم زرادشت" ويعتقد أن كل شيء تحت سيطرته، وأنه أدرك العلاقات المتشابكة، وفهم دورة الأشياء. يبدو أننا نتحدث عن وقت نُخَمِّة فكرية، وكسل عقلي نتيجة مباشرة لتقدم علمي وتكنولوجي غير مسبوق.

ظن القدرة لا يتأتى للإنسان إلا بعلم ملموس، ومشاهدات لا ريب فيها، فلا يمكن أن يستقيم إدراك القدرة مع الجهل، أو مع وجود شيء خارج السيطرة. الآية الكريمة تحمل في طياتها بشيراً ونذيراً لقوم يعقلون؛ البشير هو أنك أيها الإنسان تستطيع فرض سيطرتك، وتسخير الكون لإرادتك، ولا شيء يعوقك. فقط احمل اليقين واذهب؛ وأما النذير فكن على حذرٍ من أن تنصب نفسك إلهاً، وتعلن أنه لا إله، وتظن في نفسك القدرة المطلقة؛ فعندها تكون النهاية. لا نقول ذلك من منظور ديني بحت، وإنما من منظور العقل والمنطق. قدرة الإنسان مهما تعاظمت هي في الحقيقة قدرة محدودة بمحدود معرفته، والعلم الذي بين يديه، ولكي يستطيع الإنسان الجزم بقدرته بشكل حقيقي لا بد أن يحيط علماً بكل العلاقات والقوانين التي تحكم وتسير كل الموجودات، سواء المادية منها أو اللامادية، وكذلك علاقة هذه القوانين بعضها ببعض، وبما أن هذه الإحاطة مستحيلة فلا بد من التراجع، ومن ثم التواضع وتجنب ظن القدرة.

قد نكون بعيدين نوعاً ما عن هذه المرحلة؛ مرحلة القدرة على الأرض، أو بمعنى أكثر دقة ظن القدرة؛ إذ لا تشير المشاهدات التي نملكها إلى التحكم والسيطرة على محيطنا بشكل كامل. لا يوجد اليوم في عالمنا من يستطيع أن يزعم أنه قادر على الأرض أو متحكم فيها، ومن يظن ذلك اليوم فهو غير متزن عقلياً، ولديه أوهام تصل إلى حد المرض. إن أرضنا حالياً تموج بأصناف الأمراض العضال، التي حيرت البشرية وارهقتها، وما زال الإنسان يكافح للقضاء عليها، أو لإيجاد سبلٍ لمنعها بالأساس. ناهيك عن المجاعات المنتشرة في ربوع الكرة الأرضية، والفيضانات، والبراكين، والزلازل، والأعاصير، التي تدهم البشرية كل حين. أقصى ما يمكن

أن يفعله إنسان العصر الحالي، هو محاولة إيجاد حلول للتعامل مع الواقع، بقدرٍ معقول من العلم القائم على التنبؤ بالظواهر الطبيعية الفتاكة؛ لكي يأخذ حذرَهُ قدر المستطاع.

إنها إحدى الرسائل الإلهية التي تحملها هذه الآية الكريمة في طياتها، ولمحة معرفية من اللوحات التي يموج بها هذا الكتاب العظيم.. القدرة على الأرض متاحة وفي متناول يدك، ولكن لا يأخذك الغرور، تواضع وأرجع ذلك لقدرة الله، تكن من المسبحين الذين يدورون في فلك الروح، ولا تكن من المجرمين الذين قطعوا صلتهم بالله واكتفوا بأنفسهم، فتكن سبباً في هلاك و نهاية هذا العالم (وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (سورة النمل: الآية 40).

نرى في هذه الآية الكريمة إمكانية دحر أمراضٍ عضال، فليس هناك ما يمنع، بل إنَّ هناك ما يبشر ويعد؛ لماذا لا نقنع بأننا قادرون على فعل الكثير واكتشاف المزيد، وأن الوقت لا يزال به متسعٌ لفعل ما نعتقده مستحيل، كم من الأمراض التي وقف العلم أمامها عاجزاً مطأطئ الرأس مردداً ليس لها علاج، وبعد برهةٍ من الزمن يظهر علاجها في عقار بسيط للغاية؛ فما تظنه أنت اليوم مستحيل، سيراه أولادك وأحفادك من المسلمات والبدييات.

هل أصبح دورنا في الاكتشافات العلمية قاصراً على محاولة إثبات أن القرآن الكريم ذكرها منذ أربعة عشر قرناً؟ ويأتي الردُّ التقليدي والمنطقي: إذا كان قرآنكم ذكرها منذ أربعة عشر قرناً، فلماذا لم تكتشفوها أنتم؟ الإجابة بلا شك، لأننا أمة لا نقرأ أو ليس لديه وقت للتفكير.

شيءٌ مخجلٌ حقاً أن يفتي أحدهم بأن الاستمطار لا يجوز شرعاً؛ معتقداً أن محاولة الاستمطار ينافي الاعتماد على الله، وتدخلُ سافرٌ في أفعال الله التي اختص بها نفسه العلية. كل الاستدلالات والتأويلات في مسألة الاستمطار اعتمدت على الآية الكريمة في سورة لقمان:

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ^ط وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا^ط وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ^ج إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (سورة لقمان: الآية 34).

الله سبحانه وتعالى لم ينف عن الإنسان قدرته في إنزال الغيث في هذه الآية الكريمة وخصوصاً أنه في نفس الآية الكريمة يوجد نفي قدرة النفس على معرفة ماذا تكسب غداً، أو بأي أرض تموت. إنزال الغيث أو حتى علم ما في الأرحام لم يأت بصيغة: ما تقدر نفس على إنزال الغيث، أو ما تعلم نفس ما في الأرحام. (مع التحفظ على الفرق بين فعل يعلم، وفعل يعرف، وعدم الخلط بينهما).

الجدل حول هذه الآية كان على أشده، وظهرت محاولات كثيرة جداً لتفسير قول الله تعالى: (ينزل الغيث) وكيفية الخروج من مأزق "قدرة" بعض البشر على الاستمطار الصناعي، أو حتى معرفة ما في الأرحام؛ هذه الإشكالية ما كان لها أن تكون معضلةً، لو أن النص القرآني كان هو الحاكم والمسيطر؛ ولكن عندما حوكم النص القرآني بأقوال الرجال وتفسيراتهم، وقعنا في هذه الإشكالية، ولم نستطع فكك منها.

الأمر غاية في اليسر، فكل الأفعال التي لم ينفها ربنا نفيًا صريحاً عن كون البشر قادرين عليها هي أفعال قابلة للتجريب، وليس هناك ما ينفي قدرة الإنسان على فعلها، ولكن يجب دائماً أن نعرف أن الفعل الإلهي فعل تام العلم والمعرفة، أما الفعل الإنساني فهو فعل بمقاييس بشرية، وحدود معرفة إنسانية. لماذا التعدي ونقول إن الإنسان غير قادر على إنزال المطر، أو علم ما في الأرحام، والله سبحانه وتعالى لم يقرر ذلك في الآية الكريمة، مثل ما قرره في حالة الكسب عندما قال (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا) وكذلك عندما تحدث عن موت النفس (وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ).

قدرتُنا مهما تعاظمت فهي من قدرة الله، ومعرفة ذلك والإيمان به دليلٌ على أنَّ النفوس البشرية لا زالت تسبحُ في مداراتها لم تخرج بعدُ عنها. من يحاولون كبح جماح الفكر البشري القائم على المنطق والاستدلال، بحجة أن هذا اعتداءً على حق الإله، بدون نصٍّ صريحٍ وقاطعٍ لا يحتمل التأويل، لهم في الحقيقة أكبر عائقٍ في مسار البشرية. إنهم يسيئون لصورة الإله، وكأنهم يجعلونه محتاجاً للحماية؛ وإني لأستغفر الله من هذه النظرة التي ينظر بها هؤلاء لرب الأرض والسموات؛ نظرة قصورٍ وعجزٍ، تنزه ربنا سبحانه عن كل ذلك.

الأمر الأكثر واقعية هو أن الإنسان يطلق لفكره العنان، ويجعله يُخلق كيفما شاء، فهو لن يخرج عن إرادة الله وقدرته؛ فما الأفكار إلا قدرُ الله، وما الأفعال إلا بأمر الله، وإن اعتقدت غير ذلك فإنك إذا لمن الظالمين؛ أليس ربكم عز وجل هو القائل:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا
لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (سورة الرحمن: الآية 33).

هل تعتقد أن التحكم بالأرض شيء من المستحيلات، وخصوصاً ونحن نقف عاجزين أمام فيروس، مثل فيروس سارس، أو فيروس كورونا المستجد، الذي لا يمكن أن تراه بالعين المجردة، الأمر ليس كما تظن؛ إذ إن هناك الكثير يدور من حولك وأنت عنه تلهي، حتى وإن كنت تظن أن الأمر اليوم مجرد خيالٍ، فما جعل الخيال إلا للمستقبل دليلاً.

الرؤية العلمية

فكرة التحكم بالظواهر الطبيعية هي فكرة غاية في الخطورة، خصوصاً إذا استطاع أحد مجانين هذا العالم فك لغز تلك الظواهر وقدر عليها. تحويل فكرة كهذه إلى سلاح يُنذر بعواقب وخيمة؛ فسيكون سلاحاً أقوى من أي سلاح معروف، فأنت تتحدث عن إيقاظ البراكين، وتحريك الزلازل، وإرسال الأعاصير. إنه السيناريو الأسوأ إذا ما استطاع العلم فك رموز

الظواهر الطبيعية والتعامل معها. بالمقابل هناك الجانب المشرق الذي ينتظر البشرية، والأمان الذي لم يسبق له مثل جراء بحوث كهذه. الأمر ليس خيالاً جامعاً كما يظن البعض؛ أبحاث التحكم بالمناخ واقع، والحديث عن التحكم بالظواهر حاضر.

هل حقاً يمكن للإنسان أن يصنع الزلازل ويوقظ البراكين، وهل يمكن للإنسان أن يتحكم في الظواهر الكونية، التي طالما هددت حياته قديماً وحديثاً، وهل يمكن أن يأتي اليوم الذي نقول للناس فيه يمكنكم أن تعيشوا بسلام آمنين على حياتكم وممتلكاتكم، بجوار بركان كيلاويا الذي يعد أكثر البراكين نشاطاً في الولايات المتحدة الأمريكية، هل نستطيع أن نقول يوماً لا تسونامي بعد اليوم، أو أننا لسنا في حاجة إلى بناء منازل مقاومة للزلازل، لأنه ببساطة أصبحت فكرة الزلازل من الماضي ولن تعود. إن طرح سؤالٍ مثل: هل يمكن التحكم في الظواهر الطبيعية؟ يُعدُّ سؤالاً غير عقلائي، خاصة وأتينا ما زلنا غير قادرين في بعض المناطق على إيقاف شبح المجاعات، لكن ما المانع في أن نطرح سؤال كهذا، ونحاول سبر أغوار المعرفة حول هذا الموضوع.

أول فكرةٍ ملهوسةٍ لعملية التحكم في الظواهر الكونية، هي تلك الفكرة التي بدأت بفرض القدرة على التحكم في الأمطار في ألمانيا عام ١٩٣٨م، عن طريق العالم الألماني "فنديس" الذي اقترح نظرياً إمكانية إضافة أنوية الثلج للسحب، لكي يُحَفِّزَ قطرات الماء على التجمع، وبالتالي السقوط. لم تغادر هذه الفكرة الإطار النظري الذي صيغت من خلاله، إلى أن جاء العالم الأمريكي "شيفر"، الذي استطاع نشر حبيبات صغيرة من الثلج عند درجة ٢٠ م داخل السحب المتكونة، مما شكّل تحفيزاً لقطرات الماء لأن تتجمع وتسقط على هيئة أمطار.

ما لبثت هذه التقنية أن تطورت، حيث استخدمت طائرات لرش مواد مثل يوديد الفضة، الذي ساعد على تجميع الحبيبات الصغيرة للماء لتصبح ثقيلة نوعاً ما بالقدر الذي يسمح لها بالسقوط، وحدوث ما يسمى بـ الاستمطار الصناعي. أبحاث الاستمطار الصناعي التي تدرج

تحت أبحاث التحكم المتعمد بالمناخ، تعد من الأبحاث الواعدة والتي تسمح بالاستفادة من الأمطار والتحكم فيها. يمكن اعتبار الأمطار الصناعية أو القدرة على الأمطار الصناعي شكلاً من أشكال الهندسة المناخية التي تندرج تحت بند أبحاث تغير المناخ، ولكن تظل تعديلاً بسيطاً في الطقس.

اليوم أصبح الصغير يدرك قبل الكبير أن مسألة التنبؤ بالظواهر الطبيعية باتت واقعاً ملهوساً، وحققت نجاحاً غير مسبوق؛ هذا التنبؤ لا يمكن أن يكون تنجيماً أو عملاً عشوائياً، وإنما هو علمٌ مستقلٌ بذاته، يعتمد اعتماداً كلياً على حسابات فيزيائية ورياضية معقدة، تقوم به برامج كمبيوتر غاية في الدقة، قلباً تخطيء أو تجانب الصواب. هذه التنبؤات أتاحت للبشرية تجنب كثيرٍ من المخاطر، التي لولاها حصدت الكوارث الطبيعية أرواح آلاف البشر وشردت مثلهم.

عجلة العلم تدور ولا يمكن لأحدٍ أن يتنبأ بما يمكن أن يحدث بعد عقد أو عقدين من الزمان، ولا شك أن الخطوة القادمة تسير في اتجاه تطويع هذه الظواهر الكونية، والتحكم الكامل فيها. نشرت صحيفة "لوفيغارو" الفرنسية في أكتوبر 2011 أثناء الحملة الشهيرة "احتلوا وول ستريت": "منذ متى ينزل الثلج في واشنطن في شهر أكتوبر، أم هي إحدى الضرورات لمواجهة حملة (احتلوا الـ وول ستريت)" حيث غطت الثلوج خيام المعتصمين في ذلك الوقت. كما رصدت منظمة المناخ الدولية وجود أكثر من مائة مشروعٍ بحثي في عددٍ من دول العالم، وكان الهدف منها هو التحكم في المناخ.

لا حرج إذا اعتقدت أن مثل هذه الأخبار لا تتجاوز ثرثرةً فارغةً وهراءاً لا طائل منه، أو أن الهدف منها الإثارة لا أكثر؛ ولكن إذا عرفت أن لمثل هذه الأخبار عادةً جذوراً، وليست من بنات أفكار كاتبها، قد تغير رأيك وتصبح أكثر انتباهاً.

تأتي البداية مع بدايات القرن العشرين، عندما تمكن العالم الشهير "نيكولا تسلا" من عرض نظريته، وهي "أن الأرض بها شبكة طبيعية، من الموجات الكهربائية ذات ترددٍ منخفضٍ جداً، ويمكن اعتبار هذه الشبكة من الموجات الكهربائية قنوات اتصال بين كل مظاهر الحياة على سطح الأرض؛ يشمل ذلك حركة الرياح، والمد، والجزر، بالإضافة إلى تحركات الألواح التكتونية (المسبب الرئيسي للزلازل).

الخطير في هذا الاكتشاف لم يأت بعد، فقد توصل "تسلا" إلى أنه إذا أمكن توليد موجات كهربائية بكثافة ذات ترددٍ منخفض، وأمکن التحكم في هذه الموجات الكهربائية، فإنَّ التحكم في الشبكة الكهربائية يصبح أمراً ممكناً. بشكل أكثر بساطة، التحكم في هذه الشبكة الكهربائية المنتشرة عبر الطبقات العليا للغلاف الجوي مرتببً ارتباطاً وثيقاً بالشبكة الكهربائية في باطن الأرض، مما يتيح التحكم في الظواهر الطبيعية والمناخية المرتبطة بها.

يبدو أن الولايات المتحدة الأمريكية تلقت الفكرة، أو هكذا قيل، وبدأت في تدشين مشروع هارب العملاق في ولاية ألاسكا ١٩٩٠، الذي يعمل على طبقة الأيونوسفير وهارب أو "H.A.A.R.P" باللغة الإنجليزية هو اختصار لـ "High Auroral Active Frequency Research Program" أي: برنامج أبحاث الموجات عالية التردد.

تقوم فكرة المشروع على استغلال الموجات الكهرومغناطيسية الموجودة في طبقة الأيونوسفير، وقد اختيرت منطقة ألاسكا لقربها من القطب الشمالي، أو لاعتبارات أخرى علمية متعلقة بالمجال الكهرومغناطيسي.

يمكن أن نقول إن هدف المشروع المعلن هو دراسة طبقات الجو المتأين، عبر إرسال أشعة كهرومغناطيسية خلال طبقات الغلاف الجوي لدراستها، وكذلك لأغراض الاتصال بالغواصات واكتشاف أعماق الأرض. هو برنامج بحثي كما أعلنوا، يتكون من مصفوفةٍ من الهوائيات المقامة على مساحة كبيرة لإرسال موجات كهرومغناطيسية خلال طبقة الأيونوسفير.

رغم أنّ موقع المشروع العملاق مفتوح، وليس ثمة قيود تثير الريبة كملك التي توضع على المناطق العسكرية، إلا أن البروفيسور "نيك بيجتش" Begich Nick في كتابه "الملائكة لا تعبت بهذا الهارب" "Angels" Tesla in Advances HAARP: this Play Don't Technology قد أثار جدلاً واسعاً حول هذا الهارب، عندما ذكر في كتابه عن قدرة المشروع على التأثير على المناخ، مستعيناً بما أثاره باحثو شركة لوكهيد لعلوم الفضاء بالتعاون مع جامعة ستانفورد، من قدرة هارب على إرسال موجات ذات ترددٍ منخفضٍ جداً، تؤدي إلى تيار من جسيمات صغيرة جداً تستطيع إحداث استمطار صناعي.

من ناحية أخرى، أكدت الدكتورة "روزلين بتريل" في كتابها المعنون "سلاح الأرض" أن لهارب ثلاثة تأثيرات؛ أولها محاولة التحكم في الطقس وحركة الرياح والسحاب أو حتى الأعاصير. تذكر الدكتورة بتريل في كتابها، أن العلماء قد حددوا منطقة فوق ألاسكا لإحداث أمطار وعاصفة رعدية، عن طريق انعكاس الموجات خلال طبقة الأيونوسفير، حين أرسلت هذه الموجات حدث زلزال بقوة 2.8 ريختر في منطقة محددة مسبقاً.

التأثير الثاني لهارب - وما زال الحديث للدكتورة بتريل - هو ما يعرف اصطلاحاً باسم "العواصف البيضاء"؛ إذ تقوم الموجات بتسخين طبقات الجو في المنطقة المحددة سلفاً عن طريق دفع الموجات السالبة للسحب من المناطق الأكثر برودة لإحداث العاصفة؛ وأيدت الكاتبة ادعاءها بما حدث في كاليفورنيا، عندما كانت نسبة هطول الأمطار أعلى 700 مرة عن معدلها الطبيعي. الانفجار البارد هو التأثير الثالث - بحسب وصف الدكتورة روزلين - وفيه تلتقي موجتان في الطبقات السفلى في الغلاف الجوي، مما يسبب انفجاراً أقوى من الانفجار النووي، وبدون أي آثارٍ لإشعاعات نووية.

تقول الدكتورة "روزلين": إن مثل هذه الانفجارات قد شوهدت أكثر من مرة عن طريق طيارين تجاريين، حيث شاهدوا انفجاراً يشبه إلى حدٍ كبير انفجار القنبلة النووية.

الباحث "جين بانينج"، وهو خبير عسكري أمريكي، يقرر في كتابه "الآلة العسكرية تفتح صندوق باندورا" أن الغرض الحقيقي وغير المعلن من مشروع "هارب" هو في الحقيقة صناعة سلاح عسكري يستطيع إرسال حزم مركزة من موجات الراديو، من مراكز أرضية معدة لهذا الغرض، تستطيع تسخين طبقات الأيونوسفير، لترتد كموجات كهرومغناطيسية إلى مناطق الماجنيتوسفير، والتي سُخِّنت بالإلكترونات مسبقاً، لتعمل كمرآيا عاكسة تُوجه إلى مناطق محددة سلفاً، لتقضي على جميع مظاهر الحياة بها.

هناك معلومات مرعبة ذكرها "بانينج" عن استخدام تقنية هارب في إحداث زلازل، فقد ذكر في كتابه أن أول من استخدم فكرة هارب في إحداث الزلازل هم الروس عام 1989 في الصين، وكانت نتيجته مقتل 650 ألف شخص. ويستمر بانينج في ادعائه بأنه في نفس العام قامت الولايات المتحدة بعدة تجارب، إحداها في سان فرانسيسكو، وأخرى في كاليفورنيا، وثالثة في اليابان. أما عن الاستخدام الأول لهارب المشروع الأمريكي العملاق فيقول دكتور "بانينج" أنه كان عام 1994 عندما تمكنت وزارة الدفاع الأمريكية من إرسال ما يقارب 350 مليون عاكسة نحاسية إلى طبقة الأيونوسفير، مما مكن الموجات الارتدادية من الوصول لعمق 600 كيلو متر تحت سطح القشرة الأرضية، بينما كانت التجربة الأولى ما بين عامي 1992 و1993؛ إذ لم يتجاوز اختراق الموجات للقشرة الأرضية سوى 200 كيلو متر في البحر المتوسط.

في كتاب "كوكب الأرض" المنشور عام 2001 للدكتورة "روزلين بيتزل"، تصف قيام مشروع هارب تحت دعوى تحسين الاتصالات ونظام المراقبة والأغراض البحثية، وما ذلك إلا عملية تمويه لغرض المشروع العدائي وإظهاره بمظهر سلمي. تستكمل الباحثة حديثها بأن وزارة الدفاع الأمريكية قامت بتثبيت شبكة من أبراج الإرسال عددها 180 برج ضمن البرنامج الدفاعي المسمى حرب النجوم. وتقول الكاتبة إن هارب يُعد ليصبح المتحكم في كثير من الظواهر الطبيعية، عن طريق توليد وإرسال الأشعة الكهرومغناطيسية إلى طبقة الأيونوسفير.

لقد أكدت دكتورة "روزلين" في كتابها أن عدة مناطق استهدفت، منها أفغانستان، والهند، وباكستان، وأن التجارب قد انتقلت إلى المحيط الهادي، وتسببت التجارب في موجات تسونامي المدمرة، وزلزال هايتي. إن كما قد ذكرنا زلزال هايتي المدمر، الذي راح ضحيته أكثر من 200 ألف ضحية، فلا يمكن أن نغفل تصريحات الرئيس الفنزويلي "هوجو شافيز" لإحدى الصحف الإسبانية، واتهامه الولايات المتحدة الأمريكية بتدبير زلزال هايتي المدمر، والتسبب المباشر في هذه الكارثة؛ وقد كشف "شافيز" عن وجود معلومات مؤكدة عن طريق الأسطول الشمالي الروسي، تؤكد أن تجارب "السلاح الزلزالي" التي أجرتها القوات العسكرية الأمريكية، هي السبب المباشر والرئيسي في وقوع زلزال هايتي. ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أضاف "شافيز" أن هناك أبعاداً لا يتصورها كثيرون تتعلق بتجارب علمية أمريكية وإسرائيلية حول حروب المستقبل التي ستسبب في تدمير واسع النطاق؛ إذ تبدو وكأنها كوارث طبيعية. لم يكن "شافيز" وحده من بين رؤساء العالم الذي اتهم الولايات المتحدة بالتسبب في أضرار وكوارث، عن طريق ما يسمى التجارب الزلزالية؛ فهذا هو الرئيس الإيراني "أحمدي نجاد" هو الآخر، وبحسب صحيفة "الديلي تلغراف"، قد اتهم الغرب بالتسبب في أزمة الجفاف التي ضربت إيران، وذلك عن طريق تدمير السحب المتجهة نحو إيران؛ فقد صرح في خطابه نصاً: "تتحرك بلادنا اليوم نحو حالة من الجفاف، جزء منها لا إرادي، وهو بسبب المنشآت الصناعية، وآخر متعمد نتيجة لتدمير العدو السحب المتجهة نحو بلادنا، وهذه حرب ستغلب عليها إيران". والمثير أيضاً أن "أحمدي نجاد" قد سبق له اتهام الغرب بتفريغ السحب الممطرة والتلاعب بالمناخ.

أحدث التصريحات كانت من نصيب "يويشي شيماتسو" رئيس تحرير صحيفة "يابان تايمز ويكلي" اليابانية، عقب زلزال تسونامي اليابان 2011، الذي تسبب في حدوث تسريبات نووية خطيرة، فقد اتهم الولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل بالتسبب في الزلزال، استناداً إلى دراسة نُشرت بموقع "نتشر" النيوزلاندي، صادرة عن معهد "غودارد" لأبحاث الفضاء، إلى

تورط الولايات المتحدة الأمريكية في زلزال اليابان؛ وقد كشف أحد المشاركين في الدراسة عن ارتفاع درجة الحرارة بشكلٍ مفاجئ وغير مُبرر علمياً، فوق بؤرة الزلزال قبل ثلاثة أيام من حدوثه، كما ظهرت سحب حلقيّة عالية التنظيم في سماء منطقة الزلزال.

هذه الاتهامات ليست من وحي خيال من أطلقها؛ فوزير الدفاع الأمريكي عام 1997 إبان رئاسة "بيل كلينتون" قد عبّر عن مخاوفه من امتلاك الإرهابيين لسلاح يمكّنهم من التلاعب بالمكونات الجيومورفولوجية للأرض؛ فقال نصّاً: "لدينا مخاوف من أن يتوصل الإرهابيون إلى ابتكار سلاح موجي قادرٍ على إيقاظ البراكين الخاملة، وإحداث الزلازل المدمرة".

حقيقة إثبات أو نفي أي معلومة مما ورد حول هذا الهارب، أو أبحاث التحكم في المناخ غير واقعية بالمرّة؛ بسبب التعيم الشديد ونقص المعلومات في هذا الاتجاه. لكن ما يمكن أن نثبته حقّاً أن أبحاث التحكم بالمناخ هي أبحاث تتم على قدم وساق وهي أبحاث واعدة، والاهتمام بالتحكم بالمناخ مطروح بشدة على طاولة البحث، والنظريات العلمية تؤيد ذلك. ونحن لدينا إشارة بأن السيطرة على الأرض والتحكم فيها ليس ببعيد.

وما بين الاتهامات والتصريحات ونظريات علمية مثبتة، تكاد الفواصل بين الخيال والحقيقة أن تتلاشى شيئاً فشيئاً. قد يكون قريباً جداً ذلك اليوم الذي يُعلن فيه أنّ الأرض قد أصبحت تحت السيطرة، وأن الإنسان أصبح عليها قادر. تسارع وتيرة الاكتشافات العلمية والتقدم التكنولوجي المذهل من حولنا يُنبئُ بالكثير، ويعدُّ بأكثر مما نتوقع، ويسبق خيالنا بمراحل؛ والحقيقة المؤكدة أن الكونَ ييوحُ بأسراره لمن يستحق، ولا يمكن لشيء أن يوقف العقل البشري عن التطلع إلى المزيد.

لو لم نقدم في هذا الفصل سوى فكرة، واستطعنا قطع الطريق على المغرمين بالتحريم والتكفير، أثبتنا أنّ كتاب الله لا يضاد فكرة التحكم بالظواهر الطبيعية هذه؛ بل يشير إليها لكفاناً. غالباً ما يعتقد رجال الدين أن كل الأمور تقع في نطاق اهتمامهم، فلا يتوقفون عن الحديث عن الحاضر والمستقبل بمقاييس الماضي، ولديهم جرأة عجبية على تحريم كل ما يجهلون.

إن لم يستفد المهتمين بالبحث العلمي من طرح فكرة كهذه، باعتبارها البوابة التي يمكن من خلالها العبور إلى أبحاث جديدة ييقين إلهي، فعلى الأقل نختصر الوقت على رجال الدين عندما تُداول الأخبار حول التحكم بالمناخ في المجتمعات العلمية، فيهرعون هم لبيان حرمة ذلك ومخالفته للشرع، مساهمة مجانية منهم في تغليب فكر أفراد الأمة لا أكثر، دون أي أثر يذكر على المجتمع العلمي ذاته.

المجتمعات العلمية أغلبها ترى في الدين معوقاً للعلم، والحقيقة أن النصوص الإلهية هي أكبر مساعد ومرشد ودليل لقراءة الكون وقوانينه، كما سنرى في الأجزاء المتتابعة لهذا الكتاب.

الفصل الثاني: المفاعل جهنم

أنواع الوقود المتاحة للإنسان مختلفة ومتنوعة، منها ما هو تقليدي، مثل الفحم، والبترو، والغاز الطبيعي؛ ومنها ما هو غير تقليدي، مثل الوقود النووي، أو مصادر الطاقة المتجددة، مثل الطاقة الشمسية، وطاقة الرياح، وطاقة الأمواج. بالإضافة إلى الأنواع المعروفة السابقة، يوجد نوع من الوقود يعتمد بالأساس على مواد صلبة غير تقليدية، ويعرف هذا النوع من الوقود باسم وقود الصواريخ، أو الوقود الصلب؛ وقد يكون وقود الصواريخ؛ هو المفتاح الذي سهل لنا اكتشاف ماذا تعنيه وتمثله الحجارة بالنسبة للوقود.

قد يتبادر إلى الذهن عندما نشير إلى الحجارة كوقود، صورة الفحم الحجري (الفحم الحجري الذي يتكون في الأساس من الكربون، مع نسب صغيرة من عناصر أخرى، مثل النيتروجين والكبريت، وقد استخدم لفترات طويلة، وما يزال يستخدم في كثير من البلدان لإنتاج الطاقة الحرارية المستخدمة في توليد الكهرباء، وتشغيل بعض المصانع).

ليس الفحم الحجري هو المقصود، وإنما المقصود الحجارة التي نعرفها ونراها أمامنا في كل مكان. قبل أن نبدأ في تتبع قصة الوقود العجيب الذي أشار له القرآن الكريم، لا بد أن نعرف ما المقصود بالحجارة وما مكوناتها، ونغوص بعض الشيء في التفاصيل، فالاعتماد على الصورة النمطية والتعريفات النمطية والاستسلام لها، لن يأتي بجديد، وخصوصاً في حالة وجود متسع للبحث والتنقيب. سنرى بعد قليل كيف أن المدلول اللغوي، والحقيقة العلمية، يسيران جنباً إلى جنب؛ نخلق صورة بديعة تنطق بوحداية الخالق، وتساهم في دعم التصور عن القانون الواحد، الذي يربط جميع مكونات الكون، ومنها اللغة، أو بالأخص الألفاظ القرآنية.

يوح العلم بأسراره لمن يملك الوقت والصبر الكافي لطرح الأسئلة وتتبع إجاباتها، وبقدر عمق الأسئلة وتحورها تنبت المعارف، ويزدهر العلم ليصنع حلقة متطورة من حلقات تطور المعرفة البشرية. الحقائق التي نحصل عليها لا يمكن وصفها بالحقائق المجردة، وإنما هي بالكاد

انعكاس معرفتنا، وقدرة عقولنا على استيعاب هذه المعرفة، ومن ثم التعامل على أساسها. إننا مأمورون بالتفكر ومحاولة الوصول إلى الحقيقة، بغض النظر عن النتائج، أما الوقوف على الحقيقة المطلقة فهو شأن الخالق سبحانه وتعالى. ما يتبدى لنا من معرفة يقودنا إلى اليقين بوجود الخالق، وما تعجز.

يعلم الجميع أن توافر مصادر للطاقة رخيصة الثمن، هو مفتاح أي تقدم وقاطرة أي نمو؛ لذا تجد كل الدول التي تؤمن بالعلم وقدرته على النهوض بالأمة، تضع الأبحاث الخاصة بالطاقة، وإيجاد مصادر بديلة على سلم أولوياتها. سباقٌ محمومٌ لا يحتمل التأجيل في معامل الأبحاث لإنتاج بديل آمن ورخيص للطاقة؛ فلقد فكر الإنسان في استخدام كل شيء وجرب كل شيء لاستخدامه كمصدر للطاقة، الطاقة الشمسية، أو طاقة الرياح، أو طاقة الأمواج، والحرارة الجوفية، والوقود الحيوي، حتى احتكاك إطارات السيارات بالطرق ومحاولة توليد طاقة كهربية منه، كما حدث في الصين.

لكل مصدر من مصادر الطاقة ميزاته وعيوبه، وعن طريق مقارنة الميزات والعيوب يمكن تحديد مدى إمكانية استخدام هذا البديل، وفي أي مجال يمكن استخدامه. يعد البترول بلا شك هو أكثر المصادر استخداماً لعدة اعتبارات: أولها مدى توافره ورخص تكلفته مقارنة بالمصادر الأخرى، وسهولة استخدامه، إلا أنه لاعتبارات سياسية، وأخرى بيئية، أصبح البحث عن بديلٍ مناسبٍ هو الشغلُ الشاغلُ للعالم حالياً. مفتاح أي تنمية بكل تأكيد لا بد أن يتوافر لها عاملان أساسيان؛ هما الماء والطاقة، فبدون الماء والطاقة لا يمكن أن تقوم أي تنمية من أي نوع.

مسألة توجيه المشروعات البحثية في اتجاه التغلب على نقص المياه، وفي اتجاه إيجاد بدائل رخيصة للطاقة، هو مفتاح بوابة العبور للمستقبل. فهل يمكن أن نكون بهذا الفصل قد ضغننا الزناد، ووجهنا الدفة نحو محاولة إيجاد نوع جديد كلياً من الوقود، قائم على الحجارة؟ لقد كانت الشرارة الأولى عندما شاهدت أحد البرامج المخصصة للتشكيك في كتاب الله، وكانت الحلقة منصبةً حسب زعم المحاورين على خطأ ورود كلمة "حصب" في القرآن الكريم، وأن

الكلمة الصحيحة هي "حطب" لتشابه الكلمتين، ومعنى حطب المتوافق مع المعنى العام الذي قال به كثير من المفسرين، وهو الترادف الذي يكاد يكون تاماً بين كلمة حصب وحطب.

دعوني أنقل الحديث هنا حول كلمة حصب وحطب، كما جاء على لسان مقدم البرنامج. زعم الرجل أن القرآن به تحريف، استناداً إلى أن به بعض الكلمات كتبت اعتباراً، وليست هي الحقيقة المقصودة. يقول مقدم البرنامج أن من كتب القرآن هو من أخطأ في كتابة الكلمة، ولم ينتبه إليه أحد، وهكذا لم يؤت أحد الشجاعة لتغييرها فصارت هكذا بشكلها الحالي؛ لتصير - على حد زعمه - دليلاً قوياً على عدم دقة القرآن، وأنه كتاب بشري وليس من عند الله.

عند هذه النقطة يتبدى الفرق بين الإيمان والعلم، وبين قلب مؤمن وعقل يشك. القلب المؤمن يؤمن تماماً أن الكلمة صحيحة لا ريب فيها، والعقل يسأل كيف جاءت هكذا حصب، ولا بد أن خلفها سرّاً عظيماً. من خلال القلب المطمئن والعقل الذي يحمل التساؤلات سنكتشف دقة هذا اللفظ العجيب. كلمة "حصب" التي وردت في سورة الأنبياء (الآية 98)، هي محل الاعتراض والنقد.

استعرض الرجل تفسير المفسرين ليصدروا عن رأي واحد، وهو أن حصب معناها حطب فكان استنتاج الباحث أن كاتب القرآن استبدل الطاء في كلمة حطب بالصاد، فأصبحت (حصب)، وحصب هنا ليس لها أي مدلول كما يقول مقدم البرنامج؛ ثم استعرض الرجل مخطوطة قديمة دونت عليها الآية، وكان رأيه أن سنة حرف الصاد ما هي إلا باقي حرف الطاء، ولكن الأمر تشابه على الكاتب فلم ينتبه لذلك؛ ثم استرسل مقدم البرنامج في تحليله بأن الخطأ كان ورطه فلم يجرؤ أحد على تغييره؛ حتى لا يقدر أحد في القرآن الكريم.

لقد كان هذا الاستدلال بهذه الطريقة استدلالاً سخيفاً وعبثياً لشخص يؤمن أن القرآن الكريم هو كتاب من عند الله، ولا سبيل للاختلاف فيه، ولكن كلام الرجل لشخص لا

يؤمن بالقرآن يبدو منطقياً، وخصوصاً بإقرار القدماء بالترادف، وأنه لا فرق بين حصب وخطب.

أقوال المفسرين تدور حول معنى حصب، هو خطب أو وقود جهنم، وحتى معاجم اللغة قد استقت المعنى أيضاً من أقوال المفسرين في أغلبها؛ إلا أن هناك المعنى المجرد للحصب غير واضح، وهو الحجارة الصغيرة، أو الحجارة الصغيرة المتبلرة. أرض حصباء أي: مليئة بالحجارة الصغيرة، أو بالحصى. إذا كان أصل الحصب هو الحجارة الصغيرة، فلا بد أن يلفت الانتباه إلى الآيات الكريمة التي تتحدث عن وقود جهنم في الآخرة على أنه الحجارة أيضاً. إنه التناسق والتوافق في كتاب الله. استخدام لفظ حصب الأدق والأشمل، يصف أيضاً وقود جهنم الصلب، الذي وصف من قبل بالحجارة، وكأنها إشارة ترشد الإنسان إلى أن هذا الوصف ربما يحمل أسراراً علمية أو نظرية من نظريات المعرفة حول الوقود، وحول تركيب الحجارة.

لا بد لنا أن نشير إلى أن كلمة خطب، كما في قاموس اللغة بمعنى وقود، ولكن نستطيع أن نفرق الآن بين خطب، وبين حصب؛ فالخطب تشير إلى الوقود اللين، بينما الحصب هو الوقود الصلب، بل حصرياً الحجارة الصغيرة. نلاحظ أن كلمتي الخطب والحصب تختلفان فقط في الحرف الأوسط، فالطاء في حالة الخطب، الذي يدل بحسب بعض المصادر المعنية بدلالة الحروف الصوتية على نوع من الطراوة، بعكس حرف الصاد الذي يدل على الصلابة. وقود جهنم هو وقود صلب، والذي ذكره ربنا في مواضع أخرى على أنه الحجارة.

الخواطر القرآنية

يقول الله سبحانه وتعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ) (سورة التحريم: الآية 6).

اللافت للنظر أن القرآن الكريم، عندما وصف وقود النار بالحجارة، كان وصفاً حقيقياً، أي ليس ضرب مثال كما في أغلب حالات وصف الجنة، التي جاءت بلفظ "مثل الجنة".

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ) (سورة الرعد: الآية 35).

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَخْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) (سورة محمد: الآية 15).

في المقابل عندما وصف ربنا وقود النار لم يضرب مثلاً، كأن يقول مثل وقود النار الحجارة، وإنما قال وقودها الناس والحجارة. إذا سلطنا أن القرآن من عند الله، وأن كل كلمة فيه لها مدلولها ومقصودها، فلا بد أن ندرك أن استخدام الكلمات، إنما هو نظم إلهي يحوي أسراراً ليست منتهية، وعلومًا محيطية، لأن من نظمها هو من نظم الكون بقوانينه وأسبابه جميعها. لفظ "الحجارة" ماهي إلا كلمة من ذلك النظم الإلهي البديع، الدال على سر عظيم، ويصف المسمى بعلم وقدرة. عندما يشير المولى عز وجل إلى أن الحجارة هي وقود للنار في الآخرة، فكأنما يستحث عقولنا لكي نسأل ونبحث، ونحاول بقدر ما يسر الله لنا من العلم أن نبحث في المفاهيم والتجارب العلمية، لعل الله أن يفتح لنا من أبواب علمه. ذكرت كلمة "حجارة" في القرآن الكريم تسع مرات، ثنتان منها فقط مرتبطةً بالنار، وذلك في موضعين هما:

(فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (سورة البقرة: الآية 24).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) (سورة التحريم: الآية 6).

عندما نقرأ في كتاب الله ونرى أن الله العليم الحكيم قد أشار إلى وقود النار بالحجارة دون غيرها من الكلمات، مثل الصخور وهي كلمة قرآنية، أو حديد، وكلمة حديد أيضاً كلمة قرآنية،

بل سميت سورة كاملة باسم الحديد، أو حتى النحاس؛ فعندما ترى هذا التناسق العجيب في استخدام كلمة حجارة دون غيرها، ثم كلمة حصب التي تعني أيضاً الحجارة الصغيرة المتبلرة، فلا بد أن يستثير ذلك النفوس المتلهفة للمعرفة، ويحثها على البحث والتنقيب.

في البداية سوف نحاول تحديد معنى كلمة "حجر" وكلمة "صخر" والفرق بينهما، والتي يستخدمها لسان العرب تقريباً بنفس المعنى. اللسان العربي يسمي الأشياء بناءً على معرفته بها، وهي معرفة بشرية ناقصة بعكس مدلول المسميات في كتاب الله، لذلك تجد اللسان العربي لا يفرق بين الحجر والصخر سوى من حيث الحجم؛ فيصف الصخر على أنه القطع الكبيرة، أما الحجر فهي القطع الصغيرة، والقطع الأصغر يسميها حصى (شرح نظرية نشأة اللغة، والفرق بين المسميات القرآنية الحقيقية، والمسميات البشرية المختلطة، جاء بالتفصيل في الجزء الثاني).

من خلال الاهتداء بمدلول الكلمة في كتاب الله، ومن خلال جذر الكلمة، وبعض المعلومات العلمية سنحاول التفريق بين لفظ حجر، ولفظ صخر، ولعل بعد هذا البحث تتغير نظرة الجيولوجيين لمفهوم كلمة حجارة، ومفهوم كلمة صخور التي يستخدمونها في وصف التكوينات الجيولوجية. جذر كلمة "حجر" ثلاثة أحرف، الحاء والجيم والراء، في معجم مقاييس اللغة لها أصل واحد، وهو المنع والإحاطة، ولو تطرقنا للكلمات التي أولها حرف الحاء، وثانيها الجيم كجذر ثنائي، ومعناها إطفاء أو إحاطة، ومن ثم قمنا بإضافة الحرف الثالث سندرك أن المعنى يتغير تغيراً طفيفاً بتغير الحرف الثالث كالتالي:

الحجز: هو المنع بين شيئين.

الحجف: هي الترس الصغير يطارق بين جلدتين.

الحجل: هو شيء يطيف أو يحيط بشيء.

الحجم: هو أيضاً نوع من المنع.

الحجن: هو الميل ويقصد به الميل الذي يمنع شيئاً آخر أو يحيط به.

الحجا: معناه إطفاء شيء بشيء آخر.

الحجب: أيضاً معناها المنع.

كلمة حجر من خلال مدلول الجذر الثنائي، ومن الرجوع بالاستعانة بمدلول حرف الراء الذي يدل على التكرار، سندرك أن الحجر ما هو إلا تكوين ممسوك أو محجوز بقوة معينة في دورات متماسكة ومتكررة. من الواضح أن خصائص وصفات الحجر هي عملية الإطافة أو الإحاطة (دورات متكررة). للوصول لمفهوم الحجر لا بد لنا من معرفة علمية معقولة عن تكوين ما يسمى بـ الصخور والأحجار، هذه المعرفة عند مقارنتها مع جذر الكلمة سنجد أن لفظ حجر ينطبق تماماً على ما يُعرف اصطلاحاً باسم الصخور الرسوبية.

هذا التكوين المتكرر والمنع والإحاطة يتوافق تماماً مع نشأة التكوينات الرسوبية، وعلى ذلك تسمية هذه التكوينات بالصخور، هي تسمية غير حقيقية أو غير صحيحة، والتسمية الصحيحة هي أحجار رسوبية. جمع كلمة حجر، كما وردت في القرآن هو حجارة، وهناك في لسان العرب جمع آخر وهو أحجار، والفرق بينهما، كما في لسان العرب أن الحجارة : جمع الحجر الكثير، كأن نقول حجارة الجبل، أما الأحجار فهي جمع الحجر القليل، مثل أحجار الماس، أو الأحجار الكريمة.

لدينا ملاحظة هنا وهي أن ما نطلق عليه أحجار كريمة هي ليست أحجاراً رسوبية ينطبق عليها لفظ الحجر؛ على النقيض من ذلك كما سنرى هي تكوينات صخرية أصلها ناري، تكونت نتيجة خروج مصهورات من البراكين.

بالبحث عن جذر كلمة صخر في قاموس اللغة لابن فارس أو لسان العرب لابن منظور، سنجد أنه لا جديد، وليس هناك أي معلومة عن تركيب أو وصف هذه الكلمة سوى القول إنها تصف الحجر العظيم. المتاح لدينا هو الجذر الثنائي صخ، والصاد والحاء، كما في مقاييس اللغة يدل على صوت من الأصوات المرتفعة الحادة، كما في الصاخة (صوت مرتفع يصم الآذان) وصخَّ الغراب بمنقاره أي: طعن، فالصخُّ هو فعل شيء سريع مفاجئ فيه قوة. ورغم أن مقاييس اللغة لم تزد على تعريف الصخر بأنه حجر عظيم، إلا أن مدلول الكلمات الشبيهة، التي

تحتوي على الجذر الثنائي الصاد والحاء مضافة إلى الحرف الثالث قد تعطي لنا دلالة على معنى صخر والمقصود منها.

صخدا: وهي كما في مقاييس اللغة شدة الحر أو الحر الشديد.

الصخب: وهو الصوت العالي.

ولو نظرنا إلى كلمة "صخر" فهي تنتهي بحرف الراء، وإذ صوت الراء يوحى بالتكرار، نستنتج أن وصف كلمة صخر تصف حالة مكونات سريعة مفاجئة متكررة. بمقارنة ما حصلنا عليها من معلومات، وبما هو متاح من معلومات جيولوجية، نعتقد أن كلمة صخر هي التوصيف الحقيقي للصخور النارية، والتي تكون نتيجة اندفاع البراكين من باطن الأرض في شكل حمم بركانية بردت سريعاً. التكوينات البركانية التي تكون الصخور النارية تتميز بالقوة والسرعة والحرارة الشديدة، الناتجة عن البركان، والمدى الزمني القصير مقارنة بـ التكوينات الرسوبية.

استخدم كتاب الله لفظ الحجارة في وصف وقود النار، وتبعاً لهذا الوصف لا بد أن يوجد فرق بين مسمى الحجر ومسمى الصخر. يعرف المتخصصون جيداً أن الفرق بين الحجر الرسوبي، وبين ما يعرف بالصخر الناري، هو فرق كبير جداً في النشأة، والتركيب، والمكونات، وأيضاً في المدة الزمنية التي يحتاجها كل نوع للتكوين. التسمية القرآنية ليست مجرد وصف بدون دلالة، ولكن لها دلالة واضحة مما يزيد اليقين يقيناً أن هذه اللغة هبة إلهية، وليست من صنع البشر بشكل خالص، أو كما يعتقد أهل اللغة حالياً أنها اصطلاح تم بين البشر.

تبعاً للفظ حجر ومنطوقه، وجذر الكلمة فإن الحجر هو المادة التي تكونت عن طريق ترسبات متتالية، ومتكررة في مدة زمنية كبيرة مقارنة بالتكوينات الأخرى، وتماسكت مكوناتها بقوة معينة فيما يعرف علمياً بالتكوينات الرسوبية (حجر رسوبي).

عند تفصيل مكونات كل من الحجر الرسوبي والصخر الناري، وفهم كيف يمكن أن تستخدم تلك المكونات كوقود سيكون لدينا دليل لا يمكن إنكاره على مفهوم الحجر ومفهوم

الصخر. الإجابة عن سؤال ما علاقة تركيب الأحجار نشأتها باحتمالية كونها وقوداً؟ وهل يمكن الاستفادة من هذه الفرضية بشكل علمي، سنجيب عنه في الأسطر القادمة؟

الرؤية العلمية

تبعاً لعلم الجيولوجيا فإن الأحجار الرسوبية المعروفة اصطلاحاً باسم الصخور الرسوبية، قد تكونت نتيجةً لترسب طبقات رقيقة جداً من المواد الأولية، التي تشمل مواداً عضوية وبعض أكاسيد المعادن، والأملاح، والكربون، على مر العصور.

المدى الزمني الذي استغرقته تلك الأحجار لتصبح بالهيئة التي عليها الآن يشبه إلى حد كبير تكوين البترول، غير أن البترول في مجمله مواد هيدروكربونية، بمعنى أن العنصرين الأساسيين في تكوين البترول هما الهيدروجين والكربون. أما بالنسبة للأحجار الرسوبية فهي تتكون في المجمل من أكاسيد وأملاح ومعادن مختلفة، مثل أكسيد السيليكون، والمشهور بالرمل ومخلوط من أكاسيد الحديد، والمشهور بالصدأ، وأكسيد الكالسيوم المشهور بالجير الحي، وأكسيد النحاس، وأكسيد الألومنيوم، وأكسيد المنجنيز، وأكسيد المغنيسيوم، وكربونات الكالسيوم، وكبريتات الصوديوم، والمغنيسيوم... إلخ؛ بالإضافة إلى نسبة صغيرة من المعادن المنفردة، مثل الحديد، والنحاس، وبعض المكونات العضوية القادمة من بقايا كائنات، والتي تتكون بالأساس من عنصر الكربون.

الجدير بالذكر أن الأملاح التي تُكون أغلب مكونات الحجر الرسوبي، تتفكك بالحرارة المتوسطة إلى الأكسيد المقابل، وتصبح هذه الأكاسيد نشطة لدرجة كبيرة جداً وجاهزة للتفاعل. عند استخدام لفظ الأكاسيد التي تتكون منها الأحجار الرسوبية في هذا الفصل، فإننا نعني بذلك الأكاسيد الأساسية، وكذلك الأكاسيد الناتجة عن تحلل الأملاح الداخلة في تركيب الحجر الرسوبي، بواسطة الحرارة المتوسطة. تنقسم الأحجار الرسوبية من حيث النشأة إلى نوعين رئيسيين هما:

النوع الأول: الأحجار الرسوبية ذات النشأة الكيميائية التي يغلب على تركيبها المواد غير العضوية؛ وأهمها الحجر الجيري. أغلب محتوى هذه الأحجار هو أملاح، وأكاسيد لمركبات مختلفة.

النوع الثاني: الأحجار الرسوبية ذات المنشأ العضوي، التي تحتوي على ترسبات عضوية ناتجة عن البكتيريا الدقيقة، التي نتجت بدورها عن تحلل النباتات الخضراء، بالإضافة إلى بعض الأكاسيد، والأملاح الناتجة عن مياه البحيرات والمستنقعات. جدير بالذكر أن نشير إلى حالة خاصة من تلك الأحجار؛ وهي ما يعرف باسم (الصخور) السلكية ذات الأصل العضوي الناتجة عن بقايا كائنات حية، مثل الإسفنج، والراديو لا، والريومات، وبعض النباتات المائية.

على الجانب الآخر: التكوينات الصخرية، أو ما يطلق عليها الصخور النارية، وهي تسمية صحيحة مائة بالمائة؛ بسبب تكوينها المطابق تماماً لمسامها. هذه الصخور تختلف تماماً عن الأحجار الرسوبية من حيث النشأة والتركيب؛ في حين أن المادة الأساسية في الأحجار الرسوبية هي عبارة عن الأملاح والأكاسيد، سنجد أن المكون الرئيسي للصخر الناري هو مادة السيليكات (ناتج تفاعل أكاسيد، وأملاح عند درجات حرارة عالية مرتفعة).

السيليكات هي عبارة عن اتحاد عنصر السيليكون مع مركبات أخرى، أو تفاعل أكسيد السيليكون، وهو الرمل مع أكاسيد مختلفة عند درجات حرارة مرتفعة. خروج المواد المنصهرة من البراكين هو ما يوفر درجة حرارة مناسبة لهذا التفاعل؛ فتتحول كل التكوينات الموجودة في طريق المواد المنصهرة والخارجة من البركان إلى ما يعرف بالصخور النارية.

هذا التفاعل وطريقة الاحتراق هذه هي بالضبط ما يستخدم في صناعة السيراميك تحت ظروف وشروط معينة للتحكم في جودته ونوعيته؛ فالسيراميك يمكن أن نطلق عليه صخوراً نارية صناعية، يصنعها الإنسان على عينه ويتحكم فيها، وهو مواد ثابتة حرارياً، أي أن السيراميك يتحمل درجات الحرارة المرتفعة، وذلك بسبب عدم قابليته للتفاعل عند درجات الحرارة العالية. كذلك الصخور النارية تعد صخوراً ثابتة حرارياً بسبب الروابط القوية جداً في

تلك المركبات المعروفة بالسليكات، التي لا تتأثر بالحرارة، وبالتالي لا يمكن استخدام الصخور النارية في مرحلة أخرى كمواد متفاعلة. بخلاف ذلك فإن الأحجار الرسوبية بمكوناتها النشطة من الأملاح والأكاسيد، تعتبر وسطاً قابلاً للتفاعل عند درجات الحرارة المرتفعة.

احتراق الوقود ما هو إلا تفاعل كيميائي ينتج عنه حرارة، وغالباً بعض الغازات، فإذا استخدمنا في هذا الفصل كلمة تفاعلات، فإننا نقصد عملية الاحتراق والتحول من مادة إلى أخرى، أي عملية الاشتعال التقليدية.

إن من يملك بعض المعلومات من صفوف الدراسة عن المواد المشتعلة، عندما يقرأ الآن عن مكونات الأحجار الرسوبية، التي تتكون من مجموعة من الأكاسيد والبقايا العضوية، قد يتبادر إلى ذهنه أن مسؤولية الاشتعال واعتبار الأحجار الرسوبية وقوداً، قد يعود إلى المكونات العضوية، التي تشبه إلى حد كبير المواد البترولية أو الفحم! نعم.. يمكن أن تسهم البقايا العضوية في عملية الاحتراق، ولكن بنسبة قليلة جداً، ولكن المعني بالأمر هنا هي الأكاسيد والأملاح.

كحالة لفهم الفرق بين احتراق المواد العضوية، مثل الفحم، واحتراق مواد الأكاسيد، سنستخدم تعبير درجة حرارة، بسبب بساطتها وتقريب الفكرة بدلاً عن استخدام تعبير كمية الحرارة، التي تحتاج لمتخصصين. درجة حرارة احتراق الفحم تصل إلى 400 درجة مئوية، بينما مخلوط من الأكاسيد - كما سنرى بعد قليل - يمكن أن تصل درجة حرارة تفاعله إلى 6000 درجة مئوية، وهو ما يساوي تقريباً درجة حرارة سطح الشمس.

الأكاسيد

إنه لأمرٌ شيقٌ تتبع واكتشاف سحر المركبات المسماة بالأكاسيد، التي تنبّه لها العالم حديثاً في سباقه المحموم في تطوير البرامج الصاروخية بعيدة المدى، والقذائف شديدة الانفجار. معظم ما يتداول هو النذر البسيط جداً حول هذا العلم، الذي تعد كل خطوة فيه سرّاً خطيراً من الأسرار العسكرية تحتفظ به الدول في إطار تطوير برامجها الصاروخية.

محاولة البحث خلف هذا الأمر هو أمرٌ شديدُ التعقيد بسبب قلة المعلومات المتاحة، وخصوصاً عن بعض الأكاسيد التي يوجد مؤشرات على أنها ذات طبيعة غير متوقعة في تفاعلاتها، ونشاط غير اعتيادي بل وخطير جداً. في المقابل هناك أبحاث منشورة عن تفاعلات شهيرة تسمى الثرميت Thermite والتي تستخدم أكاسيد معتادة في تفاعلها كوقود، مثل أكسيد الحديد، والنحاس، والمنجنيز، والألمونيوم، وأغلب الأكاسيد المعروفة. كلمة ثرم تعني حراري، وعلى ذلك فمصطلح ثرميت يعني تفاعلاً شديداً للاشتعال.

تفاعل الثرميت في أبسط صورة له، وكما يعرفه الكيميائيون، هو تفاعل يتم بين مسحوق الألمنيوم وأكسيد الحديد (الصدأ)، هذا التفاعل يحتاج لدرجة حرارة مرتفعة نسبياً لكي يبدأ التفاعل، على الأقل 600 درجة مئوية. إذا توافرت درجة حرارة تصل إلى 600 درجة مئوية؛ فإن التفاعل يبدأ بالعمل، وينتج طاقة حرارية عالية جداً تصل درجة حرارة التفاعل في ثوانٍ معدودة إلى ما يقرب من 3000 درجة مئوية.

من خلال تتبع أكثر من 260 براءة اختراع، وأكثر من 300 ورقة بحثية تتحدث عن تفاعل الثرميت ومدى قابلية استخدام أكاسيد مختلفة، أو مخلوط من الأكاسيد، كانت النتيجة اكتشاف أن جميع الأكاسيد تقريباً تتفاعل هذا التفاعل بشرط توافر درجة حرارة مناسبة، وفلز حرله نشاط أعلى من الفلز المكون للأكسيد، أو على الأقل هو نفسه الفلز المكون للأكسيد، مثال (حديد حر مع أكسيد الحديد).

العجيب في أمر هذا التفاعل هو أنه يمكن أن يسير كتفاعل متسلسل، بمعنى كل تفاعل منتهٍ يعمل كشرارة لبدء تفاعل جديد، لتزداد درجة الحرارة بشكل مطرد وسريع، ويتوقف فقط التفاعل في حالة نفاذ الأكاسيد، أو تكوين ما يسمى بالسليكات في حالة وجود أكسيد السيليكون.

مع إمداد التفاعل بالأكاسيد والمواد النشطة، يمكن أن يستمر التفاعل، وتعمل الأكاسيد كوقود لهذا التفاعل، ولكن التحكم في هذا التفاعل صعبٌ للغاية بسبب سرعة التفاعل العالية جداً، والارتفاع المفاجئ في درجات الحرارة.

بحسب المعلومات المتاحة، فإن تفاعلاً مثل تفاعل الثرميت له تطبيقات عديدة، حتى إن أحد هذه التطبيقات هو تحضير حبيبات الماس صناعياً باستخدام نسب محددة من أكاسيد عناصر حرة. إنها تفاعلات معقدة، ولكنها تفاعلات ممكنة وخطيرة، تشبه إلى حد ما التفاعلات النووية في شكلها المتسلسل، تفاعلات قد تصل درجة حرارتها إلى 6000 درجة مئوية. عند هذه الدرجة المرتفعة يصبح التنبؤ بسلوك المواد المتفاعلة صعباً للغاية.

كما ذكرنا أن الحجر الرسوبي ما هو إلا مجموعة من الأكاسيد، والأملاح، والمواد العضوية المتجمعة والمتحجرة في حيز صغير جداً، ما أن تتعرض لظروف تفاعل مناسبة، إلا وتبدأ في السلوك كوقود. الأحجار الرسوبية تختلف عن بعضها، في نسب المواد المكونة لها، وعدد مكوناتها حسب نشأتها وظروف تكوينها؛ لذا لا يمكن بناء نموذج موحد لسلوكها في التفاعلات، ولكن يمكن فهمها من خلال إطار عام. استخلاص الأكاسيد والأملاح من الأحجار، واستخدامها كوقود أصبح اليوم شيئاً بديهياً، ولكن السؤال هو هل يمكن استخدام الحجر كوحدة واحدة كوقود؟

لا شك أن الأحجار الرسوبية بما تحتويه من أكاسيد ومواد، تمثل مخزوناً استراتيجياً للطاقة، وتفاعل مكوناتها عند درجات الحرارة العالية، بقدر ما هي واعدة بقدر ما هي خطيرة، وتحتاج وسائل أمان واحتياطات بدرجة عالية وغير مسبوقه.

لقد أمكننا التأكد من تفاعل معظم الأكاسيد المعروفة، ولكن يبقى هناك نوع آخر من الأكاسيد عليه تعميمٌ شديدٌ جداً، مثل أكاسيد الصوديوم، والماغنسيوم، والبوتاسيوم، والكالسيوم. كل ما لدينا حول هذه الأكاسيد أنها تستخدم في القذائف شديدة الانفجار.

تبقى نقطة أخيرة، هل يمكننا الاستفادة من هذه التفاعلات وتسخيرها في أغراض سلمية؟ نظرياً.. نعم يمكن، ولكن عملياً الأمر يحتاج لدراسات طويلة، ومعقدة حتى يمكننا الجزم نهائياً بإمكانية إجراء هذه التفاعلات والتحكم فيها، ثم تأتي بعد ذلك الدراسات الاقتصادية للتأكد من جدوى تفاعلات كهذه.

لا شك أن احتمالية هذه التفاعلات قائمة، والسيطرة عليها والتحكم فيها أمرٌ ليس ببعيد، ولكن تحتاج لجهود مخصصة ومعرفه عميقة. وقد تكون الدول العظمى قد توصلت بالفعل لتلك الحقائق، ولكن لم تسمح بعد بنشرها أو الاطلاع عليها؛ بسبب ما يمكن أن يمثله ذلك من تحول في مفهوم المواد عالية الطاقة، وسهولة الحصول عليها.

إن استخدام الألفاظ القرآنية لها مدلولها، الذي لا يمكن لعاقل أن يعتقد أنها جاءت هكذا دون دلالة واضحة، فإن استطعنا إدراك هذه الدلالة وفهمها، فهو فتح من الله، وإن لم نستطع نحن بعلمنا وإمكاناتنا، فقد يأتي خلفنا من يملك الأدوات ويصحح من أخطائنا، ويفهم ما عجزنا عن فهمه. حسبنا من ذلك أننا أثرتنا فكرة وطرقنا باباً لم يترك من قبل، وأسسنا لطريقة تفكير جديد من خلال فهم مدلول الكلمات في كتاب الله. هذا الفصل يحتوي على معلومات لغوية، وتصحيح مسميات، مثل كلمة حجر، وصخر، التي يمكن أن تكون نواة لبحث لغوي يتم من خلاله إعادة وصف الكلمة في معاجم اللغة.

أيضاً مفهوم الأجر الكريم، أثبتنا أن الوصف الصحيح لها هو صخور، وليس (أحجار). بجانب المعلومات اللغوية فهناك معلومات علمية تحتاج لأن تُختبر وتوضع على طاولة البحث، وربما كانت فتحاً معرفياً لنوع من الوقود متوفرة لدينا موادها انحام بكثافة، ولم يستغل الاستغلال الأمثل بعد. تصحيح المسميات تبعاً لكتاب الله سيتيح فهم حقيقة الأشياء، ومن ثم اكتشاف معارف وعلوم جديدة، عن طريق فهم التعبيرات القرآنية. تصحيح كلمة واحدة يتبعها تصحيح كلمات، ومن ثم فهم تعبيرات قرآنية لم تفهم بالطريقة الصحيحة. إنها محاولة لربط كلمات الله الناطقة بكلماته الصامتة.

الفصل الثالث: خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ

تلقي فكرة الإعجاز العلمي رواجاً كبيراً لدى الناس؛ لأنها تروي ضمأهم لليقين، عملاً بقول الله تعالى (ولكن ليطمئن قلبي)؛ ورُغم ذلك فإن نسبة ليست بالقليلة، تعارض ذلك معارضة شديدة، بحجة أن القرآن ثابت، والعلم ونظرياته متغير.

تكمن المشكلة الحقيقية في فهم الناس، وطريقة تعاطيهم مع كتاب الله، ومحاولة تأويل هذا الكتاب العظيم. عندما تجعل كتاب الله بكلماته، وألفاظه المحكمة، في نفس مستوى تأويل البشر، تكون قد ارتكبت خطأ جسيماً، وهنا تكمن الكارثة. كلمات الله منذ أن أنزلت لم تتغير ولم تبدل، وها هي أمام كل متدبر ومفكر يستطيع أن يصول ويجول حولها، تبقى كلمات الله تحمل الحقيقة، ويبقى الفهم البشري يحمل قدرة واستيعاب صاحبه، ويعكس معارف العصر الذي صيغ فيه هذا التأويل.

إذا أخبرنا القرآن الكريم أن من مراحل خلق الجنين هي العلقه؛ فإن مسمى العلقه هو أحد مراحل تكوّن الجنين الحقيقية؛ وأي محاولة لتفسير العلقه بأنها كتلة دم متخثر، أو دودة عالقة، هي انعكاس لمعرفة الناس وفهمهم؛ ويبقى جذر كلمة علقه، وهو العين واللام والقاف، هو الحقيقة التي يجب أن نبحث خلفها ونتعلق بها. سميت الدودة بالعلقه ليس لشيء إلا أنها تعلق بالعائل، أي بالكائن الذي تتغذى عليه، أي أن هناك علاقة وارتباط نشأ بينها وبين العائل، وهذه العلاقة واضحة للمشاهد؛ ومن هنا جاءت تسمية علقه.

أما تسمية العلقه كتلة الدم المتخثر، فأعتقد أنها استمدت صفتها من التفسيرات القديمة وبالتحديد المفاهيم الإغريقية، إذ كان يعتقد أرسطو أن الجنين عبارة عن شكل غير معروف داخل الرحم، ربما من دم الحيض، يتم تحفيزها أو تحوله إلى شيء حي من خلايا الرجل ويتحول لتجلط دموي. أعتقد أن المفسر الذي وصف العلقه بكتلة الدم المتخثر، قد استقى هذه

المعلومة من تفسير أرسطو للعلاقة، فدخل هذا الوصف للمعاجم والتفاسير، وهو وصفٌ عليّ خاطئ بالمرّة، كما سوف نرى بعد قليل.

للإفلات من هذا الفخ، أقصد نفي التسميات البشرية ومدلولاتها، كان لزاماً علينا اعتماد مدلول جذور الكلمات بدلاً عن مدلول الكلمة ذاتها؛ فكما اقتربنا من الصورة الأولية والصورة البسيطة، كان الطريق أيسر للفهم وأشمل.

لو حاولنا الاقتراب من الكلمات التي تصف تكوين الجنين، سنجد أن كلمة علقة مشتقة من مادة "علق" وهي العين واللام والقاف؛ هذه المادة في قاموس اللغة تعني: تعلق شيء بشيء (أي وجود علاقة بين شيء وشيء أعلى)؛ أما كلمة مضغة وجذرها "مضغ" فهي تعني: ضغط الشيء مع الحشر.

المفسرون القدامى والمحدثين منهم، ارجعوا تسمية علقة إلى الشبه القائم بينها وبين الدودة التي تعلق بالكائن. هنا ممكن الخطأ وهو محاولة تكييف اللفظ القرآني مع تسمية بشرية مبنية على معارف بشرية؛ أما الوصف الآخر للعلاقة وهو كتلة الدم المتخثر، هو وصف وتصور أرسطو عن مراحل تكوين الجنين وليس له علاقة باللغة أو بمدلول الكلمة في كتاب الله. ما علاقة علق، التي تعني علاقة بين شيء وشيء، وبين وصف كتلة الدم المتخثر أو المتجلط؟

الفرق بين التسمية في كتاب ومدلول الكلمة عند البشر، يشبه إلى حد كبير تسمية السيارة، التي وردت في سورة يوسف، ومعناها القوم الذين يسرون، أو المارة؛ فإذا جاء من يعتقد أن المقصود بالسيارة هنا هي السيارة الحديثة التي تسير بالوقود، فهذا لا شك خلط يسبب تشويشاً وارتباكاً في فهم المقصود من التعبير القرآني.

(وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسْرَاهُ

بِضَاعَةٍ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ) (سورة يوسف: الآية 19).

فمثلاً إذا قلنا معنى السيارة في المعجم: هي ذلك الشيء الذي يسير على أربعة إطارات وله محرك، وحاولنا تفسير القرآن تبعاً لهذا التفسير، فهذا تكلف غير مقبول، ولكن يجب أن نسلك طريقاً صحيحاً في محاولة تفسير الكلمة، وهو محاولة فهم جذر الكلمة، وماذا تعني؛ فكلمة سار أصلها سير، وتعني المضي والجريان، وهكذا يجب أن نمضي.

لذلك فأنا أرفض تفسير كلمة علقه بكلمة الدم المتخثر، أو حتى الدودة العالقة؛ والأصح عندي هو جذر الكلمة، وهو تعلق شيء بشيء. كما ذكرنا فإن وصف العلقه على أنها كتلة دم متخثر هو تسمية بشرية خالصة، قامت على معارف إنسانية محدودة بمقاييس ذلك الزمان؛ فقد أثبتت المعارف الحديثة أن الكتلة العالقة في الرحم في بداية التكوين (الجنين غير الحي أو الجنين الجرثومي) ليست دمًا متخثرًا، وإنما بحسب المجالات العلمية، أن الدماء المحبوسة في الأوعية الدموية هي دمًا في حالة سائلة، وليست متخثرة.

أجاب بعض علماء العصر الحديث عن هذا الأمر بقولهم أن شكل الكيس الجنيني يشبه إلى حدٍ كبير الدم المتخثر؛ ومرة أخرى التشبيه سطحي جداً وظاهري على غير الحقيقة. كلمة علقه كما قلنا جاءت من مادة علق، وهي تعلق شيء بشيء آخر، وإذا استعرضنا الآيات القرآنية لتعرف على معنى كلمة علقه، وكلمة مضغة، فإننا سنجد التالي:

ذكرت كلمة علقه بمعناها كمرحلة من مراحل تكوين الجنين خمس مرات في كتاب الله، منها مرتان في سورة المؤمنون.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَّبِّئِكُمْ وَنُقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يَتَّقَىٰ وَمِنكُمْ مَّن يردُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (سورة الحج: الآية 5).

﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً نَحْلَقُنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً نَخْلَقُنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (سورة المؤمنون: الآية 14).

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّ كُرْمٍ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَىٰ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَبْلُغَ أَجَلَ مَسْمُومٍ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة غافر: الآية 67).

﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً نَخْلَقُ فَسَوِّئًا﴾ (سورة القيامة: الآية 38).

هذا بالإضافة إلى كلمة علق التي ذكرت مرة واحدة في كتاب الله، وسميت سورة باسمها، ولنا معها وقفة في نهاية الفصل بإذن الله.

﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (سورة العلق: الآية 2).

يقول الله سبحانه وتعالى عن مراحل تكوين الجنين، أن الخلق بدأ من تراب، وهي المرحلة الأولى (التراب ليس هو تراب الأرض كما هو شائع ومعروف. تفسير معنى تراب وعلاقة هذا المسمى بتكوين الجنين مذكور بالكامل في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب). بعد التراب لدينا ست مراحل من مراحل تكوين الجنين، بدايةً من النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم خلق المضغة عظاماً، ثم كسو العظام لحماً، ثم عملية الانتقال الكامل من مرحلة ما قبل الحياة إلى مرحلة الحياة، والمسماة بالخلق الآخر.

كلمة نطفة أصلها نطف، ولها أصل هو: بلل أو نداوة. ويمكن محاولة فهم نطفة من خلال الآية التالية وسوف نمر عليها سريعاً؛ لأن هذا الفصل معني بدراسة العلقة والمضغة بالأساس.

﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ (سورة الإنسان: الآية

2).

يمكن القول إن النطفة هي أول مرحلة من مراحل تكوين الجنين بعد الاندماج، عندما يستقر الحيوان المنوي داخل البويضة. إنها المحطات الأولى لالتقاء الخلية الذكرية بالخلية الأنثوية.

العلاقة

بمجرد اندماج الحيوان المنوي مع البويضة تبدأ عملية الإخصاب، وتبدأ عملية انقسام الجنين، بانشطار أول خليتين (خلية من الأم، و خلية من الأب) بطريقة تُسمى الانقسام المتساوي كي تعطي أربع خلايا. ثم تنقسم الأربع خلايا لتنتج ثماني خلايا، وتستغرق هذه العملية من 12 إلى 24 ساعة لكل انقسام؛ يحدث هذا الانقسام والخلايا المنقسمة حبيسة داخل أغشية قوية للبروتين السكري، الذي يسمى المنطقة الشفافة للبويضة، وتسمى هذه الخلايا بالبرعم.

هذه الخلايا الثمانية، خلايا غير متميزة أي متشابهة لا يمكن تمييز بعضها من بعض. نتيجة انقسام الخلايا تتكون فجوات بين الخلايا بعضها بعضاً، فتقوم تلك الخلايا بمحاولة وصل تلك الفجوات عن طريق ضغط نفسها حتى تتمكن من النمو بطريقة متماسكة. قبل هذه اللحظة لم تكن هناك أي علاقة بين مجموعة الخلايا التي تكونت نتيجة الإخصاب وجسم الأم، بعد 24 ساعة تقريباً من عملية الإخصاب تبدأ أول إشارة من تلك الخلايا إلى جسم الأم. ومن هنا تتكون أول علاقة بين مجموعة الخلايا وجسم الأم.

هذه العلاقة الأولية هي ما تسبب الاستجابة للمؤثرات الفسيولوجية الصادرة عن جسم الأم لمجموعة الخلايا التي ستكون الجنين المستقبلي. في غضون 24 ساعة فقط، يعلن القادم الجديد عن نفسه فيتلقي رسالة الترحيب الأولى في صورة استجابة سريعة، لتبدأ معها مرحلة جديدة من النمو والتطور.

عند هذه النقطة نستطيع أن نقول الآن - والآن فقط - علقّت مجموعة الخلايا بعلاقة ما مع الجسم العائل لها، ويصح تسميتها علقّة، فقبل ذلك لم تكن العلاقة تكونت بعدُ بين البذرة الجنينية وبين الأم؛ أما الآن فقد تمت الاستجابة وعلقّت ككلمة الخلايا، وعددها لم يتجاوز الثماني

خلايا، وهي لم تستقر في الرحم بعد. العلقة هي الحالة التي تصف وضع الخلايا في غضون 24 ساعة من التخصيب وليس بعد ذلك، تبعاً لمدلول الكلمة وجذرها وتوافقها مع المعلومات العلمية المتاحة، وكذلك تبعاً لترتيب المراحل التالية كما سنرى.

المضغة

بعد مرحلة العلقة تأتي المرحلة الثانية وهي مرحلة المضغة كما ذكرها كتاب الله؛ ولكي نفهم أو نقرب قليلاً من فهم المضغة يجب أن نتبع جذر الكلمة في اللغة العربية، فـجذر كلمة مضغة هو مضغ، الميم والضاد والغين، وله أصل هو الضغط مع الحشر. عملية المضغ هي عملية ضغط مع حشر و الشيء الممضوغ هو شيء تعرض للضغط والحشر بطريقة ما.

تفسير المضغة بأنها الجنين في الرحم عندما لا يكون الشكل واضحاً، ويكون شبه الشيء الممضوغ، هو تفسير ظاهري سطحي، ولا يمكن قبوله بهذه البساطة. الصحيح أن المضغة سميت مضغة لأنها تعرضت لعملية ضغط مع انحشار كما يشير جذر الكلمة، وهذا يتفق تماماً مع الاكتشافات العلمية.

بعد مرحلة تكوين الثماني خلايا التي وصفناها بالعلقة، وتستمر عملية الانقسام، وعندما يصل عدد الخلايا إلى 16 أو 32 يطلق على هذه الخلايا اسم توتية؛ إذ يوجد بين الخلايا بعضها بعضاً فجوات، وتعد الخلايا في هذه الحالة غير متماسكة نوعاً ما.

لكي تصبح الخلايا متماسكة تُضغَط الخلايا معاً وتُحشر في حيز صغير لتقليل الهيكل المائي للخلايا، وتسمى هذه العملية عملية الانحشار، وهذه المرحلة هي ما تعرف بالمضغة. كل هذا وما زالت الخلايا حبيسة المنطقة الشفافة في البويضة، ولم تستقر مجموعة الخلايا في الرحم بعد. في بداية هذه المرحلة - مرحلة الانحشار- يصعب تمييز الخلايا، ولكن مع استمرار الانقسام يصبح من السهل تمييز الخلايا وتحديدتها.

تفسيرات القدماء حول موضوع المضغة، فضلاً عن كونها مخلقة وغير مخلقة، كتفسير ابن كثير، وتفسير الطبري وغيرهم، لا يمكن أن يُحمل على محمل الحقيقة، فهو مجرد اجتهاد

ومحاولة مشكورة، ولكنه تأويل تخطاه الزمن وغير مطابق للحقائق، بالإضافة إلى أن معاني الكلمات العربية بعيدة تماماً عما ذهب إليه المفسرون.

فهم الكلمات القرآنية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكون وحقائقه، وببساطة شديدة كلما تكشفت المعارف تكشف معها المقصود من اللفظ ومدلوله. مهما أوتي القدماء من معرفة فلا يمكن من خلال اللفظ وحده ومدلوله لدى الإنسان القديم تحديد ماهية الأشياء، فقد كان الإنسان في القديم يميل إلى تجسيد المعاني ليسهل فهمها.

اللفظ القرآني يصف حالة معينة أقرب للتجريد منها للتجسيد، وتحتاج لقدرات عقلية متقدمة لفهم ما تؤديه بشكل صحيح. فكما ذكرنا في وصف العلقه و مدلول الكلمة في كتاب الله وأنها تعني حالة علاقة بين شيئين، أو تعلق شيء بشيء آخر إلا أن

الإنسان القديم حاول جاهداً فهم العلقه من خلال تجسيدها في صورة حسية، فمرة وصفها على أنها كتلة محسوسة من الدم المتخثر، ومرة أخرى شبهها بالودودة التي يسميها الناس العلقه. هكذا ظل العقل حبيس التجسيد بسبب سهولة استيعاب وفهم المسميات بهذه الطريقة. تجسيد المسميات جعل من اللغة كائناً جامداً لا يواكب الحداثة، بينما الحقيقة أن المسميات، كما جاءت في كتاب الله، وصف لحالات معينة تشمل صفة هذه الحالة وخصائصها بشكل دقيق، مما يجعلها متجددة، تستوعب النظريات العلمية والمعرفية التي جاء بها الكتاب.

مثال شديد الوضوح.. ذلك المثال الذي ضربته المضغة المخلقة وغير المخلقة على هذا الزخم المعرفي الذي يزرع به كتاب الله، فلو عرف القدماء معنى المضغ على أنه الضغط والانحشار، فن أين لهم معرفة ما يحدث للخلايا؟ وكيف لهذه الخلايا أن تقلل الهيكل المائي حولها من خلال ضغط وحشر نفسها، مع العلم أن هذه المعرفة الخاصة بالخلايا، وما يحدث لها حديثة جداً، معذرون السابقون فيما ذهبوا إليه، ونحن آثمون إذا سرنا خلفهم واعتمدنا على معارفهم، وجعلناها حكماً على معارفنا.

حاول القدماء تجسيد معنى المضغة إذ لا يمكن فهمها إلا من خلال تجسيدها في صورة حسية، فقالوا عنها إنها تشبه الجزء الممضوغ، بينما هي في حقيقتها تصف حالة من الضغط والانحشار حرفياً، تتم على مجموعة الخلايا. كل كان يحدث له ضغط وانحشار بهذه الطريقة؛ يصح معه أن نسميه مضغة ما دام يحقق شروط الحالة التي تصفها كلمة مضغ.

المضغة المخلقة و المضغة غير المخلقة

جلّ تفاسير القدماء حول المضغة المخلقة و المضغة غير المخلقة، تدور حول خمس حالات أنقلها هنا دون زيادة أو نقص.

الأولى: أن المخلّقة ما خلُق سويّاً، وغير المخلّقة: ما ألقته الأرحام من النطف، وهو دم قبل أن يكون خَلْقاً، قال به ابن مسعود.

والثانية: أن المخلّقة ما أُكْمِل خَلْقُه بنفخ الروح فيه، وهو الذي يُولَدُ حياً لتمام؛ وغير المخلّقة ما سقط غير حيٍّ لم يكْمُل خَلْقُه بنفخ الروح فيه، وهذا معنى قول ابن عباس.

والثالثة: أن المخلّقة المصوّرة، وغير المخلّقة غير مصوّرة، وقال به الحسن.

والرابعة: أن المخلّقة وغير المخلّقة: السقط، تارة يسقط نطفة وعلقة، وتارة قد صوّر بعضه، وتارة قد صوّر كلّه، قال به السدي.

والخامسة: أن المخلّقة التامة، وغير المخلّقة السقط، قال به الفراء، وابن قتيبة.

حتى تفسير كهذا يمكن الاعتراض عليه عن طريق اللغة فقط، وأقوال المفسرين تدور حول مضغة مخلقة أو غير مخلقة، أي أن هناك احتمال من احتمالين، بمعنى إما مخلقة: جنين يكتمل نموه، أو غير مخلقة: يسقط ولا يصبح جنيناً؛ بينما يحكي القرآن أن المضغة المخلقة وغير المخلقة يكونا معاً، أي أن الاحتمالين قائمين معاً، وليس احتمال واحد هو القائم (مُضْغَةٌ مُخَلَّقَةٌ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ).

الوصف القرآني البديع للمضغة المخلقة وغير المخلقة لا يضاهيه وصف، ولنرى من خلال السطور التالية.

بعد عملية الضغط والانحشار التي تحدث للخلايا لتقليل الهيكل المائي، تبدو كتلة الخلايا كتلة متماسكة غير متميزة ومتشابهة؛ أي كأنها كتلة واحدة. مع استمرار الانقسام تبدأ الخلايا في التمايز إلى مجموعتين، أي أنها تتحول شيئاً فشيئاً إلى مجموعتين مختلفتين، إحداهن طبقة خارجية من الخلايا تسمى الأرومة المغذية، وطبقة داخلية تسمى كتلة الخلايا الداخلية. إذن المضغ هنا قد انقسمت إلى طبقتين، طبقة خلايا خارجية وكتلة خلايا داخلية؛ كتلة الخلايا الداخلية هذه سوف تؤدي إلى تكوين الجنين نفسه (المضغة المخلقة). أما الطبقة الخارجية من الخلايا فهي التي سوف تصبح الجزء الجنيني للمشيمة، الذي يحفظ الجنين، ويكون الوعاء الخارجي له (مضغة غير مخلقة).

يتم هذا التمايز أو هذا الانقسام في بداية الأسبوع الثاني من التلقيح، وقبل الاستقرار في الرحم. يجب أن نشير إلى أن بعض التفسيرات الحديثة لمراحل تكوين الجنين قد تناولت تمايز الخلايا إلى طبقة داخلية وطبقة خارجية، ولكنها اعتبرت هذا التمايز يحدث في الرحم، تنفادياً للوقوع في إشكالية العلقة، إذ تتحدث التأويلات أيضاً على أن العلقة هي مرحلة تأتي بعد استقرار الجنين في الرحم.

من خلال فهمنا للعلق والمضغ ومرحلة المخلقة وغير المخلقة؛ يتضح أن كل هذه المراحل قد تمت قبل الانغراس أو الاستقرار في الرحم. انظر إلى دقة الوصف القرآني والترتيب في الآية التالية.. مرحلة النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم تمايز المضغة إلى مضغة مخلقة وغير مخلقة، ثم تنتهي هذه المرحلة. بقول الله سبحانه (لِنَبِّئَنَّكُمْ)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّكُمْ) (سورة الحج: الآية 5). ثم يخبرنا ربنا عن تمة الأمر بقوله (وَنُقَرِّئُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) (سورة الحج: الآية 5).

الآية الكريمة تعرضت للمراحل الأولى لتكوين الجنين، بالإضافة إلى أن تمايز المضغة إلى مخلقة وغير مخلقة يكون قبل الاستقرار في الرحم؛ الترتيب هنا لم يأت هكذا، ولكن بترتيب

المراحل. لقد تمت كل المراحل قبل أن يخبرنا ربنا بمرحلة الاستقرار في الرحم (وَنَقَرُ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى) إنه تقدير الحكيم الخبير.

تستغرق هذه المراحل الثلاث ما يقارب الأسبوعين، تكون فيها مجموعة الخلايا وحتى وصولها إلى مرحلة التمايز لمضغة مخلقة وغير مخلقة، حبيسة منطقة شفافة داخل البويضة، ولم تستقر بعد أو تغرس في الرحم كما ذكرنا؛ وفي بداية الأسبوع الثالث، ومع استقرار الخلايا وانغراسها في الرحم، تبدأ المضغة المخلقة، والتي قلنا إنها الطبقة الداخلية من خلايا المضغة، تبدأ في الانقسام إلى مجموعتين أخريين من الخلايا.

تكوين العظام

لقد كان الاعتقاد السائد منذ وقت قريب أن مرحلة تكوين العظام تبدأ مع بداية الأسبوع الخامس، بقدر المعارف والمشاهدات المتاحة وقتئذ، ولكن مع التقدم في وسائل الرصد والتحليل تبين أن عملية تكوين العظام تسبق ذلك بكثير؛ إذ تبدأ تقريباً مع بداية الأسبوع الثالث على وجه التحديد.

أنتقلُ للوصف العلمي دون تدخل مني؛ الجزء الداخلي للخلايا الذي بدوره سيصبح جنيناً، عبارة عن قرص ثنائي الطبقات (طبقة عليا أو خارجية، وطبقة تحتية أو داخلية)؛ في بداية الأسبوع الثالث تبدأ عملية إعادة تنظيم الطبقات الثنائية الجنينية، وهي الطبقة الخارجية والطبقة الداخلية إلى ثلاث طبقات، يطلق عليها طبقة خارجية، وطبقة متوسطة، وطبقة داخلية أو باطنية، هذه الطبقات الثلاث تقوم بتكوين ما يعرف باسم الجسيدات، والأنسجة، والأعضاء فيما بعد.

ما هي الجسيدات ؟

يُعرِّف العلم الجسيدات على أنها تكل زوجية من خلايا الطبقة المتوسطة تعد - إن صح التعبير - بذرة تكون الهيكل العظمي والعضلات والغضاريف؛ انظر مرة أخرى إلى الآية الكريمة في سورة المؤمنون التي تصف هذه المرحلة .

(ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) (سورة المؤمنون: الآية 14).

يظهر أول زوج من خلايا الجسيدات بعد 20 يوماً من عملية الإخصاب، ويضاف زوج من الخلايا كل 90 دقيقة حتى اكتمال 44 زوجاً من خلايا الجسيدات؛ تُشكّل الجسيدات لتتطور وتكوّن ما يسمى بالفقرات، التي ستصبح فيما بعد العمود الفقري، ثم يتم لاحقاً تطوير الجزء الخاص بالعضلات، أو ما نسميه باللحم.

تستمر عملية تطوير الجسيدات لتكوين الهيكل العظمي والعضلات والغضاريف حتى ثمانية أسابيع، يُعرف خلالها الجنين باسم الجنين الجرثومي أو غير الحي؛ ويكون الجنين في هذه المرحلة عبارة عن كتلة من الخلايا، والتي تتطور وتنقسم دون حياة حقيقية.

ثم تأتي المرحلة الثانية وهي الجنين الحي؛ وهنا حدث تحوّل كامل من صورة إلى صورة أخرى، ذكره الله سبحانه وتعالى (ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ) نعم إنه خلق آخر، فتحول الجنين من جنين جرثومي، أو جنين غير حي، إلى جنين حي، هو بالطبع تحوّل كامل وخلق آخر.

الحقيقة أنني أعتقد أن مرحلة الخلق الآخر تحمل أكثر بكثير من مجرد تحول من جنين جرثومي إلى جنين حي، وربما تتبع التطور على مستوى الخلايا يكشف لنا أسراراً مبهرة، ولكن الحقيقة ليس لديّ في الوقت الحالي معلومات كافية أستطيع أن أستند إليها، وأنا مطمئن القلب في تأويل وشرح مفهوم خلق آخر، ولعل مع تقدم العلوم وتطوره، تتكشف لنا حقائق نتمكن من خلالها سبر أغوار تلك المرحلة المختلفة كلياً عما قبلها.

العَلَقُ

ها نحن أمام الآية الثانية من سورة العلق (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ) التي فسرها المفسرون على أنها كتل الدم المتخثرة الغليظة؛ وهذا التفسير كما بينا هو تفسير لا يمتُّ لجذر الكلمة بصلة، بل وخطأً علي فادح. كلمة علق جمع مفردة علق، ومسألة أنها كتلة الدم المتخثر هذه قد

ثبت خطأها علمياً، فلو كانت علق وهي جمع علقة تعني ذلك الشيء المتعلق بالرحم، كما ذهب أغلب الشراح، فهذا معناه أن الإنسان خلق من أكثر من علقة في الرحم، وهذا غير صحيح؛ فالشيء المتعلق بالرحم - على حد وصفهم - هو كتلة واحدة وليس مجموع كتل مختلفة.

الأصح لديّ أن علقة كما شرحتُ في بداية الفصل هي أول علاقة تمت بين كتلة الخلايا وجسم الأم، عندما استجابت كتلة تلك الخلايا بعد 24 ساعة من الإخصاب للمؤثرات الفسيولوجية، وارتبطت بجسم الأم؛ وهكذا كلما تطور نمو الجنين زاد عدد العلاقات، أو بمعنى آخر.. علق الجنين بصورة ما وبشكل معين، سواء بجسم أمه أو بيئته المحيطة، وبتراكم تلك العلاقات كونت في النهاية الإنسان، وميزته عن باقي المخلوقات.

مما يعزز استدلالتي بأن المقصود بالعلقة هنا هو العلاقة، سواء كانت مرئية بالنسبة لنا، أو محسوسة، أو غير مرئية، أو حتى على مستوى العلاقات النفسية، هو لفظ علاقة غير موجودة بالأساس في كتاب الله.

علقة لفظ يصف تعلق شيء بشيء في مسألة واحدة أو علاقة واحدة. يمكن اعتبار أن أول استجابة فسيولوجية تمت بين كتلة الخلايا والأم علقة، وإذا نشأت علاقة أخرى مثلاً لتنظيم عملية التنفس، فيمكن تسميتها علقة أيضاً، وعلاقة أخرى تنظم عملية التغذية يمكن اعتبارها علقة ثالثة وهكذا؛ وعندما يخرج الجنين إلى الحياة طفلاً يبدأ في تكوين علاقات متعددة إلى يوم وفاته، وانقطاع علاقته بتلك الحياة.

الإنسان هو بالمجمل مجموع لا نهائي من العلاقات، سواء فسيولوجية أو فيزيائية، أو نفسية، أو معرفية؛ كل علاقة فردية من هذه العلاقات تعد علقة؛ والتفاعل بين هذه العلاقات بعضها بعضاً هو في النهاية ما يميز الإنسان عن غيره. بسبب هذا العدد غير النهائي من العلاقات وتشابكها وتفاعلها، يصعب بل يستحيل الحكم على إنسان من خلال السلوك الإنساني غير المقاس، مثل الكذب، والصدق، والنفاق، والصراحة، والإيمان، والكفر.

يمكننا الحكم استدلالاً ببعض الظواهر التي استطعنا رصدها، ولكن هذا القياس ليس حقيقياً بالمرّة ولا يمكن أن نبني عليه تصورات حقيقة؛ فكم من ممثلٍ بارِعٍ يستطيع إقناعك بعكس ما يضمّر، وكم من القمص الجاسوسية التي تخبرنا كيف أن الجاسوس استطاع أن يعيش ويقنع كل من حوله بوطنيته وإخلاصه. لقد حذر كتاب الله من الوقوع في فخ التزكية، وقرر صعوبة الحكم على السلوك البشري حكماً حقيقياً عندما قال (فلا تزكوا أنفسكم) في سورة النجم.

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّحَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى) (سورة النجم: الآية 32).

كذلك لدينا شاهد آخر يحذر من الحكم على الإنسان أو الثقة المفرطة في أحد، من خلال ما ورد في كتاب الله مخبراً رسوله الكريم بأن هناك من أهل المدينة منافقين لا يعلمهم الرسول ولكن الله يعلمهم. لك أن تتخيل وجود منافقين حول رسول الله، ورسول الله لا يعلمهم، هذا ليس قدحاً بقدر ما هو جرس إنذار للإنسان، بالأعلى يعطي شيكاً على بياض لأحد، ولا يفرط في الثقة بسبب تشابك العلاقات التي تكون للإنسان، وتفاعلها مع بعضها بعضاً.

(وَمِنَ حَوْلِكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ) (سورة التوبة: الآية 110).

هذه الإشارات في كتاب الله تقرر ما لا يدع مجالاً للشك استحالة الحكم على الإنسان حكماً حقيقياً؛ فلو أردت أن تحكم على إنسان من خلال سلوك معين، ويكون حكمك حكماً حقيقياً، فيجب أن تحصي جميع العلاقات التي كونت هذا الإنسان وميزته منذ لحظة تكوينه الأولى، وهو ما زال لم يستقر بعد في الرحم وحتى اللحظة التي ترغب في الحكم عليه خلالها، ثم ضع هذه

العلاقات في مصفوفة رياضية مع القيم الإنسانية، وإعطاء هذه القيم الإنسانية قيماً محددة، ثم إيجاد قانون تستطيع من خلاله حساب هذه العلاقات، وإعطائها قيماً بناءً على القيم الإنسانية، فإذا استطعت إنجاز ذلك - وهو مستحيل - فالشك ما زال قائماً في حصولك على نتائج حقيقة. لذلك تقوم العلوم في الدنيا على قوانين ودلائل مقاسة، أما إذا استبدلت الأشياء المقاسة بآراء شخصية، مثل صادق لأني لم أجرب عليه الكذب، أو أنه مخلص في قوله أو دقيق في معرفته أو يفهم أكثر من غيره، هذه أشياء إن أحسنا الظن بها، وضعناها في ميزان التاريخ تحت بند الآراء الشخصية. يجب التعامل مع الأحداث التاريخية بحذر شديد، ولا يتعامل مع أحداث تاريخية مثل هذه كمسلمات إلا ساذج.

فقط لو استطعنا أن ندرك صعوبة الحكم على السلوك النفسي للإنسان لما وقعنا في أخطاء مدمرة ومهلكة لهذه الأمة، بسبب تبنينا وجهات نظر ورؤى شخصية والقتال من أجلها. يلزمنا تدبر خلق الإنسان، وفهم ما هو العلق، لندرك أن الإنسان مجموعة من العلاقات المتشابكة وغير المنتهية؛ هذا الفهم كفيلاً بوضعنا على الطريق الصحيح، وترك الحكم على الأشخاص ومحاولة تقييم الأفكار، والتعامل مع الروايات البشرية على أنها روايات تاريخية لا أكثر. سورة العلق من أعظم السور في كتاب الله، والتي تحتاج إلى مجلد لمحاولة تأويلها.

(اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (1) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (2) اقرأُ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (3) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (4)) (سورة العلق: الآيات 1-4).

سورة تحوي كنوزاً معرفية لا تنتهي، في بدايتها اقرأ وهي مفتاح المعرفة، ثم ترشد إلى طريقة التعلم الرائعة وهي التعليم بالقلم، وعلاقتهما بالعلق. (انظر الجزء الثاني - فصل علم بالقلم) الآن.. هل يمكننا وضع تعريف للإنسان بناءً على هذه المعلومات التي بين أيدينا؟

مئات التعريفات حاولت تعريف هذا الكائن الفريد، بداية بمن قال إن الإنسان حيوان ناطق، أو اجتماعي، أو سياسي، أو حيوان عاقل، أو حتى ضاحك. يبدو لنا أن الإنسان خلق

من علق، فهو عدد لا نهائي من العلاقات النفسية، والحسية، والمعرفية، ولعل العلاقات التي ميزت هذا الكائن الفريد عن باقي المخلوقات هي تلك العلاقات المعرفية وتفاعلها مع بعضها بعضاً، وارتباطها وانسجامها مع باقي مكونات الكون.

الإنسان كائن خُلق من علاقات، أو كما قال ربنا خُلق من علق.

الفصل الرابع: كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا

يحكي أحدهم أن شيخاً ومعلماً كان يعلم تلاميذه أصول العقيدة، ومعنى لا إله إلا الله، وكان يكثر من قول لا إله إلا الله أمام تلاميذه. ذات يوم أحضر له أحد تلاميذه ببغاء، لأن هذا الشيخ كان مغرماً بتربية الطيور وحبها. فأحب الشيخ الطائر وكان يصحبه معه كل يوم إلى الدرس. من كثرة ترديد الشيخ وتلاميذه لكلمة لا إله إلا الله صار الببغاء يرددتها بكثرة كما صاحبه.

كانت هذه الحالة مبهرة بالنسبة لتلاميذ وقاصدي الشيخ من طالبي العلم، وذات يوم غاب الببغاء عن أحد دروس الشيخ. لما سأل التلاميذ شيخهم عن الببغاء المعجزة، بكى الشيخ.

تساءل تلاميذه ما يبكيك يا شيخنا؟ فقال لهم لقد مات الببغاء؛ وكيف مات؟ هاجمه قط وأكله. حاول الطلاب تطيب نفس الشيخ ومواساته، ثم أخبروه أنهم بإمكانهم إحضار ببغاء آخر لو رغب في ذلك. فقال الشيخ ليس هذا ما يبكي، وإنما بكيت لأن هذا الببغاء ظل يردد طول حياته لا إله إلا الله، ولما هاجمه القط ظل يصرخ ونسي لا إله إلا الله. لأنه كان ي قولها بلسانه ولم يقلها بقلبه.

مع رمزية القصة وبساطتها توضح الفرق بين النطق والكلام، فما كان يفعله الببغاء هو إصدار أصوات لها مدلول عند السامع، ولا يمكن وصفها بالكلام. عملية الكلام لا بد أن تكون صادرة عن عقول تدرك ما تقول وتقصده تماماً؛ وليس مجرد تقليد قول. هل ما قام به الببغاء آية؟ بالطبع لا، ولكن لو أن الببغاء كان يقصد وواعياً لما يقول، هنا تكون الآية أو المعجزة الحقيقية.

لا بد أن نتوقف كثيراً عند استخدام كلمة معينة في وصف مشهد قرآني مع وجود ألفاظ قرآنية أخرى يمكن بتصورنا أن تؤدي المعنى بالضبط، وخصوصاً إذا تكرر هذا المشهد

في كتاب الله، وكان مقصوداً على استخدام الكلمات ذاتها دون غيرها من الكلمات القرآنية. لا يمكن أن نساوي بين النطق، والحديث، والخطاب، والقول، والكلام، ونعتقد أن كل تلك الكلمات تؤدي نفس المعنى، أو أننا نعتقد أن طفلاً وصبياً وفتى وغلاماً كلها تحمل نفس المعنى، ويمكن أن تحل إحداهن محل الأخرى دون فرق في المعنى.

إذا جاء اللفظ القرآني بصيغة معينة، فإن اللفظ هنا يقصد ويصف الحالة وصفاً حقيقياً لأنه كتاب ينطق بالحق. سنأتي على هذا الاستدلال اللغوي كاملاً بعد قليل، ولكن قبل ذلك دعوني أمر سريعاً على مراحل تطور القدرات العقلية عند الطفل، والمسئولة عن استخدام الكلمات وأصواتها.

القدرات العقلية من النطق إلى الكلام

يمر الطفل بمراحل مختلفة ومعقدة وهو في طريقه إلى الكلام، إذ تبدأ العملية ذاتها بالنطق، وهي محاولة إصدار أصوات لها معنى، ثم المحاكاة والتقليد، والتي يمكن أن نسميها حديثاً، إذ ينقل حدثاً معيناً بما هو متاح لديه من كلمات، ثم مرحلة الكلام وهي مرحلة تحتاج لتطوير قدرات الطفل العقلية، وقدرة معينة على التفكير المنطقي، والاستنتاج، والاستدلال.

قسم العلم تلك المراحل إلى أربع مراحل، كالتالي:

المرحلة الأولى: المرحلة الحسية

تبدأ هذه المرحلة من سن صفر وحتى عامين، وهي سن الاكتشاف والتعرف على البيئة المحيطة به، عن طريق المقارنة البسيطة بين الخبرات التي اكتسبها من مهارته، وبين قدراته الحركية. في هذه المرحلة تبدأ قدرته على التركيز الذهني بالتطور، فيستطيع خلق صورته الخاصة عن الأشياء البسيطة، لكي يتمكن من فهمها والتعبير عنها. يبدأ الطفل في هذه المرحلة في التعرف على الأشياء وعلى أسمائها، وما أن تحين لحظة النطق إلا ويستخدم أصواتاً معينة؛ يكون في البداية من الصعب فهمها، ثم يبدأ الطفل في تقليد الأسماء من خلال سماعه لها ونسخها صوتياً. في عمر عام ونصف إلى عامين، يكون لدى الطفل ما يقارب 20 - 50 كلمة يستطيع

أن يعبر بها عن الأشياء حوله، وفي هذه المرحلة يُلاحظ أن الطفل يحاول تركيب جمل بسيطة، وبتطور قدرته على التخاطب بشكل ملحوظ من سن عامين إلى ثلاثة.

المرحلة الثانية: مرحلة ما قبل العمليات المنطقية

تستمر هذه المرحلة تقريباً من عمر عامين وحتى 6 أو 7 سنوات. تتطور خلال هذه المرحلة قدرات الطفل الذهنية بشكل ملحوظ، وتسيطر عليه في هذه المرحلة الألعاب التخيلية، ويبدأ في تشكيل صورة عن الواقع محاولاً التعبير عنها في شكل كلمات أو رسومات. في هذه المرحلة تزداد تساؤلات الطفل في محاولة منه لفهم ما يدور حوله. يعتقد الطفل في هذه المرحلة أنه محور الكون، فيكون تفكيره منصباً حول ذاته، وحول وجهة نظره للأمور، وليس لديه القدرة على فهم وجهات النظر الأخرى، كما أن مبدأ الاحتفاظ بالأشياء يكون غير واضح لديه.

المرحلة الثالثة: مرحلة المحسوس والملموس بالنسبة للطفل

تبدأ هذه المرحلة مباشرة بعد مرحلة ما قبل العمليات المنطقية، وتستمر حتى سن الحادية عشر. تبدأ في هذه المرحلة ظهور علامات التفكير المنطقي لدى الطفل في الظهور، إذ يعتمد في هذه المرحلة التفكير المنطقي القائم على عمليات عقلية مرتبطة بالأشياء المحسوسة والملموسة بالنسبة له. تحوره حول ذاته في هذه المرحلة يبدأ بالتلاشي شيئاً فشيئاً، وتتطور بالتالي لديه القدرة على فهم وجهات نظر الآخرين ويظهر لديه مبدأ الاحتفاظ بالأشياء ولكنه يبقى غير قادر على التفكير المنطقي التجريدي.

المرحلة الرابعة: مرحلة التجريد أو العمليات التجريدية

تبدأ هذه المرحلة من سن 11 أعوام، وعندها يصبح الطفل قادراً على الاستنتاج والاستدلال في حل ما يلاقه من مشكلات ومعضلات. في هذه المرحلة أيضاً يصبح قادراً على فهم وتمييز المفاهيم التجريدية، مثل الحياة، والموت، ويصبح مدرّكاً لمفهوم الخالق، ومفهوم العبادة.

تلك هي المراحل الطبيعية لتطور قدرات الطفل العقلية التي تمنحه القدرة على استخدام كلمات وجمل يستطيع من خلالها التعبير عن أفكاره. إذا تكلم طفل صغير بمنطق واستدلال حقيقي هو لا شك أمر خارق ويعد من الآيات؛ وإنما إذا أحسن الكلام في مراحل الطبيعة فهو نعمة.

عندما نتحدث عن المعجزات ونحاول فهم الخوارق من وجهة نظر العلم؛ لا بد لنا من أن نفصل كل شيء تفصيلاً، ونطرح الأسئلة ونمارس الاحتمالات رغبة في الوصول للحقائق المنطقية. فيما يسمى - تجاوزاً - معجزة كلام نبي الله عيسى، وهو رضيع والله لم يسمها كذلك، وإنما عدّها نعمة كما سنرى، لفت نظري أن الآيات التي تتحدث عن هذا المشهد هي ثلاث آيات في كتاب الله، جميعها ذكرت لفظ يكلم ولفظ مهد بالإضافة إلى وصفه بالصبي بدلا عن الطفل.

لأن الفهم الظاهري للآيات يدل على كلام عيسى عليه السلام وهو رضيع. المهد هو المكان المعد للصغير، وبما أن ترتيب الآيات يوحي بذلك، مع أن الله سبحانه وتعالى لم يقل عن هذا الأمر أنه آية أي علامة، وإنما ذكره على أنه نعمة من الله:

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة المائدة : الآية 110).

عندما يخبرنا كتاب الله عن آية، فيكون في الغالب المراد تدبرها، تكون خارج قدرات البشر في ذلك الوقت أو شيء خارج المعتاد في ذلك الزمان. أما إذا ذكر كتاب الله شيئاً ما

وعده نعمة فذاك يعني تفضلاً وزيادة. كان لهذه المقدمة أهمية قصوى في بيان ما سنعلنه من نتائج حول النعمة التي أنعمها الله على نبيه عيسى، والتي يعتقد الناس أنها معجزة أو آية.

هل تكلم نبي الله طفلاً أم صبيّاً؟ وهل نطق أم تكلم أم تحدث؟ وماذا يعني المهد؟

الخواطر القرآنية

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة مريم:

(فَكُلِّيْ وَاشْرِيْ وَعِيْنَا فَاِمَا تَرِيْنَ مِنَ الْبَشَرِ اَحَدًا فَقُولِيْ اِنِّيْ نَذَرْتُ لِلرَّحْمٰنِ صَوْمًا فَلَنْ اُكَلِّمَ الْيَوْمَ اِنْسِيًّا) (26) فَاتَتْ بِهٖ قَوْمَهَا تَحْمِلُهٗ قَالُوْا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا اُخْتَ هَارُوْنَ مَا كَانَ اَبُوْكَ اِمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ اُمُّكَ بَغِيًّا (28) فَاَشَارَتْ اِلَيْهٖ قَالُوْا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29)) (سورة مريم: الآيات 26-29).

التفسير التقليدي للآية كما جاء عند ابن كثير: ((فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا)) (سورة مريم: الآية 29). أي أنهم لما استرابوا في أمرها، واستنكروا قضيتها، وقالوا لها ما قالوا معرضين بقذفها ورميها بالفرية، وقد كانت يومها ذلك صائمة صامته، فأحالت الكلام عليه، وأشارت لهم إلى خطابه وكلامه، فقالوا متهمّين بها، ظانّين أنها تزدرى بهم وتلعب بهم: كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً؛ قال ميمون بن مهران (فأشارت إليه)، قالت: كلّموه، فقالوا على ما جاءت به من الدهاية تأمرنا أن نكلم من كان في المهد صبيّاً؛ وقال السّدي: لما أشارت إليه غضبوا، وقالوا: لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشدّ علينا من زناها (كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) أي: من هو موجود في مهده في حال صباه وصغره، كيف يتكلم؟) انتهى التفسير.

على نفس هذا النهج ذهب جلّ المفسرين الذين وقفت عليهم، أمثال الطبري، والقرطبي، وتفسير الجلالين، وتفسير البغوي، وتفسير ابن عاشور. يقول محمد متولي الشعراوي في تفسير

هذه الآية ما قال به المفسرون، إلا أنه استنتج لماذا أشارت السيدة مريم إلى ولدها عندما كلمها قومها كي يكلموه، مع أنه مع القياس لا يتكلم! ومن أين علمت أنه سوف يتكلم؟ يقول الشيخ: إن من ناداها من تحتها في حالة المخاض هو عيسى عليه السلام، وقال لها كما حكى ذلك القرآن الكريم:

(فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ^طفَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)) (سورة مريم: الآيات 24-26). اختلف المفسرون فيمن ناداها تحتها على قولين، كما جاء في تفسير ابن كثير، فقال العوفي وغيره، عن ابن عباس: (فناداها من تحتها) أي جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وكذا قال سعيد بن جبير، والضحاك، وعمرو بن ميمون، والسدي، وقتادة: إنه الملك جبريل عليه السلام، أي: ناداها من أسفل الوادي.

أما مجاهد فقال عن (فناداها من تحتها) أنه عيسى ابن مريم، وكذا قال عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة قال: قال الحسن: هو ابنها، وهي إحدى الروايتين عن سعيد بن جبير: أنه ابنها. هذه باختصار أقوال المفسرين في مشهد قدوم السيدة مريم إلى قومها ومعها ولدها كما ذكره القرآن. من الواضح أنه لا يوجد إجماع على من ناداها من تحتها، وإن كنت أرحم القول بأن من ناداها من تحتها هو رسول ربها أيًا كان هذا الرسول.

لكي نستطيع أن نستخلص المعنى، فلا بد أن ندرك المعنى الحقيقي، والبعد اللغوي لكلمة طفل وصبي، وكلمة مهد، وجذور لفظة "كلم" وما المقصود بكلمة تتحمّل، ولا بد أيضًا أن نستوضح فعل "كان" الذي جاء في الآية الكريمة (كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا).

فعل كان

ورد فعل "كان" الذي في الآية الكريمة بعدة تفسيرات، مثل تفسير البغوي الذي جاء فيه "كان" بمعنى: هو . وقال أبو عبيدة : "كان" صلة، أي : كيف نكلم صبياً في المهد . وقد تأتي "كان" حشواً في الكلام لا معنى له، كقوله: (هل كنت إلا بشراً رسولاً) (سورة الإسراء: الآية 93) أي : هل أنا؟

من يقول إن لفظة كان حشواً، قوله مردود عليه، وقول لا يعتد به، فلا يمكن أن يكون في القرآن حشو، وليس من المنطق كلما عجز شخص عن تفسير شيء في القرآن قال بنسخه أو زيادته أو أنه مجاز. أما تفسير كان بمعنى هو، فذلك القول أيضاً مجرد رأي لا دليل لغوي عليه.

إذا انتقلنا إلى تفسير القرطبي نجده يقول: "وكان هنا ليس يراد بها الماضي؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبياً، وإنما هي في معنى هو الآن. ويستطرد القرطبي في تفسيره فيورد أن أبا عبيدة قال: كان هنا لغوً. والحقيقة أيضاً أن قول أبي عبيدة ليس له اعتبار في كون كان لغواً، وتفسير القرطبي لفعل كان بمعنى الآن غير دقيق لغوياً.

أما في تفسير الطبري فقد أورد: "قال قومها لها: كيف نكلم من وجد في المهد؟ وكان في قوله (كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) معناها التمام، لا التي تقتضي الخبر، وذلك شبيه المعنى بكان التي في قوله (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (سورة الإسراء: الآية 93) وإنما معنى ذلك: هل أنا إلا بشر رسول؟

يمكن أن نفهم فعل كان من خلال الآية الكريمة التي استدل بها المفسرون من سورة الإسراء (هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا). عندما قال رسول الله: هل كنت، فهو يصف حاله منذ حمله الرسالة، وحتى اللحظة التي يكلم فيها الناس. أعتقد أن فعل كان في الآية الكريمة يصف حال الصغير منذ دخوله مرحلة، وحتى اللحظة التي يتحدث فيها القوم. أي أنها فترة ممتدة أو حال ممتدة. فعل كان يبدو في هذه الآية وكأنه يصف حال الماضي وحال الحاضر

معاً، كما جاء في الآية في سورة الإسراء. فنبعاً لذلك تشير كلمة كان إلى أن الصغير كان صبياً وما زال صبياً في السن الصغيرة.

نتقل بعد ذلك لفهم مدلول كلمة طفل، وكلمة صبي، وكلمة مهد. مدلول كلمة طفل الجذر الثنائي لكلمة طفل هو طف أي: ظهر أو خرج بقدر قليل، وعند زيادة حرف اللام تتحول الكلمة إلى طفل، ومعناها الشيء الصغير في بدايته؛ وهي تعني اصطلاحاً: المولود الصغير. وأيضاً كلمة طفل الظلام، كما جاء في قاموس اللغة لابن فارس، معناها: بدايته، وسُمي طفلاً لقلته ودقته. كلمة طفل تعني الشيء الصغير في بدايته، وهو معنى دقيق، وما سمي الطفل إلا لأنه يوافق هذه التسمية وهذا الوصف. المسميات في كتاب الله، كما أحب دائماً أن أذكر وأكرر، هي مسميات حقيقية تصف المسمى وصفاً دقيقاً محكماً.

سوف نرى أن ورود كلمة طفل في كتاب الله ومدلولها يحدد الفترة الزمنية التي يسمى فيها الصغير طفلاً كما سنرى. كلمة طفل وردت في ثلاثة مواضع من مواضع كتاب الله، كالتالي:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُمْ مَّن يَتُوفَّىٰ وَمِنكُمْ مَّن يَرُدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ) (سورة الحج: الآية 5).

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ

أَيْمَانِهِمْ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوْ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضُرُّنَّ بَأْسًا جَلِيلًا لِيُعَلِّمَ مَا يُخْفِيَنَّ مِنَ زِينَتِهِمْ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (سورة النور: الآية 31).

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُوْتَىٰ مِنْ قَبْلِ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة غافر: الآية 67).

بالنظر إلى الآيتين السابقتين نستطيع أن نحدد الفترة الزمنية التي يطلق فيها على الصغير مسمى طفل، ففي الآية الأولى بمجرد خروج الجنين يسمى طفلاً، ومن الآية الثانية نجد أن مسمى طفل يستمر مع الصغير حتى سن التمييز أو حتى بلوغ سن الحلم، والحلم معناه لغوياً التريث، وهو عكس الطيش أي سن التمييز عند الأطفال، كما جاء في القرآن الكريم:

(وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (سورة النور: الآية 59).

الحلم هنا بمعنى التمييز مع الإدراك وليس سن البلوغ كما يفهمه البعض. التمييز والإدراك هو عندما يستطيع الطفل تمييز الأشياء، ويستطيع التفريق بين الصواب والخطأ، وتقريباً هذه المرحلة تأتي بعد السادسة أو السابعة كما يقول العلم، حيث تصبح قدرته على فهم ما حوله أكثر بكثير من ذي قبل. القول أن سن الحلم هو سن البلوغ ليس منطقياً بالمرّة؛ ليس من المعقول أن ينتظر الطفل حتى سن الثانية عشر أو الثالثة عشر أو حتى بعد ذلك ليستأذن. هو لا شك يكون قادراً على التمييز قبل هذه السن، ووجب عليه الاستئذان عند دخول الأماكن المغلقة.

لم يذكر ربنا أن المسيح تكلم طفلاً ولكن ذكر أنه كان صبياً، فلا بد أن الصبي يقصد به مرحلة عمرية مختلفة، وحالاً غير حال الطفولة. ما معنى كلمة صبي لغة؟ وكيف وردت في القرآن الكريم؟

مدلول كلمة صبي

الجذر الثنائي لكلمة صبي وهي صب تعني خرج من حالة إلى حالة، وبسبب نقص المعلومات حول كلمة صبي نفسها فسوف نحاول فهم الكلمات التي جذرها الثنائي الصاد والباء، والحرف الثالث مختلف. صباً كما في لسان العرب لابن منظور أي: خرج من دين إلى دين.

صَبَح: هي فترة الشفق الأحمر، أو الفترة الانتقالية بين الليل والنهار.

صَبْر: هي أيضاً فاصل بين عسر، وما يأتي بعدها من يسر.

صَبِغ: تعني مرحلة انتقالية بين لون ولون.

صَبَن: حوّل من شيء إلى شيء آخر، كقول صبن الساقى الكأس أي: حولها من شخص

لشخص.

اعتماداً على جذر الكلمة وقياس كلمة صبي كما تقدم، نجد أن مدلول كلمة صبي يعني التحول من مرحلة إلى مرحلة، أي أنها مرحلة انتقالية بين مرحلتين، وهنا المقصود بالمرحلتين؛ مرحلة الطفولة والمرحلة التي تلي الصبا، وهي لا شك أنها مرحلة الغلام، وهي مرحلة المراهقة. معنى شاب غلم أي: شَدِيدُ الشَّهْوَةِ الجِنْسِيَّةِ؛ وجذر كلمة غلم له أصل واحد هو حداثة وطيش، وهو ما يتوافق مع بداية مرحلة المراهقة فعلياً. مدلول كلمة صبي يصف تحولاً من حالة إلى حالة، وبما أننا أثبتنا أن مرحلة الطفولة هي المرحلة الأولى التي يمر بها الرضيع، فهنا تصبح مرحلة الصبا على أقل تقدير هي المرحلة التي تلي مرحلة الطفولة. وردت كلمة صبي في كتاب الله مرتين هما:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا) (سورة مريم: الآية 12).

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) (سورة مريم: الآية 29).
تشير الآية الأولى إلى مرحلة عمرية متقدمة، ليست على أية حال مرحلة الطفولة. أصل كلمة الحكم، كما في قاموس اللغة، هو المنع، وإن كان الحكم يعني حسن التصرف، فهذا لا ينطبق أبداً مع مرحلة الطفولة. مرحلة الطفولة كما رأينا هي مرحلة عدم التمييز بالأساس.

التعبير القرآني الذي استخدم كلمة صبي يشير إلى أن الصغير قادر على التمييز، لذلك إضافة الحكم للصغير في هذه المرحلة، هو زيادة في التدبير، وحسن التصرف. بناء على مدلول كلمة صبي في الآية الكريمة، وجذر كلمة صبي اللغوي؛ فإن الآية الثانية تحمل نفس المدلول، وهو مرحلة ما بعد مرحلة الطفولة، التي يكون فيها الصغير قادراً على التمييز. الكلمات في كتاب الله دقيقة وما دام أنَّ كلمة طفل كلمة قرآنية، وكما وضخنا مدلولها ومداهها الزمني، فلا يمكن أن تكون مرادفة لكلمة صبي. . مدلول كلمة مهد

كلمة مهد تعني: سوى وأصلح، وفي قاموس اللغة نجد أن مادة الميم والهاء والذال، تدل على توطئة وتسهيل الشيء. أما في كتاب الله نجد أن كلمة "مهد" جاءت بمعنى فترة زمنية في ثلاث آيات هي :

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) (سورة آل عمران: الآية 46).

كلمة كهل وجذرها الكاف والهاء واللام، لها أصل واحد هو القوة في الشيء. المقصود بكهل هنا فترة الكهولة، أي: فترة القوة والنشاط، وليست كما يظن الكثيرون أنها فترة تقدم العمر أو مرحلة الشيخوخة، ومن ذلك القول، حمل على كاهله أي: أخذ الأمر بقوة وشدة. في تفسير النسفي عن هذه الآية يقول: (المهد هو ما يمهد للصبي من مضجعه، سمي بالمصدر وكهلاً عطف عليه، أي: ويكلم الناس طفلاً وكهلاً، أي: يكلم الناس في هاتين الحالتين، كلام الأنبياء من غير تفاوت بين حال الطفولة و حال الكهولة).

تفسير ابن عطية يقول: (كهلاً معطوفة على في المهد و(كهلاً) حال معطوفة على قوله: في المهد". أما تفسير أبي السعود فقرر نفس المعنى (يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً،

كلام الأنبياء من غير تفاوت). جاء في تفسير الأوسى في تفسير في المهد وكهلاً (والمراد يكلمهم حال كونه طفلاً وكهلاً) انتهى الاستشهاد بالتفسير.

من هنا يتضح أن المقصود هنا المرحلة الزمنية التي يُرعى الطفل فيها؛ إذ لا يقوى على القيام بشؤون نفسه، ودائماً ما يحتاج إلى رعاية وتسهيل أموره وتوطئتها من قبل آخرين. كأن الآية الكريمة تتحدث - لو جاز لنا التعبير - عن فترة الحضانة (المهد) وفترة عزم الشباب (الكهولة).

الآية الثانية: (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أُوتِيَتْكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة المائدة: الآية 110).

كلمة المهد في الآية الكريمة تحمل نفس المعنى السابق، حيث الاشتراك في المعنى والعطف على (كهلاً)، والمقصود فترة الحضانة، وفترة الكهولة.

الآية الثالثة التي نحن بصددنا لا تخرج عن هذا المعنى، وهي فترة الحضانة التي يحتاج فيها الصغير لرعاية وتدريب، قبل أن يصل سن البلوغ وينفرد بتصرفاته. القول إن المهد هو سرير أو فراش الصغير هو فهم ظاهري وسطحي، لم يراع مدلول الكلمة في كتاب الله، وبطبيعة الحال لا يستقيم أن يكون صبيًّا أي: في سن الصبا، وفي نفس الوقت في سرير وفراش المهد. (فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) (سورة مريم: الآية 29).

لقد أنكر القوم أن يتكلموا في مثل هذا الأمر مع صغير لا يقوم بشؤون نفسه، فهل سيتكلم عن غيره سنعود إلى هذه الآية الكريمة بعد قليل بتفصيل أكثر. جاءت أيضاً كلمة مهد لها مدلول مكاني في آيتين في كتاب الله وهي كالتالي:

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى) (سورة طه: الآية 53).

(الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (سورة الزخرف: الآية 10).

لفظ المهدي هنا يصف الأرض كمكان معد ومهيأ مناسب للحياة. على ذلك فإن كلمة مهدي تصف حالة عامة من صفاتها الإعداد والتهيئة لاستقبال شيء آخر؛ فإذا وصف المهدي وقتاً فهو وقت الإعداد والتهيئة، وإذا وصف المهدي مكاناً فهو المعد والمهيأ. في حالة نبي الله عيسى: المهدي يصف زماناً ولا يصف مكاناً أي: فترة الإعداد والتهيئة أو كما ذكرنا فترة الحضانة؛ لأنها جاءت في موضع معطوفة على كهل، وهو حال الشباب.

بعد هذا التفصيل اللغوي للكلمات التي تحتوي عليها الآية الكريمة، وتوضيح معنى طفل ومعنى صبي، والمقصود بلفظ مهدي؛ نجد أنه ليس هناك دليل واضح من القرآن الكريم على أن نبي الله عيسى تحدث رضيعاً. على الجانب الآخر: لا يوجد دليل على أن من نادى مريم من تحتها هو عيسى عليه السلام، ولقد اختلف المفسرون في ذلك، والأصح أنه لم يكن عيسى مطلقاً بدلالة الآيات ذاتها.

(نَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24) وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26)) (سورة مريم: الآيات 24-26).

سياق الآيات يبين أن من نادها من تحتها هو رسول ربها الذي بشرها في البداية؛ لأنها في حالة أضعف ما تكون، وتحتاج إلى الاطمئنان لا إلى الجزع والخوف في حالة نادها ولدها، وهي تعلم أن الرضيع لا يتكلم ولا ينطق، وقد ذهب إلى هذا القول كثير من المفسرين كما أفردنا آنفاً.

يحق لنا هنا أن نسأل بنفس منطق الشيخ متولي الشعراوي؛ إذا كانت مريم تحمل ابنها رضيعاً، فمن أين عرفت أنه سيتكلم عندما أشارت إليه؟ ليس هناك أي إشارة في كتاب الله على أن الله أوحى لها أن تشير إليه، أو أنه سيتكلم، أو أنها أمرت إذا خاطبها أحد أن تشير إليه ليتكلم هو؛ وإنما كان الأمر أن تقول لن أكلم اليوم إنسياً، فما أشارت إليه إلا لأنها تعلم منه الفصاحة والقدرة على الرد. عندما التقت مريم قومها لم تقل كما أمرها ربها لن أكلم اليوم إنسياً، بل أشارت إلى صغيرها مما يعزز فرضية أن هذا المشهد لم يكن بعد الميلاد مباشرة، كما يقول المفسرون، بل هو مشهد آخر تماماً.

هنا أيضاً تبرز إشكالية أخرى، فعندما أشارت إليه لم يقل الناس وقتها كيف يتكلم من كان في المهد صبيّاً، وهذا هو الأنسب لو أنهم ينكرون قدرته على الكلام، وإنما قالوا كيف نكلم نحن من كان في المهد صبيّاً، فهم لم ينفوا عنه القدرة على النطق، ولكن اعترضوا على كونهم مطالبين بالكلام مع صبي؛ لا يعي بزعمهم التكلم في مثل هذه الأمور. ولو أن السيدة مريم عندما سألوها فأشارت إلى الرضيع كانوا ظنوا أن الأمر استهزاء، كما حدث مع قوم نبي الله موسى، عندما طلب منهم أن يذبحوا بقرة قالوا أتخذنا هزواً، فهم لم يقولوا لمريم أتخذينا هزواً، ولكن غاية الأمر استنكروا أن يتكلموا في مثل هذا الأمر الذي يتطلب إدراكاً وفهماً، وبالعادة لا يتوافر هذا الإدراك لصبي.

يتضح لنا من استقراء واستنطاق الكلمات وبطريقة مباشرة أن عيسى عليه السلام، إنما كلم الناس في مرحلة المهد التي هي مرحلة الطفولة، ومرحلة الحضانة، كلماته البليغة التي تدل على الحكمة، والتي غالباً لا يقدر على مثلها من هو في عمره، كانت وحيّاً وإلهاماً من الله، وهذه هي النعمة التي أخبر عنها ربنا، ولم يقل عنها أنها آية كعادة القرآن، في الإخبار عن الأشياء العجيبة في وقتها.

هناك فرقٌ بين تكلم ويقول وينطق ويتحدث، ولا يمكن أن تؤدي جميع الألفاظ نفس المعنى. في السطور القليلة الباقية سنحاول إلقاء الضوء على فعل كَلَّمَ، والفرق بين يَكَلِّمُ ويحدث باختصار حتى يتضح المراد. مدلول لفظ كَلَّمَ لو نظرنا في فعل يَكَلِّمُ وتكلم في الآيتين التاليتين، سنجد أنها أفعال مضارعة توحى بالاستمرار والمتابعة:

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) (سورة آل عمران: الآية 46).

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سورة المائدة: الآية 110).

لقد كان الكلام مستمراً ومتتابعاً، ولم يكن لمرة واحدة وانتهى أمرها. في السن الصغيرة يمكن للصغير أن يقول شيئاً أو يحدث بأمر بقدر الحصيلة اللغوية التي يمتلكها، ولكن الكلام بمعناه كما سوف يأتي بيانه أمرٌ صعبٌ للغاية على الصغير. من هنا وجب علينا التفريق بين مسألة الكلام والتكلم، والنطق أو حتى الحديث؛ فالكلام إنما هو جُمْلٌ وعباراتٌ مفهومة ومقصودة حول أمر معين، ولا بد للمتكلم أن يكون مدركاً للأمر الذي يتكلم فيه، ومصدر الكلام عمليات منطقية وقدرات راقية في العقل.

حتى إنه يقال للإنسان البليغ إنسانٌ متكلمٌ، كناية عن بلاغته وفصاحته وقدرته على الإتيان بالمعنى. مادةٌ كَلَّمَ له أصل: وهو نطق كلام مفهوم؛ غاية الإعجاز أن يتحدث الصغير بكلام مفهوم ومقصود، كما تحدث نبي الله عيسى للناس، وكما حكى عنه القرآن.

(قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33)) (سورة مريم: الآيات 30-33).

هل هناك أبلغ من كلمات كهذه ينطق بها الصبي؛ فكل كلمة تحمل معرفة لا يمكن لصبي في سن صغير الإتيان بها، إلا إذا كانت وحيًّا أو إلهامًا في شكل نعمة من الله.

لو استطعنا على سبيل المثال ترتيب حالات صوتية رئيسية على حسب مدلولها في كتاب الله فسنجد أن أول حالة هي حالة النطق؛ والنطق هو أصوات لها مدلولات معينة. كل صوت له دلالة معينة هو في الحقيقة نطق، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من خلال التعبير القرآني الذي ذكر أن نبي الله سليمان تعلم منطق الطير. منطق الطير وليس كلام الطير؛ فما تعلمه نبي الله سليمان هو فهم مدلول الأصوات لدى الطير.

الحالة الثانية: يمكن أن نسميها حالة القول. في هذه الحالة تتشكل الكلمات جملاً وعبارة بغرض التعبير عن حالة معينة. لا يشترط في القول البلاغة أو القصد، والقول بالأساس نابع من حاجة الإنسان للتعبير عن فكرته التي يرغب في إيصالها إلى محيطه. يختلف القول باختلاف القائل، فكل كلام هو في الحقيقة قول، ولكن ليس كل قول يعد كلاماً.

الحالة الثالثة: هي مرحلة الحديث أو التحدث، هذه الحالة هي حالة خاصة تصف نقل أحداث معينة عن طريق التعبير اللفظي أو نقل خبر ما. التحدث هو القدرة على وصف حالة معينة ونقلها للمستمعين، ليس شرطاً أن يكون الوصف بليغاً. فالوصف يعتمد على الناقل وعلى حصيلته اللغوية. من هنا نستطيع القول إن الحديث إما أن يكون نقلاً ونسخاً لما يقوله الغير، أو وصفاً لحديث ما. كلما كان المتحدث متمكناً كان الحديث معبراً تعبيراً أقرب إلى الحقيقة، والعكس بالعكس، فكلما كان المتحدث ضحل المعرفة والثقافة، كان النقل مشتتاً وغير معبر.

وردت كلمة حديث في القرآن الكريم 23 مرة، وحتى لا أطيل السرد سأسردُ مثالين فقط لبيان الفكرة:

(وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى) (سورة طه: الآية 9).

(هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ) (سورة الذاريات: الآية 24).

جذر كلمة حديث هو حدث، ولها أصل واحد، وهو كون الشيء، وكون الشيء يعني حدوثه ووجوده، وهو ما يمكن أن نعبر عنها بالحدث. نقل هذا الحدث كما يتضح من الآيات الكريمة هو ما يسمى الحديث. مدلول كلمة حديث تعبر عن نقل مجموعة من القصص والأخبار أو الأحداث، وإذا كانت بلاغة الحديث موقوفة على المحدث أو الذي يقص، فمن الطبيعي أن يكون كتاب الله أحسن الحديث؛ لأن الذي يقص القصص، وينقل الخبر هو الله سبحانه وتعالى.

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشَعْرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (سورة الزمر: الآية 23). (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا) (سورة النساء: الآية 87).

لا يمكن أن يسمى الحديث كلاماً؛ لأن الحديث نقل صورة حدثت بالفعل بينما الكلام أقرب لعملية الإبداع أو الابتكار، إذ يستطيع الإنسان من خلال الكلام التعبير عن أشياء تعبيراً بليغاً مقصوداً ومفهوماً نابغاً من ذاته.

المرحلة الأخيرة: هي مرحلة الكلام، وهي المرحلة التي يكون فيها القول بليغاً ومفهوماً وبغرض معين، وغالباً ما تأتي هذه المرحلة بعد قدرٍ من المعرفة والعلم وتطور عقلي معين، كما ذكرنا في بداية الفصل. المتكلم لديه قدرة على الاستدلال وإجراء العمليات المنطقية. ولو تتبعنا جذر كلم في القرآن لأدركنا المعنى المراد.

ورد فعل كلم 25 مرة في كتاب الله، يعبر عن فعلٍ بليغٍ مفهوم، كالتالي:

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضُهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيْنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ) (سورة البقرة: الآية 253).

ورد لفظ كلم في الآية الكريمة منسوبا إلى الله، وسنأتي على قصة كلام نبي الله موسى بالتفصيل في الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب من خلال فهم عملية التطور البشري، وما هو المقصود بكلم الله موسى تكليما. على كل حال الكلام هنا يعني الوصف الحقيقي للأشياء، وليس هناك كلام أفضل ولا أبلغ من كلام الله سبحانه وتعالى.

(وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُفِّرَتْ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبَهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (سورة الرعد: الآية 31).

هنا أيضا في الآية الكريمة الكلام نسب إلى القرآن، وهو أبلغ ما يمكن وصفه بل هو الحقيقة المطلقة ذاتها. (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (سورة البقرة: الآية 118).

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 174).

الآيات السابقة نسب فيها الكلام إلى سبحانه وتعالى، وهو ما يؤيد وجهة نظرنا بأن الكلام أرقى مراحل القول على الإطلاق وأبلغها واكملها. الآيات التالية التي تذكر الكلام

منسوباً لشخص أو دابة، كما حدث مع دابة الأرض، تعني ذلك الكلام المقصود المفهوم البليغ.

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعُشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (سورة آل عمران: الآية 41).

(وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ) (سورة آل عمران: الآية 46).

(إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 77).

(وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا) (سورة النساء: الآية 164).

(إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا إِسْرَءِيلُ سِحْرٌ مُبِينٌ) (سورة المائدة: الآية 110).

(وَلَوْ أَنَّا زَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ) (سورة الأنعام: الآية 111).

تذكر الآية الكريمة تعبير كلهم الموتى: أي أن الموتى في كامل وعيهم يصدرون تعبيرات مفهومة وقوية وبليغة، تصف الأشياء وصفًا دقيقًا، وهذا يعتبر آية لأولي الأبصار إذ الطبيعي

أن الموتى لا يتكلمون حتى وإن تقدم العلم يوماً واستطاع استخراج بعض الأصوات من الموتى فهذه الأصوات لا يمكن اعتبارها كلام، إذ الكلام لا بد أن يكون صادراً عن وعي كامل. منذ فترة وجيزة تمكن فريق بحثي من قسم الهندسة الوراثية وقسم الآثار بجامعة لندن ببريطانيا، من عمل محاكاة لصوت مومياء مصرية عاشت قبل 3 آلاف سنة. بالرغم أن هذا الإنجاز هو مجرد محاكاة للصوت عن طريق تصميم دقيق لتصور الأحبال الصوتية لهذه المومياء، إلا أنه لا يمكن اعتبار ذلك الحدث قولاً أو صوتاً. لو فرضنا أن العلم الحديث استطاع بالفعل استخراج الصوت من شخص ميت، فإن هذا الصوت حتى لو كان مفهوماً لا يعد كلاماً أبداً. الكلام كما ذكرنا يحتاج إلى وعي تام، وإدراك بحقيقة الأشياء، وهذا ما لا يتوافر للميت.

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف: الآية 143).

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّمٍ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَمْ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (سورة الأعراف: الآية 148).

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنُّهُمْ شِقِيُّ وَسَعِيدٌ) (سورة هود: الآية 105).
(وَقَالَ الْمَلِكُ اثْنُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (سورة يوسف: الآية 54).

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا) (سورة مريم: الآية 10).

(فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (سورة مريم: الآية 26).

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) (سورة مريم: الآية 29).

(قَالَ اخْسُؤْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ) (سورة المؤمنون: الآية 108).

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (سورة النور: الآية 16). (وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ) (سورة النمل: الآية 82).

(أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ) (سورة الروم: الآية 35).

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة يس: الآية 65).

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحِيًّا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآذنيه مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ) (سورة الشورى: الآية 51).

(يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا) (سورة النبأ: الآية 38).

وردت لفظ كلمة أو كلمت بالتاء المفتوحة 29 مرة، تشير إلى اتفاق أو ميثاق معقود، كما أن لفظة كلمات وردت اثنتي عشرة مرة كلها منسوبة لله سبحانه وتعالى؛ ولفظة كَلَّمَ وردت أربع مرات. وبقليل من التدبر يتأكد لنا أن لفظ يكلم، كما أوردنا، يعني الألفاظ المرتبة والمفهومة والبلغية والمقصودة، الناتجة عن وعي كامل، وإدراك حقيقة الأشياء.

نعود للآية الكريمة محل دراستنا، وهي الخاصة بكلام نبي الله عيسى ومشهد سؤال قوم السيدة مريم لها وإشارتها إلى ابنها ليتكلم هو، نجد أن الطرف الثاني في الحادثة هم قوم السيدة مريم وليس أهلها، هناك فرق بين القوم والأهل؛ فالأهل هم الخاصة:

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ) (سورة هود: الآية 45).

القوم هم أشمل وأعم من كلمة الأهل. بينما نجد أن الأهل ملتصقون بالشخص، ويرجح أن يكونوا على معرفة لصيقة بالشخص، نجد أن القوم لا تنطبق عليهم هذه الحالة، مما يؤيد أنهم عرفوا بعد فترة، وليس بمجرد الولادة.

لفظ تحمله في قول الله تعالى:

(فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا) (سورة مريم: الآية 27).

لا يحمل لفظ تحمل أي إشكال من حيث المعنى، فما المانع أن تكون حملته، وهي عادة كثير من النساء أن يحملن أطفالهن وهم في سن متأخرة إذا شعر الطفل بالتعب، أو أنها حملته على دابة ما، مثل الحمار أو الحصان كما جاء في كتاب الله:

(وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلُوا لِيْتَخِمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ) (سورة التوبة: الآية 92).

لوربتنا الألفاظ التي وردت في الآية الكريمة وتتبعناها قرآنيًا، واستنطقنا الكلمات لغويًا لتوضح الحقيقة جليًا أن نبي الله عيسى عليه السلام، لم يتكلم وهو طفل رضيع، وإنما تكلم بكلام بليغ في فترة الصغر أو فترة الصبا، بكلام يعجز من في مثل سنه أن يتكلم به، وهذا في حد ذاته نعمة وفضل من الله، وليس كما يعتقد البعض أن نبي الله عيسى تكلم رضيعًا بشكل خارق للعادة.

أتعجبُ كل العجب ممن يُصرُّ على أن نبي الله عيسى تكلم رضيعًا، اعتمادًا على كلمة المهدي كدليل موثوق مع أننا بيننا مدلولها، ولا يلقي بالألحمة صبي والفرق بينها وبين طفل، وفعل كان والفرق بين كلم ونطق أو الاستدلالات الأخرى المنطقية، التي تشير جميعها إلى أن كلام نبي الله كان في سن مبكرة ولم يكن رضيعًا.

من سلامة المنطق القدرة على وزن الأدلة وترجيح كفة الأدلة الأكثر منطقية وليس التثبت بقول ما يزعم أن هناك إجماع على هذا القول. بالطبع المسألة مطروحة للنقاش، وليست قطعاً أو جزماً بحقيقة لا تقبل للنقاش.

لقد كان الحافظ لتسجيل هذا الفصل، وهو بالفعل يعارض كثيراً من الأقوال المستقرة في هذه المسألة، هو إثبات عدم التحيز المعرفي بأي شكل من الأشكال. لقد كان الهدف من هذا البحث هو محاولة فهم كيف يمكن للرضيع أن يتكلم، وكيف نفهم هذا الأمر الخارق للعادة، كما جرى به التراث من خلال العلم والأقدار والأسباب التي خلق الله بها كل شيء. عند تطبيق المنهج على هذه الآية الكريمة ظهر لنا أن الكلمات لا تسير في اتجاه أن الرضيع تكلم بعد الولادة مباشرة، وعند التعمق والغوص أكثر فأكثر، اكتشفنا أن كلام نبي الله عيسى لم يكن رضيعاً وإنما كان في سن مبكرة في حدود السبع أو الثماني سنوات تزيد أو تنقص قليلاً كما بينا. لقد أثبت هذا الفصل لنا قبل القارئ أننا نتبع منهجاً محدداً، ولا نتبع فكرة مسبقة، ونحاول تطويع الكلمات والألفاظ عليها.

يتبقى لنا من خلال هذا الفصل تتبع حالة الكلام في تاريخ البشرية، وقد كان مقرراً لهذه الجزئية أن تكون ضمن الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب لتكون مفهومة بشكل جيد، ولكن بسبب مناسبة الكلام هنا سوف نضع هذه الجزئية زيادةً لإيضاح مفهوم الكلام ومدلوله، ولماذا يختلف عن مجرد القول والنطق والحديث.

في الجزء الثالث من الكتاب تتبعنا التطور بصفة عامة، والتطور المعرفي للبشرية بصفة خاصة، وكيف أن البشرية انتقلت من مرحلة بدائية إلى مرحلة متطورة، ومتقدمة بالتدرج، وهذا الفرض فُصل كاملاً من خلال اللفظ القرآني، ومن خلال تتبع الآيات القرآنية. من الملاحظات المعبرة كانت تتبع لفظ الكلام وكيفية ظهور الكلام عند البشرية، والذي يدل على رقي وتطور عقلي ملحوظ. سنتعرض في الفصل التالي للكلام وظهوره في البشرية حتى يزداد فهمنا فهماً لحادثة نبي الله عيسى ومفهوم الكلام.

الفصل الخامس: جسداً له خوار

استكمالاً للفصل السابق الخاص بنبي الله عيسى وقدرته على الكلام صبيهاً، سنحاول من خلال هذا الفصل تتبع الرقي العقلي الذي صاحب البشرية حتى وصلت لمرحلة الكلام بمفهومه القرآني. كيف انتقل التعبير عن الأفكار من مجرد عبارات بسيطة إلى كلام حسب التعبير القرآني، وكيف صار العقل البشري قادراً على فهم المعاني المجردة، والتخلي شيئاً فشيئاً عن التجسيد.

لو حاولنا إيجاد مثال لتوضيح وجهة نظر الكتاب، وبيان الفرق بين القول والكلام فلن نجد مثلاً أفضل من مثال الرجل العادي والفيلسوف. بفرض أن هناك فكرة معينة وطلبت من شخص عادي وفيلسوف التعبير عن هذه الفكرة.

الرجل العادي سيختار مجموعة ألفاظ عادية للتعبير عن هذه الفكرة دون اعتبار حقيقي للفروق بين الألفاظ ومدلولاتها، دون اعتناء بتركيب الجملة لتعطي المعنى بإيجاز ودقة متناهية. على الجانب الآخر نجد الفيلسوف على العكس من ذلك ينتقي ألفاظه بعناية فائقة ليعبر عن الفكرة تعبيراً دقيقاً محكماً، بل ستجد أن كل كلمة تصف حالة معينة بمنتهى الدقة، نظم الكلمات لديه مقصود وبلغ لكي يعطي حالة رائعة من التعبير عن الفكرة. هذا هو الفرق بين القول الذي ينتهجه أغلب الناس، ويعبرون عن أفكارهم بواسطته، وبين صاحب القدرة على الكلام الذي يستطيع الوصول للمعنى، ويعبر عن الفكرة تعبيراً صادقاً متقناً لأقصى درجة.

لقد انتبه العرب لهذا الفرق عندما ألفوا مؤلفات في علم الكلام واطلقوا عليه علم الكلام دليلاً على البعد الفلسفي الذي يحمله هذا العلم؛ إذ يهتم هذا العلم بإثبات وإقامة الأدلة على صحة العقائد عن طريق الأدلة والبراهين اليقينية. علم الكلام هو في الحقيقة صورة من صور الفلسفة، بل يعتقد البعض أن علم الكلام هو البداية الحقيقية لظهور الفلسفة الإسلامية.

يبدو جلياً أن العقل العربي استطاع هنا التفريق بين القول والكلام، ولكن هذا الفرق يكاد يكون مطموساً تحت وطأة العقول الجمعية، التي لا ترى حاجة لفهم وإدراك الفروق، وتؤمن بالترادفات مما ضيع على هذه الأمة رافداً ثقافياً ومعرفياً، كان يمكن أن يحل كثيراً من الإشكالات التي عانت منها هذه الأمة. من خلال الفصل السابق (كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) وضخنا المراحل التي يمر بها الصغير في تطوير قدراته العقلية حتى الوصول لمرحلة الكلام للتعبير عن أفكاره. يبدو أن البشرية هي صورة مصغرة لدروة حياة الإنسان، وأنها منذ بدايتها قد مرت بهذه المراحل حتى وصلت لمرحلة الرقي والتطور، وهذا ما استنتجناه من خلال تحليل اللفظ القرآني.

كان من المفترض أن يدخل هذا الفصل ضمن فصول الجزء الثالث من الكتاب، ولكن بسبب ترابط موضوع الفصل السابق الذي تناول تكلم المسيح وهو صغير، وظهر مرحلة الكلام لدى البشرية، رأينا أنه من المناسب أنه يُوضَع في الطبعة الثانية في الجزء الأول على أن تُفصّل مسألة التطور، سواء البيولوجي أو المعرفي، من خلال الجزء الثالث من كتاب تلك الأسباب. والآن دعونا نتساءل كيف بدأ وكيف ظهر الكلام بمفهومه القرآني لدى الإنسان منذ أن تسلّم آدم مقاليد الأمور؟

مرحلة آدم عليه السلام

تتبع الكلام وظهوره من خلال القصص القرآني، يمنحنا فرصة ثمينة لفهم تطور البشرية ورفقها العقلي، وكيف وصلت من مجرد التعبير البسيط عن الفكرة إلى مرحلة الكلام والفلسفة. أول ظهور للفظ "كلم" كان مع نبي الله آدم عندما تلقى آدم من ربه كلمات. آدم لم يصدر هذه الكلمات، وإنما تلقاها من ربه مباشرة كما سنرى.

(فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة: آية 37).

بعدما تعلم آدم القدرة على التسمية، التي أخبرنا بها الله بها في كتابه (راجع الجزء الثاني) نجد هنا أنه عند أول موقف لم يتمكن آدم عليه السلام من التعبير عن فكرة الاستغفار، فكان

الحل عن طريق تلقي الكلمات من الله. تلقى آدم من ربه كلمات، فما هو التلقي؟ آدم لم تصدر منه الكلمات، ولكن ما حدث أن الله وهب آدم تلك الكلمات حتى يستطيع من خلالها بلوغ التوبة.

إن كان آدم قد أصبح للتو قادراً على التعبير عن المسميات، إلا أن هذه القدرة لم تكن بالقدر الكافي للتعبير عن الفكرة بشكل كامل. عندما احتاج الأمر إلى تركيب جمل، وإصدار تعبيرات محددة يستطيع من خلالها آدم الوصول إلى التوبة، تلقى آدم هذا التعبير مباشرة من ربه، وكأنه تدريب عملي على تكوين وتركيب جملة معبرة مفهومة.

لا توجد آية واحدة في كتاب الله تدلنا على أن حواراً جرى بين آدم وزوجه أو أحد بنيه أو زوجته. ما وصلنا من خلال كتاب الله هو رد آدم من خلال الكلمات التي تلقاها من ربه، عندما قال الله سبحانه وتعالى لهما، ألم أنهما عن تلكما الشجرة، لم نرأي رد من آدم سوى الكلمات التي تلقاها من ربه.

(فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ) (سورة الأعراف: آية 22).

العبرة الوحيدة التي سجلها القرآن عن آدم وزوجه هي استغفارهم وطلبه التوبة، وصيغة هذا الاستغفار والتوبة كانت من الله مباشرة، كما ذكر ربنا سبحانه وتعالى:

(قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) (سورة الأعراف: الآية 23).

عندما أخبر آدم الملائكة بالأسماء لم يكن الإخبار جملاً وعبارت، وإنما هي وصف مسميات. إنها الحالة البسيطة من النطق والتعبير عن الأشياء:

(قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئِهِمْ بِأَسْمَائِهِمْ^ط فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ) (سورة البقرة: الآية 33).

احتاج آدم لكي يتوب إلى كلمات بليغة تعبر عن الحقيقة وتصف المشهد، وتقربه إلى ربه، فكانت الهبة الإلهية؛ أن ألقى الله إليه كلمات، وهذه الكلمات هي التي تاب الله عليه من خلالها. إنه مشهد قرآني بامتياز يرصد تطور القدرة العقلية للبشر، وقدرتهم على التعبير عن أفكارهم وتطور هذا التعبير:

(فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (سورة البقرة: الآية 37).

تفسير هذه الآية - وتحديدًا لفظ تلقي - من خلال التفسيرات التقليدية لم يقدم جديدًا ولم يتعرض - من قريب أو من بعيد - للفرق بين التعبير القرآني (تلقي الكلمات) أو (تكلم الكلمات) أو حتى تعبير (قال الكلمات) من تلقاء نفسه. لا شك أن التعبير القرآني يقصد حالة معينة، ويعكس خصائص هذه المرحلة.

القصص القرآني عن الفترات الزمنية في عهد أنبياء الله نوح، وهود، وصالح، وشعيب، لم يظهر فيها لفظ الكلام إطلاقًا، وكانت جميع الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم تستخدم ألفاظ قال، ويقولون، ولم يأت لفظ تكلم، أو يتكلمون أبدًا في هذه الحقب.

مرحلة نبي الله إبراهيم

ظهر لفظ الكلام، أو بمعنى أكثر دقة، لفظ كلمات مع نبي الله إبراهيم، وجاء أيضًا مقرونًا بلفظ ابتلى.

(وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ) (سورة البقرة: الآية 124).

هذه الآية الكريمة تدل على أن العقل البشري تطور تطوراً ملحوظاً، ولكن ما زالت الكلمات التي دعا به نبي الله إبراهيم إلهاماً من الله. نبي الله إبراهيم وشخصيته الفريدة، والمشاهد القرآنية العظيمة التي تحكي كيف كان حالة فريدة في التفكير، ومحاولاته الدؤوبة للوصول للحقيقة، تجعلنا نقول إنه يبدو كان في محاولة للتعبير عن فكرته، فجاء التدخل المباشر من الله سبحانه لمنحه القدرة على هذه الكلمات.

الابتلاء، كما في قاموس اللغة، أصله بلوى، وله أصلان: الأول بمعنى إخالق (شيء بال أو قديم) والثاني نوع من الاختبار، ويحمل عليه الإخبار. سيتضح معنى الابتلاء من خلال الآية الكريمة التالية:

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (سورة البقرة: الآية 249).

ابتلى الله جنود طالوت بنهر، أي جعله في طريقهم أو حولهم إليه. يختلف معنى الابتلاء هنا عن التلقي فمثلاً لو قال ربنا إن الله ملق إليكم بنهر فهذا يعني إيجاده بشكل كامل، ولم يكن موجوداً من ذي قبل، أما قوله مبتليكم بنهر فهذا يعني أن النهر موجود، ولكن طريقة الوصول إلى النهر هي التي سهّلها الله. لذلك نقول إن الكلمات في حالة آدم عليه السلام، لم تكن هناك قدرة من الأساس على الوصول لهذه الكلمات (نكرر دائماً أن عملية النطق والقول ليست هي المقصودة بعملية الكلام) بينما في حالة نبي الله إبراهيم يبدو أن القدرة تشكلت، ولكن يبقى الدفع في اتجاه عملية التكلم، وتسهيل هذه العملية هو المتبقي؛ ولذلك ابتلى الله إبراهيم بكلمات فأتمهن إبراهيم عليه السلام.

مرحلة نبي الله يوسف

مع قصة نبي الله يوسف، وهي فترة جاءت بعد نبي الله إبراهيم، سنلاحظ ظهور جذر الكلام، وهو كلم خلال الحوار الذي دار بين نبي الله يوسف والملك:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (سورة يوسف : الآية 54).

حسب ترتيب الفترات من خلال كتاب الله يعتبر الملك المصاحب لفترة نبي الله يوسف هو أول من جاء معه لفظ الكلام.. هذا الملك الذي أخبر عنه القرآن يبدو أنه أسس نظاماً سياسياً محكماً، وأنشأ دولة بشكل صحيح، وهذا ما يمكن استنتاجه من التعبيرات القرآنية التي تناولناها في (الجزء الثالث بالتفصيل) وهي دين الملك، وعزيز مصر، وخزائن الأرض، والسجن. أضف إلى ذلك حوار الملك مع نبي الله يوسف واهتمامه بتأويل رؤياه، يخبرنا أن هذا الرجل على قدر من المعرفة والعلم، يجدر بنا أن نتوقف أمامهما قليلاً.

أصل لفظ كلم هو الكاف واللام والميم، ولها أصلان، كما في قاموس اللغة، الأصل الأول: نطق مفهوم، والأصل الثاني: جراح. ومن خلال كتاب الله وجدنا أن كلم تعني العمق ومحاولة الوصول للحقيقة والتعبير الدقيق عن الأشياء؛ لذلك نرحب احتمالين لفهم وتحليل كلمة "كلمه" التي وردت في عهد نبي الله يوسف وصدرت من الملك.

الاحتمال الأول: أنها تعني استوثق من يوسف وفهم ما حدث معه. هذا الاحتمال يقويه لفظ قال الذي جاء في الآية الكريمة بعد لفظ كلمه:

(وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ اَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ) (سورة يوسف : الآية 54).

ورود لفظ قال بعد لفظ كلم مباشرة يوحي أن كلمه لا تعني بالضرورة التحدث معه، بل تعني، كما ذكرنا، استوثق منه وفهم ما حدث بناء على جذر كلمة "كلم". أميل إلى هذا

الاحتمال بسبب أن الكلام بعد ذلك لم يظهر مباشرة، ولكن ظل وقتاً طويلاً، ولم يستخدم لفظ الكلام عن طريق البشر إلا بعد فترة طويلة نسبياً.

الاحتمال الثاني: هو أن هذا الملك قد كان استثناء، وربما هذا الاستثناء في الحكمة والمعرفة والعلم هو ما أهله لإنشاء أول نظام حكم على قواعد محددة وواضحة. فقد أنشأ دولة ووضع دستوراً وقواعد، يبدو أنها ليست على نمط سابق. إنشاء شيء كهذا على غير نمط سابق أمر شديد التعقيد، ولا يقوم به إلا شخص استثنائي حقاً (التطور-الجزء الثالث).

مرحلة نبي الله موسى

مرحلة نبي الله موسى هي مرحلة ثرية بالمعلومات، وتحتاج لأن نفردها كتاباً كاملاً، ولكن سنحاول الإشارة من خلال هذا الفصل فقط لموضوع الكلام. برغم ظهور لفظ الكلام بكثرة وغزارة في مرحلة نبي الله موسى، إلا أنه لا توجد إشارة واحدة في كتاب الله على أن نبي الله موسى تكلم بمعنى الكلام الذي نقصده في هذا البحث، ولكنه كان يقول مثله مثل السابقين.

لقد كان الكلام من الله ويبدو أنه كان تدريجياً مكثفاً للبشرية حتى تستطيع الكلام. لقد كان الكلام موجهاً من الله إلى موسى، ولم يرد في كتاب الله لفظ واحد يثبت أن موسى تكلم، برغم أن القرآن بعد هذه الحقبة وصف تعبيرات كثيرة صادرة من الأنبياء وغير الأنبياء بقدرتهم على الكلام، كما سوف نرى في حالة زكريا ومريم، والنعمة التي أنعمها الله على عيسى إذا تكلم صبيّاً:

(وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى

تَكْلِيمًا) (سورة النساء : الآية 164).

(وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن نَرَاكَ وَلَكِن نُنظِرُ
إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا
أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة الأعراف : الآية 143).

يبدو من الآيات الكريمة أن الله سبحانه وتعالى كلم موسى، وكان دور موسى هو نقل هذا الكلام لقومه. بالتأكيد أن كلام الله هو الحقيقة المطلقة، وليس هناك أبلغ ولا أوجز من كلام رب العالمين. كلام رب العالمين إلى نبيه موسى لم يكن، كما نعتقد، بشكل مباشر، ولكن كان إشارة ونقطة نوعية في تاريخ الإنسانية، وقد تم شرحه كاملاً من خلال فصل (كلم الله موسى تكليماً - الجزء الثالث). دعونا هنا نلقي الضوء على الفرق بين الكلام، والقول، والنطق، من خلال الآيات الكريمة التي عرضت قصة نبي الله موسى. سنوضح هذا الفرق من خلال مشهدين من مشاهد كتاب الله.

المشهد الأول في سورة الأعراف عندما بلغ موسى قومه كلام رب العالمين:

(حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (سورة الأعراف : آية 105).

برغم أن رب العزة قد أخبرنا بأنه كلم موسى تكليماً، إلا أن موسى عندما خاطب قومه قال حقيق علي أن ألا أقول" ولم يقل حقيق علي أن ألا أتكلم على الله. التعبير القرآني الدقيق الذي استخدم لفظ أقول بدلاً عن أتكلم، يدل على أن الكلام هنا يختلف عن القول، وأن الكلام صادر من رب العالمين وليس من موسى، إذ إن البشرية في مراحلها الأولى، ولم تصل بعد لمرحلة التكلم بشكل مستقر.

على العكس من ذلك نجد أن القرآن الكريم في مرحلة متقدمة من مراحل البشرية قد استخدم تعبير كلم عند الحديث عن حادثة الإفك، التي حدثت في عهد متقدم هو عهد رسولنا الكريم:

(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (سورة

النور: آية 16).

المشهد الثاني هو مشهد العجل الذي جسده السامري لبني إسرائيل:

(وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّمَ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكَلِّمُهُمْ وَلَا

يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (سورة الأعراف : آية 148).

هذه الآية الكريمة تظهر لنا الفرق بين الكلام ومجرد إصدار أصوات، أو حتى إصدار

الفاظ وعبارات دون وعي. أصل كلمة حوار هو خور، وأصلها صوت، وهو بالطبع يختلف

عن الكلام. قول ربنا لا يكلمهم بالتحديد، وكان من الممكن أن يقول لا يلقي لهم قولاً على

سبيل المثال، هو إشارة إلى قدرة البشرية - في ذلك الوقت - على التفريق بين الكلام وما

دونه، فكيف لهؤلاء القوم لم يستبينوا الفرق بين الكلام والحوار.

برغم أن التفاسير قالت إن الحوار هو مجرد صوت الهواء يدخل من جهة ويخرج من

الأخرى، إلا أن أصل كلمة الحوار توحى أن هذا الجسد كان يصدر أصواتاً، وقد تكون منطوقاً

لبعض الأشياء المفهومة عن طريق تصميم معين، ولكن لا يمكن أن تكون هذه الأصوات

بدرجة الكلام. لقد كان عتاباً من رب العالمين لهؤلاء القوم، كيف لم يفرقوا بين الحوار

والكلام. يبدو أننا على أعتاب مرحلة جديدة تستطيع من خلالها البشرية الكلام، وأول بشائر

هذه المرحلة هو قدرة الناس على التفريق بين الكلام وغيره، ثم المحاكاة، ثم تأتي بعد ذلك

مرحلة الإبداع، أو إصدار الكلام.

مرحلة نبي الله موسى يبدو أن البشر فيها كان لديهم القدرة على التفريق بين الكلام

والقول، ولعل الكلام الذي أرسله الله إلى موسى كان تدريباً لهم، ومن ثم يستطيعون محاكاة

هذا الكلام، ثم تأتي المرحلة الأخيرة؛ وهي القدرة الحقيقية على الكلام.

عندما يمتزج التواضع العقلي بالهوى النفسي يصبح الإنسان غير قادر على التفريق بين

الكلام والحوار. يحسب أن مجرد رص عبارات وبجمل يتساوى مع فضيلة الكلام القائم على

التفكير المنهجي، والتسلسل المنطقي. كل كلمة في الكلام تحمل ثلثة من الأفكار، وتحوي سلة من المعارف والخبرات؛ بينما الحوار ما هو إلا ثرثرة فارغة وخاوية من أي مضمون. عندما يختلط الكلام بالحوار لدى الناس يصبح التفكير على غير هدى مشاعاً، ويتساوى المفكر بالمهرج، ويسند الأمر للقوالين بدلا عن المتكلمين. هذا الهرج الفكري هو ما يسمح لتواضعي الفهم أن يسودوا في المجتمعات البسيطة التي لا تدرك قيمة الكلام وتحسب كل حوار كلاماً.

قد تكون مرحلة نبي الله موسى عليه السلام، إيذاناً بظهور الفلاسفة المتكلمين، إذ استلمت البشرية تدريباً مكثفاً على الكلام وطريقة التكلم، وسيظهر مردود هذا التدريب في مرحلة نبي الله زكريا، التي ظهر فيها الكلام بشكل مكثف وغزير من خلال وصف القرآن الكريم لمشاهد من حياة نبي الله زكريا، ومشاهد من حياة السيدة مريم.

(قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ) (سورة آل عمران: آية 41).

آية نبي الله زكريا هي ألا يكلم الناس، وكذلك السيدة مريم تنذر صوماً على هيئة عدم الكلام. يبدو أن القدرة على الكلام في هذا العصر كانت شائعة، وأن البشرية وصلت لمرحلة كبيرة جداً من التطور الفكري.

(فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا) (سورة مريم: آية 26).

هذه المرحلة كانت مرحلة حافلة بالكلام، حتى إن القوم الذين استفسروا عن حال السيدة مريم قالوا أيضاً كيف نكلم من كان في المهد صبياً.

(فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا) (سورة مريم: آية 29).

يبدو أن هذه المرحلة هي مرحلة ظهور كثيف للفلاسفة بشدة وانتشارهم؛ إذ انتشار لفظ الكلام، ومن ثم المتكلمين، من الطبيعي أن يكون كلام عيسى الصغير موضع تعجب، إذ

لا يتحصل من في سنه الصغير على فضيلة الكلام، وإنما هي مجرد أقوال وتعبيرات عن الأفكار بشكل بسيط.

بعد هذه الحقب يبدو أن الأمر استقر وانتشرت القدرة على الكلام بشكل طبيعي، وهذا ما نلاحظه من خلال القصص القرآني في مرحلة نبي الله محمد صلوات ربي عليه، وعلى جميع الأنبياء الكرام.

(مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (سورة الكهف: الآية 5).

التعبير القرآني "كبرت كلمة تخرج من أفواههم" يدل على أن القدرة على الكلام أصبحت مستقرة؛ إذ تتحدث الآية عن الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وهذه المرحلة بالتأكيد بعد مرحلة نبي الله عيسى، وهنا يجب أن نفرق بين من يقول كلاماً لا يدرك معناه، ومن يعلم جيداً ما يعنيه كلامه. كلمة اتخذ الله ولداً تصبح كلمة كفر عندما يدرك من يقول معناها ويقصدها تماماً، فالمقصود بكلمة الكفر هنا أن المتكلم قصد أن الله اتخذ ولداً، أي الفعل البيولوجي وقع على الله تنزه الله عن ذلك وعلاؤاً كبيراً. كلمة الكفر هي قصد المعنى مع فهمه تماماً. لقد كان الغضب الإلهي منصباً بشكل واضح على أولئك الذين قالوا اتخذ الله ولداً، قالوا كلمة الكفر قاصدين ومدركين لما قالوا.

(وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93)) (سورة مريم: الآيات 88-93).

يختلف لفظ ولد - كما سيأتي في هذا الجزء، الفصل السادس - هو فعل بيولوجي عن لفظ ابن أو أبناء الذي يصف من هم في كفالته أو تحت رعايته. عندما قالت اليهود والنصارى

نحن أبناء الله وأحباؤه لم يكن هذا القول بحجم قول اتخذ الله ولداً، وإن كان قول نحن أبناء الله وأحباؤه قولاً منكراً؛ لأنه يحتكر الهداية ويصدر حقيقة أن الله رب فئة معينة دون الآخرين، ولكن لا يصل إلى فداحة القول بأن الله اتخذ ولداً، أو حتى القول نحن أولاد الله.

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (سورة المائدة : آية 18).

من هنا نستطيع القول أن لفظ (كلمة) نفسها تعني الشيء المقصود الذي يعبر عن حقيقة الأشياء، فعندما يقول الإنسان كلمة الكفر، وهو مدرك تماماً لما يقول ويفهم أبعاد ما يقول، في هذه الحالة ينطبق عليه وصف الكفر بالله. من رحمة الله على عباده أن القصد والتعمد في الأقوال لا يعلم حقيقته إلا الله، ولا يمكن لأحد أن يحكم على شخص حكماً حقيقياً أنه يقصد كذا أو يعني أمر كذا بشكل قاطع. لهذا الأمر لم يضع ربنا أي حد أو عقاب دنيوي في كتابه لمن كفر بالله، إذ تحديد الكفر بالله من غيره أمر يعود لله سبحانه وتعالى، والبشر غير قادرين على ذلك، وليس لديهم القدرة على تتبع ذلك على وجه الحقيقة.

سنعود في الأجزاء التالية لتوصيف وتعريف الألفاظ القرآنية التي وصفت اليهود والنصارى والكافرين والمؤمنين والمسلمين والأعراف، لنكتشف أن التوصيفات التي بين أيدينا ما هي إلا توصيفات سطحية للغاية، وأن هذه الألفاظ تحمل معاني أكثر وأعمق مما نتصور. لفظ الكلام ظهر بعد ذلك وأصبح أمراً اعتيادياً من خلال سورة التوبة التي وصفت المنافقين الذين قالوا كلمة الكفر:

(يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (سورة التوبة: آية 74).

في سورة النور يظهر لفظ الكلام في حادثة الإفك، وهو قصد الأمر عن فهم ومعرفة.
(وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ) (سورة

النور: آية 16).

الذين يعتقدون أن الألفاظ مترادف، ولا يلقون بالاً للفروق هم خطر على مستقبل العلم وعلى الفكر؛ إذ يستخفون بهذه الفروق الدقيقة، التي يمكن من خلالها اكتشاف بحر من العلوم. إنه الفرق بين العامة الذين يلقون القول دون اكتراث والعالم الذي يزن كل كلمة ويحسب حسابها ويرى تأثيرها. كلما ارتقى الإنسان صار قوله كلاماً يعبر عن حقيقة ما يعتقد، وكلما تدنى وتواضع فهمه أصبح قوله أقرب إلى الحوار في كل واد يهيم.

الفصل السادس: فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا

هل يمكن أن يتسبب سلوكٌ منحرفٌ لمجموعةٍ من البشر في إحداث مصائب وكوارث طبيعية على سطح الأرض؟ أقصد هنا المعنى الفيزيائي؛ أي أن سلوكاً نابعاً من النفس البشرية يؤثر مادياً في محيطه عن طريق علاقة حقيقة بين النفس والكون. لو أمكننا طرح السؤال بطريقة أخرى، هل السلوك غير المنسجم مع "الفطرة" يسبب إزعاجاً بقدر ما للطبيعة من حولنا؟ قد يبدو للوهلة الأولى أن الأمر أشبه بروايات الخيال العلمي، ولكن الحقيقة أن أكثر العلماء تحيزاً للتأثير المادي لم يعد بإمكانهم تجاهل التأثير الفيزيائي للنفس في وسطها المحيط؛ بسبب الملاحظات التي لا يمكن أن تُخطئها العين. لا نحتاج إلا قليلاً من علم الإحصاء وعلم الطبيعة، لنذكر أن التأثير المادي للنفس البشرية حقيقة واقعة، ولكننا نجهد الكثير والكثير عنها.

منذ قديم الأزل عايشت البشرية كثيراً من الظواهر الخارقة وغير المفهومة، وخارج حدود معرفتها، مما جعل العقل البشري متحيراً في فهم وتفسير تلك الظواهر. غالباً ما كان يلجأ العقل إلى الهروب للأمام، فتجده تارةً يرجعها إلى قدرة الله دون الخوض في تفاصيل، وتارةً يحيلها إلى قوى خفية ومخلوقات غير مرئية، أو يريح نفسه من عناء التفكير فيلجأ إلى إنكار الظاهرة ويعدّها ضرباً من الوهم أو الخداع البصري.

كل الثقافات الشرقية والغربية القديمة والحديثة، بلا استثناء، لديها ملاحظات وقصص وتفسيرات مختلفة لما يسمى بالقوى غير المرئية، أو قوى ما وراء الطبيعة. الإنسان في مراحلها الأولى كان يقف مشدوهاً أمام بعض الظواهر التي نعدّها اليوم أشياءً بديهية؛ فقد فسّر القدماء المصريين خسوف الشمس بأن ثعباناً يلتهم مركب الشمس التي يُجر بها إله الشمس، ولكن ما تلبث أن تعود المركب من جديد. تفسير الرياح والعواصف بأنها زفرات الشياطين، وأن

الأمطار دموع الإله؛ وهكذا تجد أن الإنسان في حالة استنفار دائم لفهم الظواهر من حوله، وإعطائها تفسيراً منطقياً بحسب المتاح لديه من علوم ومعرفة.

عند الحديث عن القوى النفسية وتأثيرها الفيزيائي يجب ألا تسيطر الخرافات والأساطير والموروثات الخزعبلية على عقلك، فنحن هنا بصدد عرض الأمر على العلم وبجته بصورة مستقلة، دون تدخل لعاطفة أو حكم مسبق، أو أي نوع من أنواع التحيز المعرفي الذي قد يفسد النتائج. هناك إرهابات قديمة قدم وجود الإنسان تشير إلى محاولات عدة لفهم التأثير المادي المتبادل بين النفس ومحيطها، ففي القرن الخامس قبل الميلاد تنبأ عالمان هما "ديموكرايتس" و "ليسيبوس" من خلال نظرية مشهورة تنص على أن "العالم يتكون من ذرات وفراغ فقط".

حاولت النظرية تفسير الكون والوصول إلى الوحدات الأساسية له؛ وظل هذا التصور سائداً لزمناً بعيداً، إلى أن جاء نيوتن ونظريته ميكانيكا الكم، التي تحاول تفسير سلوك الأجسام الكبيرة، ثم تبعه أينشتاين ونظريته النسبية، التي تحاول فهم سلوك الأجسام الذرية، وظلت هناك فجوة بين النظريتين إلى أن ظهرت نظرية الأوتار الفائقة، في محاولة للتوفيق بين النظريتين، وفهم الكون من منظورٍ آخر. لو صحت نظرية الأوتار الفائقة لأذهلت كل علماء العالم المعنيين بدراسة الطبيعة؛ إذ يطلق العلماء على هذه النظرية ما يسمى (قانون كل شيء أو نظرية كل شيء) وسنعود لنظرية الأوتار الفائقة بعد قليل.

"الإنسان والجماد يبتون ذبذبات يمكنها اختراق المسافات" هكذا يقول العالم الإغريقي ديموكرايتس، ليؤكد أن مسألة اتصال مكونات الكون ليست وليدة العصر الحديث، وإنما لها جذور تاريخية موهلة في القدم. أستطيع أن أؤكد لكم أن استمرار العلم والبحث، وتضافر جهود علماء الفيزياء والأحياء وعلم النفس، ستصل قريباً، وقريباً جداً لتفسير معقول ومقبول للظواهر الخارقة للنفس، وسيصبح تأثير السلوك النفسي مقاساً بدرجة كبيرة. قد يصل العلم إلى أبعد من ذلك، مثل التوصل إلى الجينات المسؤولة عن كل أنواع السلوك البشري، ويجري تحديدها والعمل عليها.

سبر أغوار هذه المعرفة كفيل بفتح نافذة نطل من خلالها على ملامح قدرة النفس البشرية الهائلة، وقد تفتح لنا باباً مغلقاً لنجد أنفسنا وجهاً لوجه أمام مفاتيح النفس البشرية، وقياس أشياء لا يمكن قياسها، مثل الأمل والرغبة والحب والسعادة. قد لا أكون مبالغاً إذا قلت إن فهم أمر كهذا جدير بأن يترجم لنا سر وقوة الدعاء المادية، ومدى تأثيره في الأحداث. وعلى الجانب الآخر قد تمكننا هذه المعرفة من تفسير الشعور السلبي، مثل اليأس والفقر والكره والحزن والحقد والحسد. ليس مستبعداً أن نكتشف قوة وطاقمة معينة للنيات والأفكار، وقدرتها الفائقة على التأثير في الواقع الذي نعيشه. إنها قدرات النفس الخارقة، التي لا ندري عنها شيئاً حتى الآن.

لقد أخضعتُ بالفعل كثير من سلوكيات النفس البشرية للدراسات، وأحضرتُ لطاولة البحث لنكتشف أشياء مذهلة. لا بد أن نؤكد أننا ما زلنا على أعتاب فهم النفس البشرية، ولا يستطيع أحد التكهن بما تجمله الأيام القادمة. ها هو الجدار الفاصل بين المادي واللامادي يريد أن ينقض، أو أنه انقض فعلياً ولم يبقَ من هذا الجدار إلا فكرتنا الكلاسيكية عنه. إننا نتحرك خلال ثلاثة أبعاد، هي الطول والعرض والارتفاع، أضف إلى ذلك البعد الرابع وهو الوقت، وغالبا ما تتمحور معرفتنا خلال هذه الأبعاد. ولكن إذا علمت أن علماء الفيزياء يعكفون على دراسة ما يقارب 26 بُعداً، أدمجوا في عشرة أبعاد أو أحد عشر بُعداً لفهم هذا الكون وفقاً لأحدث النظريات لتفسير ووصف الكون؛ وهي نظرية الأوتار الفائقة مما يجعل إدعاء المعرفة مسألة صعبة للغاية والإصرار على امتلاك الحقيقة نوع من التأخر العقلي.

نظرة على نظرية الأوتار الفائقة . Theory Superstring

إننا نعيش في عالم أغرب مما نتخيل، هكذا يعتقد علماء الفيزياء العاملين على نظرية الأوتار الفائقة، وهي نظرية تحاول التوفيق بين نظرية ميكانيكا الكم ونظرية النسبية للعالم الشهير أينشتاين. تحاول نظرية الأوتار وصف الكون بشكل دقيق، وقد تخلت النظرية عن الوصف التقليدي للكون بأنه ذو أربع أبعاد، بل فرضت أبعاداً تصل إلى عشرة أبعاد أو أحد عشر

بعداً، ولكي توفق بين الأبعاد المعروفة، وهي أربعة أبعاد والأبعاد الأخرى، افترضت النظرية أن الأبعاد الستة الباقية يجب أن تكون مكورة في حيز صغير جداً في الفضاء.

ولتبسيط الأمور أكثر ومحاولة فهم الوضع نقول إن هذه النظرية تتنبأ بنتائج خرافية لنسيج الكون، وربما تفسر انتقال التأثيرات الصغيرة للكون، أو الانتقال الآني، أو ما يسمى الانتقال في طرفة عين؛ هذه النظرية تقول ببساطة: لا زمان لا مكان، الكون كله ملتف على بعضه بشكل لا يمكن تصديقه أو استيعابه بسهولة.

لقد حاول العلماء الإبحار في المادة لمعرفة تكوينها، وحتى وقت قريب كانت كل فكرتنا عن المادة أنها تتكون من ذرات، والذرة تتكون من جسيمات تحت ذرية، وهي البروتونات والنيوترونات، ثم تم اكتشاف الكوارك حديثاً، وهو ما يتكون منه البروتون والنيوترون، ثم جاءت نظرية الأوتار الفائقة لتفرض أن هناك وحدات أصغر بكثير من الكوارك، وهي التي تتركب منها المادة، وقد سميت بالأوتار. هذه الأوتار في حالة حركة مستمرة؛ وإذا سألت العلماء عن هذه الأوتار، ومما تتركب سيقولون لك إنها تتكون من الاشياء نعم لا شيء حتى الآن. قد تكون مجرد اهتزازات أو نبضات أو حتى "أحداث" ولكن في النهاية لا شيء يمكن اعتماده حتى الآن. هذه النظرية لن تكون الأخيرة، بل هي حلقة أخرى من حلقات العلم الذي يدهشنا كلها تعمقنا بحثاً عن الحقيقة.

دعونا نعود مرة أخرى إلى موضوعنا، فلو أننا وصلنا لمراحل متقدمة في نظرية الأوتار لما احتجنا بالأساس إلى أن نشرح كل ما سيأتي تفصيله، فهذه النظرية لو صحت ستكون كفيلة لتفسير تأثير سلوك وشعور الكائن الحي على المادة، أو ما نسميه نحن المادة. والآن نستعرض بعض النقاط البسيطة، التي ترتبط بقدر ما بفكرة تأثير السلوك الإنساني أو النفسي في الوسط المحيط.

أولاً: سنتعرف على قدرة التأثيرات المتناهية في الصغر على إحداث تحولات عظيمة الأثر.

ثانياً: سنلقي نظرة على العلاقات بين النفس البشرية والطبيعة.

ثالثاً: سنلقي نظرة على التأثير الفيزيائي لهذه العلاقات على بعضها بعضاً.

رابعاً: سنحاول فهم بعض الظواهر القرآنية، وبعض الإشارات في كتاب الله ونجتهد، وعلى الله قصد السبيل.

تأثيرات صغيرة يمكن أن تحدث تغيرات عظيمة

لا شك أنك قرأت أو سمعت عن نظرية تأثير جناح الفراشة "Butterfly effect" ، نظرية الفراشة تعد جزءاً من نظرية الفوضى، التي تفترض وجود روابط وعلاقات بين جميع مكونات الكون، ولا وجود أبداً للصدف.

ملخص النظرية: أن التغيرات الصغيرة في البداية قد تؤدي إلى تغيرات عظيمة في النهاية. كانت البداية عام 1963 على يد العالم الأمريكي "إدوارد لورنز" الذي كان يعمل على برنامج التنبؤ بالطقس؛ وفي أثناء البرمجة أدخل العالم الأمريكي الرقم 642.156 بدلاً من الرقم 642135.156 كأحد مدخلات البرنامج، ويبدو الفرق لا يكاد يذكر فهو 000135.0 وعادة مثل هذا الفرق يتم إهماله في الحسابات، ولكن كانت المفاجأة، فقد اختلفت النتائج اختلافاً كبيراً جداً، مما أدى فيما بعد إلى اكتشاف نظرية الفوضى، التي تنص على أنه "لا وجود لشيء عشوائي، كل شيء في الحقيقة هو منظم ومرتب بقوانين طبيعية صارمة ودقيقة يسير عليها، فلا وجود لأحداث فوضوية أو غير منضبطة". أي أن كل شيء مقدر تقديراً غاية في الدقة والإحكام.

نظرية تأثير الفراشة نفسها، التي كان أول ظهور لها في قصة قصيرة للخيال العلمي للكاتب راي برادبوري عام 1952م، اشتهرت هذه القصة بفضل أبحاث العالم الأمريكي "لورنز" كما ذكرنا، وتنص النظرية على أنه "إذا قامت فراشة بهز جناحها على حافة المياه في "الصين"، فإنها قد تتسبب في وقوع أعاصير في "البرازيل" أو في جزر الكاريبي" التفسير المنطقي للنظرية هو: "أي فعل رغم ما يبدو من بساطته في الظاهر، فإن له تأثيراً قد يتطور هذا التأثير تطوراً هائلاً

غير متوقع". نظرية رفرقة جناح الفراشة على المستوى الاجتماعي أو الاقتصادي تستطيع بدون أدنى عناء ملاحظته، سواء بقراءة التاريخ الحديث أو القديم.

مقتل ولي عهد النمسا في سراييفو أدى إلى نشوب حرب عالمية أولى، وبعدها حرب عالمية ثانية أدت لمقتل 2 بالمائة من سكان العالم. وما الأمر منا ببعيد، فتلك الشرطة التي صفت الشاب التونسي البوعزيزي ما كان أحد يتوقع أن هذه الصفحة ستسبب في تغيرات جذرية في المنطقة كلها.

إن كان كثير من المؤرخين يعتبرون أن سرد وقائع كهذه هو نوع من الاستخفاف والسطحية. الحرب العالمية الأولى وكذلك الحرب العالمية الثانية قد نشبت لأسباب تتعلق بقوميات وعصبيات وسباقات من أجل المستعمرات، وتكوين تحالفات عسكرية أعمق بكثير من حادثة ولي عهد النمسا. نعم ولكن تبقى هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي أشعلت فتيل حربين مدمرتين. ثورات الربيع العربي إنما اشتعلت بسبب الظلم والتهميش الذي عايشه، وما زالوا يعايشونه، أبناء هذه المنطقة، وما كانت صفة البوعزيزي إلا كلمة في فصل من كتاب الثورات.

إذا كنت ترى أن التغيرات الطفيفة على المستوى الاقتصادي والسياسي غير جازمة القطع في إحداث تغيرات كبيرة، فإنني أستطيع أن أؤكد لك أن هذه التغيرات الصغيرة على مستوى الذرات والجزيئات واضحة وضوح الشمس في قدرتها على إحداث تغيرات عظيمة الشأن. ليس الأمر عصي الفهم، على الباحث العلمي إدراك أن تغيرات صغيرة ومتناهية الصغر يمكن أن تؤدي إلى تغيرات، بل طفرات عظيمة الأثر.

على سبيل المثال: انتقال الكترون من مدار إلى مدار آخر قد يتسبب في حدوث تفاعل جديد، ونشوء مركبات جديدة، وتغيرات لا حصر لها، وخصوصاً إذا اجتمعت العوامل المساعدة لذلك. ودارس الرياضيات يعلم جيداً أن رقماً مهملاً في بداية المعادلة يمكن أن يقلب النتائج رأساً على عقب.

هذا الاستنتاج لا يحتاج إلى كثير برهان للتدليل عليه، وما تجربة العالم الأمريكي إدوارد لورنز منا ببعيد، والتي أدت لظهور نظرية جناح الفراشة أثناء عمله في برنامج التنبؤ بالطقس، وإهماله رقماً صغيراً للغاية أدى في النهاية إلى تحولات عظيمة.

عالم الفيزياء النظرية المعروف "ستيفن هوكينج" ووفقاً لحسابات قام بها يقول: إن الكون من حولنا على وشك الانهيار؛ وقد أثبت فيزيائيون معاصرون حسابات هوكينج، حتى إن البروفيسور في كامبريدج "بنيامين ألانك" يقول: إن المسئول عن ذلك هو جسيم تحت ذري لا يمكن رؤيته يسمى هيگز بوزون كتلة 126 ألف جيجا إلكترون فولت، وهذا الجسيم هو المسئول عن عدم الاستقرار الحادث، ويمكن أن يستقر الكون إذا أصبحت كتلة الهيگز بوزون هذا 127 ألف جيجا إلكترون فولت؛ هذا الجسيم هو المسئول عن إعطاء صفة الكتلة لكل الموجودات، فبدونه لا وجود للكتلة من الأساس.

نعم الفرق ألف جيجا إلكترون فولت فقط ما بين استقرار الكون وعدم استقراره، بل وانهيائه كاملاً. إن علماء الفيزياء لا يعرفون على وجه الدقة ما الذي يمكنه دفع كتلة الهيگز بوزون لتصبح 127 ألف بدلاً من 126 ألف. من الممكن مستقبلاً عند الوصول للقانون الواحد الذي يحكم الكون، وعن طريق دمج علم النفس (الباراسيكولوجي) ومحاولة فهم قوانينه، عندها فقط يمكننا فهم سبب استقرار أو عدم استقرار الكون.

في السطور القادمة سنحاول اكتشاف قدرة النفس البشرية، ومساهمتها في استقرار الكون من خلال تحليل اللفظ القرآني لعنا نكون السابقين في هذه المعرفة، وتوجيه الباحثين نحوها. سنتعرف في السطور القادمة كيف يمكن لسلوك منحرف غير منسجم مع الكون ومنافٍ للفطرة أن يتسبب في انهيار المنظومة الكونية ككل.

قدر كل شيء تقديراً

لا يحتاج القارئُ لكتاب الله كثير جهد لإدراك ما تنص عليه نظرية تأثير جناح الفراشة، ونتيجتها نظرية الفوضى "لا وجود لشيء عشوائي، كل شيء في الحقيقة هو منظم مرتبط بقوانين طبيعية صارمة ودقيقة يسير عليها، فلا وجود لأحداث فوضوية أو غير منضبطة" يخبرنا كتاب الله أن التأثيرات الصغيرة مهما تهاوت في الصغر فهي مسجلة ومدونة في كتاب، وكما أفردنا سابقاً فإن معنى كلمة كتاب تعني كل الأمور المتعلقة بالشيء، والعلاقات التي ترتبط بهذا الشيء، فهما كان الشيء صغيراً أو كان بالنسبة لك مهماً فإنه مدونٌ في كتاب، وليس هذا فحسب، بل إن علاقات هذا التأثير بما يسبقه وبما يليه مدونٌ ومسجلٌ بقوانين صارمة:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ) (سورة سبأ الآية: 3) . (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين) (سورة يونس الآية: 61) .

ثم إن الله سبحانه وتعالى يخبرنا أن كل شيء خلقه بقدر أي بمقدار وحساب، لا شيء فوضوي أو عشوي

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (سورة القمر الآية: 49) .

(الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا) (سورة الفرقان الآية: 2) .

(اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ) (سورة القمر الآية: 8) .

للأسف الشديد يتعامل الناس مع لفظ القدرة معناها ومدلولها الرياضي على أن أفعال الخالق لا تُبرر، وهذا الفهم هو خلاف ما يشير إليه كتاب الله. عادة ما يستخدم الناس لفظ الله قادر على كل شيء في مواجهة من يحاول فهم أسباب الخلق وتدبر الآيات الكونية، في سياق الأسباب والقوانين بهدف إقامة الحجّة عليه لإثباته عن تناول وفهم الأسباب والمقادير التي خلق الله بها الأشياء. ستلاحظ هذا التوجه العام لدى الكثيرين بمجرد أن تطرح فكرة أن الآيات الخارقة للعادة لا بد أن تتبع القوانين والأسباب تصديقاً لقول الله سبحانه (إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ) (سورة القمر الآية: 49).

الاعتقاد السائد أن طرحاً كهذا هو مفسدة عظيمة؛ إذ يشكك الناس في دين الله ويجعل دين الله في مواجهة صريحة مع العلم. لا ينظر هؤلاء للقرآن بما يستحق، وأنه يحوي كنوزاً معرفية لا حصر لها، ومن أجل الوقوف على هذه الكنوز لا بد من طرح الأسئلة بشكل غزير، وإتاحة الحرية للفكر بشكل كامل، انطلاقاً من اليقين بأن كلام الله هو الحقيقة المطلقة، وكل ما سواه يحتمل الصواب ويحتمل الخطأ.

الإنسان والطبيعة

توجد أربع قوى معروفة حتى الآن، هي التي تؤثر في كل مكونات الكون، بما في ذلك الإنسان، وهو جزء من هذا الكون يؤثر فيه ويتأثر به. تلك القوى الأربع؛ هي قوى الجاذبية، والقوى الكهرومغناطيسية، والقوى النووية (قوى نووية كبرى)، والقوى الإشعاعية (قوى نووية صغرى).

قوى الجاذبية

إنها القوة الأضعف من بين الأربع قوى الأخرى، ومع ذلك فلها التأثير الأعظم في هذا الكون. قوى الجاذبية هي القوة الأكثر انتشاراً، فكل مكونات الكون بداية من الأجرام السماوية، وحتى القلم الذي تمسكه الآن والأوراق التي أمامك، يوجد بينهما قوة جاذبية بقدر ما. إننا لا نلاحظ قوى الجاذبية بين الأشياء الصغيرة بسبب تأثيرها الصغير جداً، الذي يكاد

يكون مهملاً، ولكننا نلاحظ تأثير الجاذبية الأرضية لأنها حالة خاصة، وبسببها أصبح لنا ولكل الموجودات على سطح الأرض ما يعرف بالوزن، إذ الوزن هو قوة جذب الأرض للجسم.

القوى الكهرومغناطيسية

هي القوى الموجودة بين الأجسام المشحونة، والمثال الأوضح هو القوة التي تربط بين الإلكترونات سالبة الشحنة في النواة البروتونات موجبة الشحنة. تعد القوة الكهرومغناطيسية أكبر من قوى الجاذبية بمقدار 10 مرفوعاً للقوة 36 أي 10 أمامها 36 صفرًا، وهذا يوضح لك كم هي ضعيفة قوة الجاذبية.

لو افترضنا أن مغناطيساً معلقاً بسقف، وقطعة من المعدن منجذبة للمغناطيس، وملتصقة بالمغناطيس؛ لك أن تتخيل أن قطعة المعدن هذه تتعرض لثلاث قوى؛ هي قوة الجاذبية الأرضية، التي تجذب قطعة المعدن لأسفل، وقوى الجاذبية بين جسم المغناطيس وقطعة المعدن، وهي قوى تقريباً تأثيرها مهمل، وقوى مغناطيسية بين المغناطيس وقطعة المعدن، وهي ما تمنع قطعة المعدن من السقوط باتجاه الأرض. القوى المغناطيسية الناتجة عن هذا المغناطيس الصغير تفوقت على قوى الجاذبية الناتجة عن الأرض بحجمها المهول، وهذا ببساطة الفرق بين القوى الكهرومغناطيسية وقوة الجاذبية.

القوى النووية

القوى النووية هي القوى الموجودة بالنواة، وهي المسؤولة عن بقاء مكونات النواة متماسكة ومتراصة، وهي قوة كبيرة جدًا مقارنة بقوى التجاذب الكهرومغناطيسي، أو قوى الجاذبية. ومن البديهي أن تكون القوى النووية أكبر بكثير من قوى الجاذبية، والقوى الكهرومغناطيسية، لتتمكن من حفظ مكونات النواة وبقاء المادة، ولو أن أيًا من القوى الأخرى أكبر من القوى النووية لتناثرت مكونات النواة، ولا كان هناك كونٌ من الأساس. إننا بالطبع لا نشعر بالقوى النووية لأنها قوى محدودة بالحيز النووي، أي داخل النواة، يمكن أن نشعر بالقوة النووية إذا تمكنا فقط من إخراج هذه القوة من النواة إلى الحيز الملموس، كما في حالة نواة ذرة اليورانيوم، التي تنبع عنها الطاقة النووية الرهيبة التي تستخدم في الحرب

والسلم حالياً؛ إن نصف كيلو جرام من اليورانيوم كوقود يعادل 250 ألف لتر من الوقود السائل.

القوى الإشعاعية

هي القوة المسؤولة عن الإشعاع في الذرة، وهي أقل من القوة النووية، ولكن أكبر من قوى الجاذبية بمقدار 10 مرفوعة لقوة 25. وأبسط مثال على القوى الإشعاعية هي تفكك النيوترون متعادل الشحنة داخل النواة، لكي يعطى بروتوناً موجب الشحنة يبقى بالنواة، وينطلق إلكترون سالب الشحنة وجسيم آخر يدعى نيوترون مضاداً في صورة إشعاع.

هذه هي الأربع صور المعروفة للقوى الموجودة بالكون، قد يكون هناك قوة خامسة من غير المعروف نطاق عملها بالضبط، قد تكون النفس البشرية هي مركزها، ومن ثم يمكن من خلال هذه القوة فهم قدرات النفس غير المرئية أو ما يسميها علماء الباراسيكولوجي قدرات النفس الخارقة. ليس هناك أي دليل علمي حتى الآن على وجود هذه القوة الخامسة، ولا نستطيع الجزم بوجودها، ولا نستطيع بنفس الوقت الجزم بعدم وجودها.

ربما اكتشاف هذا النوع من القوى، والذي يعمل في إطار النفس البشرية قد يكون مفتاحاً لفهم كثير من سلوك النفس البشرية وتفاعلها وترابطها، وعلاقتها مع محيطها. إلى أن يأتي هذا اليوم، دعونا نلقي الضوء بشيء من التركيز على القوى الكهرومغناطيسية بسبب انتشارها الكثيف، وترابطها الفريد، ومصادرها المتعددة، وسبب آخر مهم وهو المجال الكهرومغناطيسي لأعضاء جسم الإنسان، وتأثره وتأثيره في المجال حوله. لعلنا بإلقاء الضوء على القوة الكهرومغناطيسية يمكن أن نقرب قليلاً من فهم السلوك النفسي، وكيف يمكن أن يؤثر في الكون من حوله. من أجل فهم هذه القوى لا بد أن نلقي الضوء على المجال المغناطيسي للأرض: نشوئه، وكيفية عمله، ومدى ارتباطه بمكونات الكون الأخرى. المجال المغناطيسي للأرض.

تموج الأرض بشحنات كهرومغناطيسية، وهذه الموجات لها تفسيرات عديدة من حيث المنشأ. أغلب التفسيرات يعود بنشأة تلك الشحنات إلى المعادن، ومصهور تلك المعادن

في باطن الأرض، أضف إلى ذلك دوران الأرض، سواء حول محورها أو حول الشمس، مما يعد سبباً رئيسياً لهذه الشحنات. اللافت للنظر، اكتشاف العلماء أن حوالي 3 بالمائة من المجال المغناطيسي في باطن الأرض لا يعود بالأصل إلى عوامل داخلية، بل يرجع إلى حركة التيارات الكهربية في الغلاف الجوي، وبالتحديد في منطقة تسمى طبقة الأيونوسفير.

هذا بالضبط ما فرضه نيكولا تسلا في نظريته "أن الأرض بها شبكة طبيعية، من الموجات الكهربية ذات تردد منخفض جداً؛ إذ يمكن اعتبار هذه الشبكة من الموجات الكهربية قنوات اتصال بين كل مظاهر الحياة على سطح الأرض، يشمل ذلك حركة الرياح والمد والجزر، بالإضافة إلى تحركات الألواح التكتونية (المسبب الرئيسي للزلازل)".

يفترض تسلا أنه إذا أمكن توليد موجات كهربية بكثافة ذات تردد منخفض، ومن ثم أمكن التحكم في هذه الموجات الكهربية فإنه يمكن التحكم في الشبكة الكهربية ككل، وهذا يعني التحكم في مظاهر الحياة، مثل حركة الرياح، والأمطار، وحركة الصفائح التكتونية، والجاذبية، وتغير درجات الحرارة وغيرها من مقومات الحياة على هذا الكوكب؛ وبالتالي فإن أي خلل في إحدى الشبكات الكهربية، سيتبعه خلل مصاحب في الشبكة الأخرى.

من الواضح أن الكل مركبٌ تركيباً طبقيّاً، وملتف على بعضه، فلا يمكن اعتبار أي مكون من مكونات هذا الكون مستقلاً، أو غير مرتبط بالمكونات الأخرى. المجال المغناطيسي في جسم الإنسان وتأثيره على المحيط حوله الخلايا في جسم الكائن الحي عبارة عن مولدات مغناطيسية صغيرة، جسم الكائن الحي يتكون من ترليونات الخلايا الحية. تتم عملية تبادل الموجات الكهرومغناطيسية بين أعضاء وأجهزة الجسم الحي بسرعة وديناميكية متناهية في الدقة، تمكن أجهزة الجسم من التواصل مع بعضه بعضاً، والعمل بكفاءة عالية.

من المعلوم أن المحصلة النهائية لشحنات الجسم متعادلة، مما يسبب حالة من التوازن البيولوجي؛ وقد أثبت العلم أن هناك مجالات مغناطيسية تبعث من مختلف الأعضاء، كالقلب، والعضلات، والأعصاب، والدماغ، وأن هذه المجالات المغناطيسية ذات طبيعة متغيرة. عند

قياس قيمة المجال المغناطيسي للقلب وجد أنه يساوي مليون جاوس (الجاوس هو وحدة شدة الفيض، أو الحث المغناطيسي في نظام وحدات سنتيمتر غرام ثانية). توجد وحدة قياس كبيرة للمغناطيسية الكهربائية، وتستخدم كثيراً في مجال التكنولوجيا، وهي التسلا.

وحدة التسلا: هي الوحدة المعتمدة من قبل النظام الدولي للوحدات (نظام وحدات متر كيلوجرام ثانية). ووحدة التسلا = 000.10 جاوس). إذا كان المجال المغناطيسي للقلب يساوي مليون جاوس، فإن العضلات تنتج في حالة التقلص مجالاً مغناطيسياً بقيمة عشرة ملايين جاوس، أما في حالة الدماغ فقد وجد أن أعلى قيمة للمجال المغناطيسي تكون أثناء النوم، وبلغت 300 مليون جاوس في الحالات الطبيعية، ولكن في بعض الحالات المرضية فإن الدماغ يستطيع أن ينتج قيمة أعلى من ذلك، خلال حالات معينة مثل حالات الصرع. لجسم الإنسان مجال مغناطيسي لا شك في ذلك، وسنحاول في السطور التالية التعرف على إمكانية تأثر هذا المجال المغناطيسي بالحالة النفسية، وبالتالي سلوك الإنسان، الذي يعد بشكل أو بآخر انعكاساً للحالة النفسية.

التوتر على سبيل المثال أو الغضب قد يسبب ارتباكاً في السلوك، ويؤدي إلى تصرفات غير منضبطة، مثل الكذب، والعكس بالعكس. الحالة النفسية أيضاً هي انعكاس السلوك والتصرف، فسلوك مثل الكذب أو النفاق قد يسبب ارتباكاً في الحالة النفسية، وتوتراً لا يمكن تجاهله.

تأثير المجال المغناطيسي على سلوك الإنسان ومزاجه

الدماغ البشري له القدرة على إرسال واستقبال الموجات الكهرومغناطيسية، وقد اختلف العلماء في تحديد المركز المسئول عن الاستقبال والإرسال، غير أن كثيراً من الدراسات والترجيحات تشير إلى أن الغدة الصنوبرية الموجودة خلف الأذن، والتي من مسئوليتها إفراز هرمون الميلاتونين السحري المسئول عن إصلاح العطب في الخلايا وترميم التالف، هي المسئولة عن إرسال واستقبال الموجات الكهرومغناطيسية.

يعتقد أن هذه الغدة مسئولة عن الظواهر النفسية الخارقة، مثل توارد الخواطر، أو استشفاف المستقبل، والإحساس والشعور عن بعد. وجود الغدة الصنوبرية خلف عظام الجمجمة يجعل من الصعب وصول الضوء إليها، وهي تنشط في إفراز الميلاتونين في الظلام تبعاً للساعة البيولوجية للإنسان. هذه الغدة تتأثر بالأشعة الكهرومغناطيسية، ويعتقد العلماء أنها مسئولة عن استقبال الموجات الكهرومغناطيسية من أدمغة الآخرين، إذ يمكن عن طريقها التواصل مع الأدمغة الأخرى عن بعد .

لا شك أن الأمر يختلف من شخص لآخر، ولا يمكن أن يكون هذا التواصل بنفس قدر التواصل المباشر، ولكن كثيراً من الظواهر والمشاهدات تؤكد ذلك التصور. يقول ديكارت عن الغدة الصنوبرية إنها: " الجهاز الذي ينسق العمل بين الروح والجسد" ويدعوها فلاسفة الهند "بأنها العين الثالثة".

يقول عنها بعض المتصوفة أنها " تعظم وتكبر بكثرة التأمل والسجود، وتذبل وتضمحل بكثرة الترف والبعث عن الله". إن كان هناك إشارات كبيرة إلى دور العقل والغدة الصنوبرية في استقبال وإرسال الموجات الكهرومغناطيسية، فلا يمكن أبداً إغفال دور القلب، الذي تعتقد كثيرٌ من الأبحاث أنه مصدر الإحساس والشعور، وأنه يحتوي على ذاكرة ومراكز إحساس عالية جداً.

أعتقد أن القلب هو حجر الأساس في السلوك بسبب التجارب العلمية من ناحية، وخصوصاً أن الدراسات تشير إلى أن قدرات الباراسيكولوجي، أو ما يعرف بالساي (القدرات الخارقة للنفس) والتي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بسلوك الإنسان لا تتأثر بالمرض العقلي، مما يرحح دور القلب المحوري في مسألة السلوك النفسي. تجارب عديدة كما سنرى ترجح أن القلب هو مركز الإحساس والشعور، وهو أيضاً مركز تفاعل هذه الأحاسيس والمشاعر، وما ينتج عنها من سلوك. لا شك أن الاتجاه العلمي السائد يرحح دور العقل في التواصل والتصرف النفسي، ويهمل إلى حد كبير دور القلب.

اعتماداً على بعض المشاهدات والتجارب العلمية والدراسات من ناحية، وغزارة ذكر القلب في كتاب الله من ناحية أخرى كمرکز الإدراك والحس والشعور والتعقل، يعطينا دفعة للقول بأن هذا العضو المهم هو الركيزة الأساسية في فهم تأثير السلوك الإنساني على محيطه، ولعله هو حلقة الوصل بين الإنسان وبين جميع مكونات الكون.

يبرز سؤال هام ونقاش حاد سواء في الأوساط العلمية، أو حتى من خلال رؤية بعض "رجال الدين" لدور العقل ودور القلب في الاتصال بالمحيط الخارجي، وكأنهما كيانان منفصلان تماماً. قد يكون نقاش كهذا له وجاهته في القديم، ولكن مع ازدياد المعارف، وتكشف مزيد من العلاقات التي تربط الأشياء بعضها ببعض، أصبح مثل هذا الجدل لا يوجد له ما يبرره، وخصوصاً في ظل وجهة النظر التي تؤيد النسيج الكوني الملتف بعضه على بعض. يبدو أن الحدود بين العقل والقلب أيضاً تكاد أن تتلاشى ولا يمكن فهم إحداها بمعزل عن الآخر.

عندما يتحدث رجال الدين، وخصوصاً المتصوفة منهم، عن دور العقل ودور القلب في الإيمان يبدو طرح مثل هذا السؤال بدائياً، حيث ينظر للكون وللإنسان على أن مكوناته جزر منعزلة عن بعضها بعضاً؛ بينما الحقيقة أن النسيج الكوني أو النسيج الإنساني أعقد من ذلك بكثير. طرح كهذا يشبه إلى حد كبير السؤال عن قيادة السيارة، وهل تتم عن طريق العقل أو القلب أو اليدين أو النظر أو الرجلين أو السمع. بالطبع تحديد العضو المسؤول عن القيادة بشكل منفصل هو تصور غير كامل، ولكن الأدق هو التعامل مع هذه الأعضاء والأجهزة بشكل أشمل وأعمق، وفهم العلاقات بين بعضها بعضاً.

القلب من وجهة النظر العلمية

لو تتبعنا بعض الأبحاث عن القلب، ودوره المحوري في حياة الإنسان وعلاقته بعدة متغيرات، فسوف نكتشف دور هذا العضو الساحر، وتأثيره المباشر على السلوك والتصرف. على الجانب الآخر غزارة ذكر القلب في كتاب الله إشارة واضحة إلى أنه مركز مهم جداً، في

الإحساس والشعور، وكيف أن السلوك والتصرف يؤثر فيه تأثيراً واضحاً، وكيف ينتقل هذا التأثير إلى محيطه.

نبدأ من جامعة هاواي والباحث "بول بيرسال"، الذي قام بتتبع حالات نقل القلب إلى أفراد استطاعوا بفضل زراعة هذا العضو من الحياة، ولكن بأنماط مختلفة تشابهت مع المتبرعين (أصحاب القلب الأصلي). للدكتور "بول بيرسال" أبحاثٌ عديدة وتجارب شتى صاغها في كتابه شفرة القلب "Pearsall. Paul Code" Heart's The

خلص بيرسال من مجموع أبحاثه وتجاربه إلى أن القلب له القدرة على الإحساس والتذكر، والأغرب أن له القدرة على إرسال ذبذبات تمكنه من التفاهم مع القلوب الأخرى. لقد أورد الكاتب قصصاً كثيرة في كتابه عن أحوال أولئك، الذين نُقلت قلوب لهم، وكيف أنهم عاشوا جزءاً من ذكريات المتبرعين. واحدة من تلك القصص شاب صغير توفي في حادث سيارة كان عمره 18 عاماً، نُقل قلبه إلى فتاة في نفس العمر تقريباً، وقد كان هذا الشاب يكتب الشعر ويلعب الموسيقى ويغني؛ وفي مقابلة للفتاة مع والدي الشاب المتبرع قامت الفتاة بعزف قطعة موسيقية كان ابنهم يعزفها أمامهم، وأكملت كلمات أغنية كان الابن يرددتها رغم أن الفتاة لم تسمع الأغنية قبل ذلك.

على الجانب الآخر، قصة لشخص زرع قلب صناعي له، وبعد نجاح العملية يقول هذا الشخص إن مشاعره قد تغيرت، فلم يعد يشعر أو يحس كما كان من قبل، وأنه لا يشعر تجاه أحفاده بنفس الشعور السابق.

في سياق متصل فإن أبحاثاً أجريت في معهد رياضيات القلب الأمريكي، برهنت على أن القلب يملك مجالاً كهربياً قوياً يؤثر على من حولنا من الأشخاص، وهذا ما يطلق عليه قدرة الإنسان على التواصل مع غيره عن طريق قلبه دون اتصال تقليدي عن طريق الكلام.

الأمر ذهب أبعد من ذلك، ولم يعد قاصراً على التأثير المتبادل للإنسان؛ فقد تعداه للكائنات الحية الأخرى مثل النبات. هناك أبحاث تجري حالياً للتعرف على كيفية تعامل

الأشجار مع الإنسان من خلال مجالهم الحيوي؛ لا شك أن أبحاثاً كهذه لها دلالات واضحة على تأثير، وتأثر المجال المغناطيسي الصادر عن القلب بالبيئة المحيطة.

لم يعد التصور الساذج عن القلب أنه عضو عضلي مجوف فقط، مقبولاً دون الأخذ بعين الاعتبار التأثير الواضح لهذا القلب في محيطه وتأثره بهذا المحيط. من الواضح أن القلب مركز مهم للشعور والإحساس والذاكرة، وهناك تواصل بينه وبين الوسط المحيط من خلال التجارب والملاحظات التي أجراها كثير من الباحثين.

هل تشعر عندما تقوم بتصرف خاطئ بتوتر؟ وهل تشعر عندما تقوم بسلوك قويم بارتياح ما؟ لو حاولنا فهم الإحساس والشعور من خلال عملية رياضية أو فيزيائية؛ يمكننا وصف حالة مثل التوتر على سبيل المثال بأنه خلل في نظام الموجات الكهرومغناطيسية، أو عدم توافق الموجات الصادرة عن القلب مع محيطه. على العكس من ذلك فإن شعوراً ما بالارتياح لا يمكن تفسيره إلا من خلال تألف وتوافق الموجات الصادرة عن القلب مع الموجات في محيطها. من خلال فهم العلاقة بين الموجات الكهرومغناطيسية بين الكائن الحي بصفة عامة والأرض كأحد مكونات الكون الرئيسية، يمكننا فهم هذا الافتراض بالعلاقة بين القلب والبيئة.

العلاقة بين الموجات الكهرومغناطيسية في جسم الكائن الحي والموجات في باطن الأرض والكون. من أجل فهم أكثر شمولاً للتأثيرات المتبادلة بين القلب في جوف الإنسان من جهة، والكون المحيط من جهة أخرى، كان لا بد من نظرة على العلاقة بين الموجات الكهرومغناطيسية في الجسم الكائن الحي وبين الموجات الكهرومغناطيسية للأرض، وبالتالي مع الكون أجمع.

إذا علمنا أن هناك بعض الكائنات الحية، مثل بعض السلاحف البحرية، والطيور، والفرشات، لها القدرة على استشعار المجال المغناطيسي للأرض، واستخدامه بحرفية رائعة

للتوجيه دون الاعتماد على الشمس خلال هجرتها؛ لاتضح لنا الكثير من العلاقة الوثيقة بين المجال الكهرومغناطيسي في أجسام الكائن الحي، والمجال الكهرومغناطيسي في باطن الأرض.

في دراسة قامت بها كلية الطب في ولاية ماساتشوستس الأمريكية على نوع من الفراشات يسمى الفراشات الملكية، وجدوا أن تلك الفراشات تسافر أكثر من 3000 كيلو متر، من أنحاء متفرقة من شرق الولايات المتحدة إلى بقعة محددة في المكسيك، وفي هجرة متكررة لأسلافها. تحدث هذه الهجرة بانتظام رغم أن كل جيل من الفراشات لم يسلك هذا الطريق من قبل، ولا يوجد ما يمكن اعتباره تقفي الأثر؛ لذا اقترح العلماء أن هناك برنامجاً وراثياً هو المسئول عن هذا التوجيه، مما يفسر سلوك هذه الفراشات؛ وقدرتها على استشعار المجال المغناطيسي للأرض.

توصل العلماء بالفعل إلى الجين الذي من خلاله يستطيع الكائن الحي استشعار المجال المغناطيسي للأرض، وأطلقوا عليه اسم كرايبتوكروم، وقد وجد العلماء أن هذا الجين موجود لدى جميع البشر، مما يثبت أن للإنسان القدرة على استشعار المجال المغناطيسي للأرض، واستشعار المجال المغناطيسي معناه بكل بساطة أن هناك ارتباطاً بين المجالين.

لقد ذهب علماء كثر إلى فرضية أن الكون جميعه متكيف ومتطابق ويسير في نظام تام الانسجام مع بعضه بعضاً؛ فيقول "كلود برنارد" الطبيب المشهور في كتابه مدخل لدراسة الطب التجريبي: "إن الكائن الحي لا يشكل استثناء من التناغم الطبيعي الكبير مع القوى الكونية، فهو يتكيف معها ولا يكسر التوافق، ولا يتناقض أبداً مع القوى الكونية، بل على العكس هو جزء من السيمفونية الكونية، وليست حياته إلا جزءاً من هذا التناغم".

أكد "باستور" نفس المعنى عندما قال إن جميع أشكال الحياة في بنيتها وشكلها واستعدادها وأنسجتها على علاقة وثيقة بحركة الكون. لقد أثبت العلم الحديث أنه لا يوجد شيء فوضوي أو عبثي، فكل ما في الطبيعة له دور معين بتقدير محسوب يؤديه متأثراً بما حوله ومؤثراً فيه؛

لتكتمل معزوفة الطبيعة الكونية، والإنسان جزء أصيل من هذا الكون يتفاعل مع مكونات الكون تفاعلاً نفسياً وبيولوجياً لا يمكن إهماله أو إغفاله.

إذا أردنا أن نضرب مثلاً واضحاً لتأثير مكون كوني على الإنسان، فلن نجد مثلاً أكثر وضوحاً من تأثير القمر، فقد درس "ليونارد رافيتز" طبيب علم النفس، تأثير تحولات القمر على المرضى النفسيين، فقد قام بقياس الجهد الكهربائي بين الرأس والصدر عند المرضى النفسيين. لاحظ رافيتز أن الفرق في الجهد يتبدل من يوم لآخر متوافقاً تماماً مع تحولات القمر وأطواره، وقد انتهى الباحث إلى أنه لا يوجد تأثير مباشر للقمر على سلوك الإنسان، ولكنه يستطيع عن طريق تغيير نسب الكهرومغناطيسية في الكون إحداث كوارث عند الأشخاص غير المتزنين. عرضت مجلة أمريكية عام 1972م في جامعة ميامي الأمريكية، وهي مجلة متخصصة في علم النفس، دراسة تستند إلى تجارب إحصائية تثبت أن للقمر دوراً في تحول المزاج لدى الإنسان المصاب باضطراب في السلوك، ودور القمر يشبه إلى حد كبير دوره في عملية المد والجزر التي يتسبب فيها في مياه البحار والمحيطات؛ إذ إن نسبة الماء في جسم الإنسان تقريباً تماثل نسبة الماء على الأرض، فيمكن الحديث هنا عن مد وجزر حيوي يحدث في جسم الإنسان عن طريق تأثير جاذبية القمر.

على الجانب الآخر توجد أبحاث معتبرة تحدثت عن تأثير الشمس على سلوك الإنسان، فقد درس عالم علم النفس الدنماركي دل، Dull حالات الانتحار ما بين عامي 1932 - 1971م في كلٍّ من كوبنهاجن، وزيورخ، وبرلين، وفرانكفورت، فوجد أن عدد حالات الانتحار قد زاد بشكلٍ واضحٍ مع زيادة النشاط الشمسي بشكلٍ مفاجئ، فقد ارتفعت نسبة الانتحار بمقدار 8 بالمائة في الأيام التي يزداد فيها النشاط الشمسي.

أرجع كثير من العلماء ذلك إلى وجود اضطرابات في الجهاز العصبي نتيجة للتغيرات الكهربائية التي أحدثتها التغيرات الشمسية. بنفس القدر أكد الدكتور "مارتيني" مجري الجنسية في دراسته التي شملت 2240 حالة انتحار ومحاولة انتحار عام 1964م، أن هناك علاقة وطيدة

بين حالات الانتحار وزيادة النشاط الشمسي، وقد أكدت الدراسة أن فرصة كون النتيجة محض صدفة يقل عن 1 بالمائة. وفي نفس السياق أجرى الباحث دراسة أخرى حول حوادث السير في بودابست بين عامي 1963-1964م وشملت الدراسة معلومات عن 5479 حادثة سير، وقد وجد أن العواصف الجيومغناطيسية المرتبطة بالشمس أدت إلى ارتفاع نسبة الحوادث بنسبة 101 بالمائة عن مثيلاتها في حالة غياب العواصف الجيومغناطيسية.

عزز دراسات دل ومارتيني بحث منشور في المجلة العلمية الأكثر شهرة، وهي مجلة النيتشر، Nature عن دراسة قام بها ثلاثة باحثين أمريكيين؛ لمحاولة فهم سلوك المرضى النفسيين، ومدى تأثيرها بالتحويلات الجيوفيزيائية ذات المنشأ الشمسي. اتخذت الدراسة معيار دخول المرضى النفسيين إلى المستشفيات نقطة البحث، بعد استبعاد وتحييد جميع العوامل التي قد تؤثر سلباً على الدراسة، مثل العوامل الاجتماعية والإدارية، وقاموا بدراسة 28642 حالة من تاريخ 1 يوليو 1957، وحتى 31 أكتوبر 1961م، وقد لاحظوا أن عدد دخول المرضى للمستشفيات يرتفع بشكل ملحوظ جداً في أيام العواصف المغناطيسية، مما يعتبر دليلاً واضحاً على العلاقة بين الاضطراب النفسي وشدة حقل الأرض المغناطيسي؛ فالأشياء تحدث كما لو أن الأنظمة التي تحكم سلوك الإنسان تتأثر بحقول قوى خارجية.

إذا كان الحقل المغناطيسي للبيئة المحيطة بالإنسان من شمس وقمر وأرض يؤثر في الإنسان، فإنه من البديهي أن يكون هناك تأثير متبادل، أي أن المجال المغناطيسي للإنسان يؤثر بدوره على الكون. عملية قياس وتتبع تأثير الكون على الإنسان عملية إلى حد ما ممكنة؛ على عكس من ذلك فإن قياس تأثير الإنسان على الكون أمر شديد الصعوبة؛ بسبب حجم الإنسان الضئيل للغاية مقارنة بالكون. لحسن الحظ هناك إشارات ودلائل على تأثير الإنسان في البيئة المحيطة حوله، نستطيع من خلالها إدراك قدرة وإمكانية تأثير المجال المغناطيسي للإنسان فيما حوله.

التأثير المادي للأفكار والنوايا

فكرة تأثير الإنسان في الأشياء المادية من حوله هي فكرة قديمة قدم وجود الإنسان على الأرض. تتمحور هذه الفكرة حول مدى قدرة أفكارنا، وحتى النوايا في التأثير الفيزيائي في الموجودات حولنا. الانتقال من فكرة أن البشر مجرد متلقين ومستقبلين في هذا الكون إلى مشاركين.. ومشاركين بقوة في إبداع هذا الكون.

استطاع كثير من العلماء في معاهد بحثية عديدة، مثل جامعة برستون التوصل إلى أن قدرة العقل على تحريك الأشياء المادية، التي يطلق عليها تليكنسيس Telekinesis وهي ظاهرة علمية يمكن قياسها وإخضاعها للتجارب.

مكّن التقدم العلمي المذهل المجتمع البحثي، وبفضل استخدام أجهزة على درجة عالية من التقدم، من البرهنة على أن الأفكار والنوايا يمكن أن تؤثر فيمن حولنا، سواء كان جماداً، أو كائنات حية، أو حتى يمكن للأفكار والنوايا أن تؤثر في عقول الآخرين.

هيلوت شميدت أحد فيزيائيّ شركة بيونج العالمية، الذي حاول التحقق من تأثير العقل والوعي الجمعي والنوايا على المحيط حولها، فقد قام باستخدام جهاز إلكتروني، يُمكنه من إلقاء قطعة نقود بطريقة عشوائية ليحصل على نتيجة من اثنتين، إما كتابة أو الوجه الآخر. فرص احتمال ظهور أحد الوجهين متساوية، إذا استمر الجهاز بالعمل وإلقاء قطعة النقود، فإنه بعد عدد كبير من الرميات سينتج عدد مرات الكتابة مساوياً تماماً لعدد مرات الوجه الآخر.

حتى يتمكن الباحث من معرفة مدى تأثير الوعي الجمعي أو العقل على المادة؛ طُلب من مجموعة من البشر التركيز في أحد الوجهين، وبعد أكثر من مليوني ونصف عملية امتدت لأكثر من 25 عاماً في جامعة برستون، استنتج الباحثون أنه بإمكان العقل البشري التأثير في الآلات، وفي الاتجاه الذي يرغب العقل في التأثير فيه.

تجربة أخرى أُجريت بواسطة عالم علم النفس "روجر نيلسون"، فقد قام بوضع 50 جهازاً محرّكاً عشوائياً، ومن ثم سمح لهذه الأجهزة بالعمل المستمر وفي أماكن مختلفة بالعالم. عند

فحص النتائج اكتشف نيلسون أخطر ما يمكن تصوره، وهو أن أي ردة فعل إنسانية عالمية، سواء الفرح أو الحزن، أو أي انفعال، يؤثر بشكل ملحوظ على النتائج؛ بما يعني أن الشعور النفسي له تأثير ملحوظ على المادة.

الملاحظ من خلال التجارب السابقة والمشاهدات المتعددة أنه لا يمكن للشعور أو الإحساس النفسي أن يؤثر في شيء مادي بدون اتصال حقيقي بينهما، ولعل نظرية الأوتار الفائقة التي ذكرتها في المقدمة يمكنها إلى حد ما تفسير هذا التأثير؛ إذ إنها تفرض شكلاً جديداً مغايراً للنسيج الكوني واتصال مكوناته، ويتلشى على حدود هذه النظرية المادي في اللامادي. تجربة أخرى تعزز فكرة تأثير الأفكار في العالم المادي حولنا، أجريت في جامعة برستون أيضاً بقيادة البروفيسور "روبرت جاهن" فقد قام بإجراء التجارب على قطعة النقود مرة أخرى باستخدام أشخاص ليس لديهم أي قدرات خاصة، في أماكن مختلفة وليسوا في نفس الغرفة، وليس هناك أي نوع من الوصلات الكهربائية على رؤوسهم؛ وقد أظهرت التجارب أنه بإمكانهم التأثير على النتائج بطريقة يصعب وصفها بالصدفة، إذ إن للصدف احتمال إحصائي معين، فإذا فاقت النتائج احتمال الصدفة لم يعد مقبولاً وصف النتائج بالصدفة.

المذهل حقاً في هذه التجارب تأثير الأفكار والنيات على الوسط المحيط، تلك النتائج التي توصل إليها الباحثون من أنه إذا استخدم أشخاص بينهم علاقة عاطفية (حب مثلاً) فإن التأثير يكون أقوى بكثير وبشكل ملحوظ؛ وقد دفعت هذه النتيجة أحد الباحثين، يدعى "دون"، إلى صياغة نظريته التي تقول "إن عقل الإنسان الواعي يخلق نوعاً من الصدى، يقلل من عشوائية الوسط المحيط".

إنه بالضبط ما فرضناه من أن الإنسان، سواء افترض الباحث أن عقل الإنسان هو المسؤول، أو ما افترضنا من أن العضو الفعال هو القلب ينتج نوعاً من الموجات تؤثر تأثيراً ملحوظاً في الوسط المحيط. لا نستبعد أبداً انتقال هذا التأثير لمكونات الكون وتأثر هذه المكونات بهذا التأثير بشكل ما، حتى إن كان التأثير صغير جداً. يظل الاحتمال قائماً بوجود

هذا التأثير، ولا يمكن تجاهله أو إنكاره. أما ماهية هذا النوع من التأثير سواء كونه سلبياً أو إيجابياً فهو ما يعتمد على مدى توافق أجهزة الإنسان، وما أعدت من أجله، ومدى توافق هذا السلوك مع الطبيعة من حوله، والذي يعتمد بشكل أساسي على برنامج الإعداد الأصلي في جسم الإنسان، والذي بفضلله يصبح منسجماً مع الطبيعة.

الجميع في حالة انسجام وتناغم مع بعضه البعض بشكل لا مثيل له، والإنسان جزء من هذه المنظومة، وهو الوحيد صاحب الإرادة الحرة؛ لذا عليه أن يجد الطريقة المثلى للانسجام مع باقي مكونات الكون.

لذا يبدو أن المهمة الأساسية لهذا الإنسان على الأرض هي محاولة الانسجام مع مكونات الكون والتناغم معها لتكتمل السيمفونية الكونية وتنتج أبداع ما يكون. يصبح هذا الانسجام وهذا التناغم أبداع ما يكون ويؤتي ثماره، عندما يكون صادراً عن إرادة حرة يصدقها القلب؛ بينما يصبح هذا التناغم هشاً للغاية وغير حقيقى إذا حدث عن طريق قهر الإنسان، وهو لن يحدث بسبب مخالفة القهر قانون الطبيعة.

ماذا يمكن أن نستفيد بالتحكم في الأفكار والنيات؟

النية هي عملية نفسية وعقلية تعكس رغبة صاحبها في فعل ما، وقد تكون هذه النية مصحوبة ببعض الشحنات العاطفية التي يمكن أن تؤثر في محيطها بشكل فيزيائي. قامت الباحثة لين مكاجارت المولودة عام 1951م في مدينة نيويورك بإجراء أكبر تجربة على الإطلاق لإثبات قدرة العقل البشري على التأثير الفيزيائي. شارك في هذه الدراسة علماء من جامعات بنسلفانيا، كاليفورنيا، أريزونا، سان بطرسبرغ والمؤسسة الدولية للبيوفيزياء. اعتمدت الدراسة على آلاف المتطوعين من 30 دولة حول العالم، فقد كان بالإمكان التسجيل في الموقع الإلكتروني الخاص بالدراسة، ليم بعد ذلك التواصل مع المشتركين، وإرسال التعليمات لهم أولاً بأول. كانت الدراسة تتمحور حول هل للعقل الجمعي تأثير فيزيائي ملموس إذا قام بالتركيز في أمر ما في نفس الوقت؟.

شملت الدراسة عدة تجارب، منها التأثير على نمو النباتات وتغيير الخصائص الجزئية للمياه، والكائنات الحية، وتنقية المياه الملوثة، وكذلك تجربة تخفيف مستويات العنف في منطقة ملتهبة (منطقة تعاني من الحروب).

لقد كانت التجارب مذهلة حقاً، ورغم أن بعض النتائج في بعض التجارب كانت غير كافية لإصدار حكم علمي، إلا أن تجارب أخرى كانت قاطعة ومذهلة. أهم ما يمكن استنتاجه من تلك التجارب هي نتيجة في غاية الأهمية، وهي أن حدود الزمان والمكان تكاد تتلاشى أمام قدرات وقوة العقل البشري.

في تجربة لإثبات تأثير العقل الجمعي أو النية الجمعية على زيادة الانبعاثات الضوئية لورقة نبات صغير، طُلب من المشاركين التركيز الذهني لجعل ورقة نبات تلمع ضوئياً، وقيس التغيير الحادث وكانت النتيجة حقاً مذهلة؛ فالورقة التي حصلت على التركيز الذهني كان معدل الانبعاث الضوئي لها قوياً لدرجة يمكن رؤيتها بوضوح، بعكس الأوراق الأخرى التي لم تلقَ نفس التركيز الذهني.

في محاولة لمعرفة تأثير النية في تحقيق السلام أجرت الباحثة تجربة كان هدفها تقليل معدل العنف في منطقة شمال سيريلانكا، فقد كانت وقتها تُعدُّ هذه المنطقة منطقة حروب مشتعلة؛ نتيجة لحرب أهلية استمرت هناك لمدة ما يقرب من 25 عاماً. شارك في التجربة عشرات الآلاف من المتطوعين من 65 دولة حول العالم، وكانت النتيجة كالتالي:

في الأسبوع الأول تصاعد العنف في المنطقة المستهدفة بشكل غير مسبوق، ثم انخفض بشكل سريع جداً وغير متوقع في الأسبوع التالي، ثم انتهى الصراع، ووقعت اتفاقية سلام دائمة في العام نفسه. برغم ذلك يقول الباحثون إننا بحاجة إلى مزيد من التجارب المماثلة، حتى نثبت صحة التجربة، وإن كان ما حدث في سيرلانكا لا يمكن اعتباره مصادفة، ويمكن اعتباره نتيجة لتجربة نوايا إحلال السلام. كل التغييرات السابقة إنما كانت عن طريق رغبة النفس

في فعل أمر ما رغبة صادقة أي بطريقة متعمدة ، فكل سلوك متعمد من الإنسان له إن صح التعبير؛ له كم مغناطيسي يتفاعل مع المحيط حوله لا ينطبق عليه حدود الزمان أو المكان. هذه الأفكار والنيات مصدرها القلب برغم تصميم التجربة على أساس قوى العقل البشري، ولكن بعض الإشارات الأخرى ترجح أن يكون المسئول عن هذه العمليات والنيات والصدق في النية هو القلب. القلب صمم من قبل خالقه ليكون منسجماً مع الطبيعة بأفكار ونيات وسلوك قويم، فإذا انحرفت النيات وشدَّ السلوك بدرجة كبيرة قد يؤدي ذلك لطمس القلب ، فيصبح معطلاً بالكامل لا يستقبل ولا يرسل، وبالتالي يختل لدى صاحبه ميزان المعرفة والصواب.

لماذا نرى أشخاصاً مقتنعين تماماً بوجهة نظرهم رغم أنها وجهة نظر تحمل كثيراً من

العدائية، وتبدو سيئة بشكل ملحوظ؟

لماذا يتشكل لدى الكثيرين قناعة أنهم على صواب رغم وجود شواهد عديدة أنهم في

المنطقة الخطأ؟ لماذا يعتقد الإنسان أفكاراً خاطئة، ويدافع عنها، وفي كثير من الأحيان يقاتل

من أجلها، بل ويفقد حياته ثمناً لها؟

لا أقصد أصحاب المصالح، ومن يسعون خلف مكاسبهم فهؤلاء نمط آخر لسنا معنيين به

في هذا الفصل؛ إنما المقصود هنا الإنسان الذي يعتقد ويصدق ذلك، ومطمئن لهذه الأفكار،

ولا يجد أي غضاضة في اعتناقها؛ بل يرى مخالفيه ضالين، ولا يرون الحقيقة.

إنها مرحلة خطيرة حقاً يظن الإنسان فيها نفسه على صواب، وهو في الحقيقة واقع في

الهاوية التي ليس لها قرار. للأسف مثل هذا المرض من أخطر الأمراض على الإطلاق، إذ

لا يعتقد صاحبه أنه مريض، بل يتباهي بسقمه أمام الجميع ظناً أنه يمتلك الحقيقة، وغيره لا

يملكون شيئاً. هذا المرض اللعين هو نتيجة طبيعية لما يسمى انقلاب القلب.

انقلاب القلب

القلب مصمم بشكل يجعله منسجماً مع الأفعال الخيرة، وينفر من الأفعال الشريرة بطبيعته، بحيث يضطرب إذا حدث عدم توافق مع الكون من حوله. عندما يسلك القلب سلوكاً متنسقاً مع الطبيعة ومع مكونات الكون يظهر تأثير هذا السلوك مباشرة على الإنسان، إذ يشعر بالارتياح والطمأنينة تغمر كل جوارحه، بينما عندما يسلك الإنسان سلوكاً منحرفاً بأي درجة كانت؛ يبدأ الشعور والإحساس بالتوتر وعدم الراحة والقلق. تلك المشاعر والأحاسيس المتفاوتة تكون أكبر ما يكون في البدايات، وتخفت هذه التأثيرات كلما تكرر الفعل.

شعور الراحة والطمأنينة يخبرك أنك متوافق مع الكون ومنسجم معه، بينما شعور القلق والتوتر يخبرك بالعكس، وأنت في حالة عداوة مع الكون ومكوناته. ما دام الإنسان يمتلك هذا الحس فهو بخير؛ لأن القلب بطبيعته يدفع الإنسان لتعديل سلوكه كلما انحرف السلوك به عن السلوك القويم. برغم أن هناك نظريات عديدة لتفسير السلوك القويم ومنشأه، وهل هو مرتبط بالبيئة والمجتمع، أم هو صادر عن نفس الإنسان ذاتها، إلا أننا هنا لن نقف على هذه الجزئية طويلاً ونؤكد أننا نعني بحدیثنا عن السلوك القويم مجموعة الركائز الأساسية للسلوك الفطري للإنسان، مثل الرحمة، والعطف، والصدق، دون تدخل أي تأثير خارجي، مثل المجتمع، والوسط المحيط، أو التعليم، أو معارف معينة على هذا السلوك.

يظل الإنسان بخير ما دام يمتلك شعور تأنيب الضمير بعد كل قول أو فعل غير سوي، ويظل سائراً في الطريق الصحيح كلما حاول جاهداً تكفير هذا السلوك غير السوي ورفضه من داخله. الكارثة هي اعتياد سلوك منحرف؛ مع كل مرة ينشأ فيها سلوك منحرف يضطرب القلب بشكل أضعف من سابقه، ومع استمرار الانحراف يخفت شيئاً فشيئاً اضطراب القلب حتى يصبح متألّفاً تماماً مع الانحراف.

في هذه الحالة نستطيع القول إنه حدث انقلاب في مجال القلب، أو بتعبير آخر حدث انعكاس في المجال القلبي، إذا أصبح الوضع في القلب مقلوباً ينسجم مع الانحراف وينفر من

الانسجام. هنا تكمن الخطورة بل الكارثة التي لا يدري عنها صاحبها شيئاً، لقد تهاون مرة بعد مرة حتى تعطل نظام التوجيه لديه، فأصبح فارغاً ليس لديه نظام توجيه يعصمه وينبئه من الوقوع في الزلل. إنه تماماً يشبه الطائرة دون نظام توجيه أو منطقة حساسة دون نظام رادار وإنذار. انقلاب القلب أخطر من مرض نقص المناعة الإيدز، وأشرس من أعتى الفيروسات؛ فهو تماماً يدمر إنسانيتك، ويختطف مصيرك، ويلقيك في المهالك وأنت تحسب أنك على الهدى، بل متيقن أنك مهتدٍ.

هذا النوع من الانقلاب لا يمكن فهمه إلا من خلال فهم مبدأ انقلاب الأرض.

انقلاب المجال المغناطيسي للأرض

انقلاب المجال المغناطيسي للأرض هو أن تتحول الاتجاهات وتنعكس، فيصبح الشمال جنوباً والجنوب شمالاً، ومن ثم تنقلب الاتجاهات رأساً على عقب. أما عن آثار هذا الانقلاب فلا توجد أبحاث كافية لتقدير حجم الكوارث ونوعها الذي يمكن أن يصيب الأرض وسكانها من جراء هذا الانقلاب، ومما لا شك فيه أن جميع الأجهزة، وخطوط نقل الإشارات والتيارات، لا بد أن تغير اتجاهاتها، ومن المعلوم علمياً أن المجال المغناطيسي للأرض قد عانى انقلاباً في اتجاهه، وكانت آخر تلك المرات قبل 786000 عام. يتوقع العلماء الذين قاموا بدراسة تلك الظاهرة من جامعات عريقة مثل جامعات كاليفورنيا وبركلي وكولومبيا بأن انقلاباً آخر سيحدث قريباً وخلال أقل من 100 عام.

بالقياس يمكننا فهم ماذا يمكن أن يعني انقلاب القلب؛ فالقلب له أيضاً مجالاً مغناطيسياً، هذا المجال منسجم تماماً مع الكون، والكرة الأرضية هي جزء من هذا الكون. تكرار السلوك المنحرف يحفز تغيير المجال المغناطيسي للقلب، ويستمر المجال المغناطيسي الطبيعي في محاولة إعادة الإنسان إلى مساره الطبيعي عن طريق الشعور بعدم الراحة والاضطراب النفسي، ولكن مع كثرة واستمرار السلوك المنحرف يحدث ما يمكن تسميته انقلاباً في المجال المغناطيسي، وعندها

يتغير كل شيء، ويصبح السلوك المنحرف هو السائد، والسلوك القويم هو الشاذ بالنسبة لهذا القلب.

وإذا حدث هذا التحول فلا رجاء من عودة هذا القلب لمساره الطبيعي، ويصبح نشازاً في سيمفونية الطبيعة. تأثير هذا القلب المنقلب أو المطموس على صاحبه تأثير ماحق، فلا فرص للنجاة ولا وقت لالتقاط الأنفاس والتفكير، بل كبر وعناد وتصورات مخالفة لكل أمر، مما يقلل بل ويعدم أي فرصة للعودة. إذا كان هذا القلب الشاذ له تأثير مدمر على صاحبه، فهو كذلك له تأثير على محيطه ليس بقليل؛ إذ القلوب تؤثر وتتأثر ببعضها بعضاً، وله تأثير أيضاً على المنظومة الكونية ككل.

قد ينتهي الأمر ويزول الخطر ربما بهلاك صاحب هذا القلب وتنتهي المشكلة، ولكن الطامة الكبرى تكمن في انتشار مثل هذه القلوب وزيادة عددها. إذا كثرت تلك القلوب الشاذة فإن تأثيرها بالتأكيد سيتعاضم. من ناحية أخرى سيصبح تأثيرها على القلوب حولها كبيراً، مما يسبب انحراف القلوب السليمة أيضاً عن طريق ما يسمى التأثير المستحث، الذي سيضعف عدد القلوب المنحرفة، وهكذا تخرف قلوب البشرية على شكل متواليات هندسية تتزايد بشكل مرعب، وكأنها عدوى فيروسية أو أشد. كلما زاد عدد القلوب النشاز، زادت فرصة الخلل في المنظومة الكونية ككل، مما قد يندرج بكوادر طبيعية بسبب ارتباط هذه القلوب بالنظام الكوني، وأي تغير في اتجاه مجال هذه القلوب بالتأكيد سيؤثر في تغيير اتجاه مجال الكون ككل، ومن ثم انهيار المنظومة الكونية.

الخواطر القرآنية

القلب في القرآن

قبل أن نبدأ في تتبع لفظ القلب دعونا نمر سريعاً على البرنامج الذي أعده الخالق، ووضعه في الإنسان وضبط القلب على تردده، وهو ما يسمى بالفطرة. الفطرة هي السلوك القويم المنسجم الذي أودعه الله مخلوقاته، وجعلها منسجمة تماماً مع كل ما حولها. من خلال التعبير الفيزيائي نستطيع أن نقول إن السلوك الإنساني على سطح الأرض إذا كان سلوكاً

فطرياً فإن الموجات الكهرومغناطيسية، التي هي ترجمة للسلوك البشري ومصدرها القلب تكون منسجمة تماماً مع الموجات الكهرومغناطيسية في محيطها.

المقصود بمحيطها هو الكون كله، فما نحن إلا جزء من هذا الكون، ونعمل من خلاله بقدر معين. إذا كان السلوك غير سوي فتردد وطول الموجات لهذا السلوك يكون غير متوافق مع المجال الكوني، ومن ثم يحدث ما يمكن أن نسميه زيغاً أو حيوداً أو خللاً.

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الروم الآية : 30).

الدين هنا هو "القانون الذي أودعه الله في النفوس بحيث يكون متوافقاً تماماً مع المنظومة الكونية، انظر الآية في سورة يوسف التي تتحدث عن دين الملك، وهو القانون الذي وضعه الملك، أو الدستور الذي يحكم العلاقة بين الملك والرعية.

(فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (سورة يوسف الآية : 76).

هذا القانون الإلهي أو البرنامج الإلهي هو المنوط به ضبط النفس مع محيطها، وتنبيه الإنسان في حالة الانحراف عن طريق الإحساس بالاضطراب، والتوتر وعدم الارتياح، وتعزيز انسجامه مع الكون ومحيطه في حالة الأفعال الخيرة، من خلال شعور بالارتياح والثقة والرضا.

الفرق بين القلب والفؤاد

كيف يشعر القلب وكيف يؤثر في محيطه ويتأثر به؟ دراسة الفرق بين القلب وبين الفؤاد من خلال كتاب الله، ومن خلال اللغة، هو ما يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن القلب يملك إحساساً ومجالاً، لا يمكن إنكاره، يشبه إلى حد كبير مجال البصر للعين، ومجال السمع في حالة الأذن. اقتصر وصف وتعريف الفؤاد في كتب التفسير على أنه القلب هو خطأ شائع. لا يمكن بحال من الأحوال أن نقول على عملية الإبصار هي العين، أو أن السمع هو

الأذن، فكذلك لا يمكن نعت القلب بالفؤاد، حيث ذكر الفؤاد معطوفاً على السمع والبصر وليس معطوفاً على العين والأذن كما في الآيات التالية:

(لَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا) (سورة الإسراء الآية : 36).

(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة النحل الآية : 78).

(وَلَقَدْ مَكَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّاهُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (سورة الأحقاف الآية : 26).

(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (سورة الملك الآية : 78).

فكما السمع هو مجال الأذن والبصر هو مجال العين؛ بالقياس يصبح الفؤاد هو مجال القلب. فإذا كانت العين تبصر والأذن تسمع فكذلك القلب يفقه، كما ورد ذكره في الآية التالية:

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (سورة الأعراف الآية : 179).

الفقه في اللغة هو إدراك الشيء، ولو تتبعنا لفظة يفقه في القرآن، نجد أنها تشير إلى معنى إدراك حقيقة الأشياء والتميز بينها. كيف يمكن للقلب أن يفقه أي يدرك الأشياء ويميز بينها، إلا إذا كان لديه برنامج يستطيع من خلاله القياس والمقارنة. عملية التمييز هذه أو القياس

والمقارنة يلزمها نسخة أصلية يستطيع من خلالها القلب قياس الأشياء عليها، وهذه النسخة أو هذا البرنامج، على ما يبدو، هو الفطرة التي فطر الله الناس عليها.

من خلال الفطرة يستطيع القلب مقارنة ما يطرأ على الإنسان من أحداث ومن ثم تقرير ما إذا كان هذا الحدث متسقاً مع هذا البرنامج أو منحرفاً عنه، ويظهر هذا التفاعل في صورة اضطراب في حالة السلوك المنحرف، وانسجام في حالة السلوك القويم.

يجري على القلب ما يجري على الحواس الأخرى؛ إذ يمكن للقلب أن يفقد مجاله؛ وهو الفؤاد، أو يحدث لهذا الفؤاد اضطراب ما. نلاحظ من خلال آيات الذكر الحكيم أنه إذا انقطع السمع صار الإنسان أصماً، وإذا انقطع الإبصار صار الإنسان أعمى، أما إذا انقطع اتصال القلب بما حوله صار الفؤاد فارغاً، كما في حالة أم موسى عندما فقدت وليدها.

(وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَّنَا عَلَيَّ قَلْبًا لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة القصص الآية : 10).

إذا كان السمع هو القدرة على الإحساس بالموجات الصوتية، والبصر هو القدرة على الإحساس بالموجات الضوئية، فكذلك الفؤاد هو القدرة على الإحساس بالموجات الكهرومغناطيسية، المسئولة عن المشاعر والأحاسيس؛ ولو لاحظنا كلمة فارغاً المذكورة في الآية الكريمة، وأصلها كما في قاموس اللغة (خلو) وسعة. لو تتبعنا الكلمة في كتاب الله نجد أنها تشير إلى خلوشية، وهو انتقال ما يحويه هذا الشيء إلى موضع آخر، فالفؤاد وكأنه مركز الشحنات الكهرومغناطيسية، والتي عن طريق هذه الشحنات يؤثر ويتأثر بغيره، فلما حدثت المصيبة العظيمة لأم موسى بفقد ولدها وإلقائه في اليم بيدها، فكأنما انقطع الفؤاد وأصبح فارغاً، أي تحولت تلك الشحنات عنه وأصبح معطلاً.

لعل هذا يفسر لنا لماذا يصير لدى كثير من أصحاب المصائب العظيمة تبدل في الشعور، وعدم استجابتهم لما يدور حولهم أو تأثرهم به، ربما حدث ذلك بسبب فراغ الفؤاد فينقطع التواصل. قد نكون بهذا التقديم البسيط قدمنا للحاسة السادسة لدى الإنسان من خلال كتاب

الله وهي الفؤاد. مدلول القلب عن طريق تتبع كلمة القلب في كتاب الله، وعن طريق فهم جذر كلمة قلب في اللغة؛ ندرك من الوهلة الأولى أن هذا العضو المهم ليس مجرد تجويف عضلي، وإنما مركز مهم، بل بالغ الأهمية في جسم الإنسان، فهو مسئول بدرجة كبيرة عن السلوك والإحساس والشعور. في اللغة الجذر الثنائي لفعل قلب القاف واللام لها أصلان: الأول نزارة الشيء، والثاني يدل على عدم الاستقرار أو الانزعاج.

أما كلمة قلب (الجذر الثنائي مضافاً إليه حرف الباء) فله أصلان أيضاً، الأول هو خالص الشيء وشريفه، والثاني هو رد شيء من جهة إلى جهة أخرى (شيء متحول). أعتقد أن الأصلين متكاملان يعطيان معنى واضحاً لكلمة القلب، فالأصل الأول يوحي ببقاء المسمى وإعداده بطريقة مثالية للقيام بمهامه، والأصل الثاني يوحي بسهولة تحول وتغيير هذا المسمى من جهة إلى جهة أخرى. نستطيع من اللغة فقط أن ندرك حساسية هذا العضو وأهمية بقائه نقياً خالصاً من الشوائب ليستطيع القيام بوظيفته دون خلل.

في كتاب الله، ورد ذكر القلب بصيغة المفرد في عشرين موضعاً، وفي موضع واحد بصيغة المثني، وبصيغة الجمع في 112 موضعاً، ولن نسرد كل الآيات التي ورد فيها ذكر القلب، وإنما سنكتفي ببعض الأمثلة تجنباً للإطالة:

أولاً: مجموعة من الآيات تشير إلى أن القلب مركز الذاكرة والإدراك

الآيات الكريمة التي أشارت إلى أن القلب هو مركز الذاكرة والإدراك لا تحتاج إلى بيان، فهي واضحة بما يكفي وتُخبر عن نفسها.

(إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) (سورة ق الآية :

37).

(قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى

وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)) (سورة البقرة الآية : 97).

(أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمد الآية : 24).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا

تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (سورة الحج الآية : 46).

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ) (سورة

الأعراف الآية : 179).

(وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا

وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (سورة

البقرة الآية 93).

(وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا

لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ

بِمَا يَكْتُمُونَ) (سورة آل عمران الآية : 167).

ثانياً: آيات تشير إلى مرحلة الطبع أو الختم على القلب

هذه المجموعة من الآيات تشير إلى ما أطلقت عليه مرحلة انقلاب القلب، وهي أخطر

مرحلة؛ إذ لا ينفع مع صاحبها تقويم أو علاج. عند الوصول لهذه المرحلة يكون الإنسان قد

استنفد عدد مرات الرسوب السلوكي، و ينطفئ في قلبه النور المتمثل في مراكز الإحساس،

فلا استقبال ولا إرسال مع الكون من حوله، فيكون سيره على غير هدى ولا دليل (لا

يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً).

في هذه الحالة لا يملك القلب القدرة على التفريق بين السلوك القويم والسلوك غير

القويم، ويصبح التشويش والارتباك هو السمة السائدة، والنمط المسيطر على حياة هذا الشخص.

الخطورة تكمن في أن مثل هذه الحالة عندما تنطمس لديها مراكز الإحساس؛ فلا يجد ما

يعرف بوخز الضمير أو القلق والتوتر عند فعل سلوك منحرف، بل يصير الفعل مستساغاً ومقبولاً، مما يحفزها على المزيد.

هناك خطورة أخرى تضاف إلى انطماس مراكز الإحساس في القلب إذا كان لدى صاحب هذا القلب، ما بين قوسين، علم أو معرفة معينة، أو ذا رأي بين العامة، هنا تكمن المصيبة عندما يفتي القوم بفتاوى توافق الهوى أو المصلحة دون أن يرمش له جفن، بل في الأغلب يكون قلبه مستقراً ومطمئناً، لكنه الاستقرار والاطمئنان في الاتجاه العكسي، وهذه هي مرحلة الطبع على القلب.

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ) (سورة غافر : الآية 35).

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (سورة الجاثية الآية : 23).

(كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) (سورة الروم الآية : 59).

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ) (سورة الحج الآية : 46).

(ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ) (سورة يونس الآية : 74).

(تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ) (سورة الأعراف الآية : 101).

(خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة البقرة الآية : 7).

ثالثاً: آيات تشير إلى أن القلب محل الإحساس والشعور

سنعرض الآيات الكريمة التي تناولت المشاعر والأحاسيس المختلفة والتي محلها القلب، مثال شعور الخوف أو الطمأنينة أو العداوة، وكذلك تصرفات وسلوك، مثل كتم الشهادة، والكذب وشهادة الزور، أو الغش، وكلها أنواع وأشكال مختلفة من ظلم الغير، تصدر عن طريق خلل في نظام القلب.

(وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) (سورة البقرة الآية : 204).

لنا هنا وقفة مع كلمة ألد، أصل الكلمة لد ولها أصلان، أولهما الخصام، والثاني يدل على ناحية وجانب؛ ويقال تلدد أو التفت يميناً ويساراً متحيراً. في التفسير يقول مجاهد عن (ألد) طالب لا يستقيم؛ أما السدي فيقول معناه أعوج الخصام.

المعنى الأقرب لكلمة ألد هو أعوج، وهذا يشير إلى أن الخصام في حد ذاته له وجهان، أحدهما معتدل، والآخر معوج. المعتدل من الخصام هو ما كان موافقاً للفطرة وموجهاً ضد السلوك السيئ، وغالباً ما يكون هذا الخصام موجهاً فقط لنوع واحد من السلوك المنحرف. أما الخصام المعوج فهو الخصام من أجل سلوك قويم، وغالباً ما يكون هذا الخصام معوجاً بسبب تداخل أحاسيس أخرى، مثل الحقد، والحسد، والكذب. الخصام المعتدل يزول بزوال المسبب، وهو السلوك المنشئ لهذا الخصام بعكس الخصام المعوج، فحتى بإزالة المسبب يبقى الخصام حسداً وحقداً.

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة البقرة الآية : 260).

(وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ) (سورة البقرة الآية : 283).

آثم في اللغة تعني البطء والتأخر عن المعدل الطبيعي؛ هذا التأخر لا شك أنه مرضٌ يصيب القلوب. ما دام أن القلب يتأثر ويؤثر في محيطه فلا بد أن يكون للقلب في وضعه الطبيعي رد فعل مناسب تجاه ما يحدث أمام وحول الإنسان. كتمان الشهادة وتأخيرها وحجزها والإبطاء بها يُعوِّد القلب على التأخير والإبطاء في رد الفعل؛ حتى يصبح التبلد والتأخر هو سمة من سمات هذا القلب السقيم، إنه الجزء المرتبط بالعمل.

من تأخر في قول الحق وكتم شهادة وظل يقنع نفسه بالتريث في وقت لا مكان فيه للتريث، هو في الحقيقة يُتلف فطرته السليمة، ويتسبب في انتكاستها. تكرار هذه العملية يسرع عملية انقلاب القلب، وتصبح مسألة طبعه أو ختمه مسألة وقت لا أكثر. فما تظنه هيناً ولا تلقى له بالأل لربما فعل بك الأفاعيل، وغير تصميم القلب الفطري وأنت لا تشعر؛ مجرد كتم كلمة كان يجب أن تقال أو قول ما لا يجب قوله مخالفة للفطرة، يمكن أن يكون له تأثير متناهي العظم على حياتك شخصياً، وعلى الكون من جهة أخرى.

يظل الإنسان في الوضع الآمن ما دام يشعر برفض كل مشهد أو سلوك منحرف ولا يبرر طغيان الباطل. من وقع في براثن التبرير محاولاً إرضاء نفسه حتى تستسيغ الواقع الذي ترفضه الفطرة، هو بذلك يهلك نفسه دون أن يدري؛ لو تعود القلب على رذيلة واحدة، ولم يعد ينكرها فستحيط هذه الرذيلة بقلب صاحبها حتى تهلكه.

(بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (سورة البقرة الآية : 81).

(سَنَلِّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ) (سورة آل عمران الآية : 151).

تعالوا نتعرف لماذا يصيب الرعب القلوب المشركة بشكل فيزيائي. كل إنسان كما قلنا قلبه منسجم تماماً مع ما أُعدَّ من أجله، وبوصلة هذا القلب متجهة لخالقها، فإذا أشرك الإنسان مع خالقه أحداً غيره، سواء كان سلطاناً، أو جاهاً، أو مالاً، أو أي نوع من أنواع الأوثان؛ فهنا تحتل البوصلة ويتعلق القلب بهؤلاء الشركاء.

لماذا يصيب القلب الرعب نتيجة للإشراك؟

تعلق القلب بالخالق يضمن له الثبات؛ لأن الخالق سبحانه لا يتغير ولا يتبدل مما يعزز استقرار هذا القلب؛ على العكس من ذلك الشركاء سواء كانوا سلطة أو جاهاً أو مالاً، فكل هؤلاء الشركاء متغيرين وغير مستقرين، أي مذبحين، وهذه طبيعة كل شيء ما عدا الله سبحانه وتعالى. هذه الطبيعة المتغيرة و المتذبذبة لا بد لها أن تنتقل للقلب المتعلق بها فيصير القلب تبعاً لذلك مضطرباً ومرتبكاً.

الرعب في حقيقته اضطراب وتشوش يصيب القلب. الحل كما يخبر ربنا هو التخلص من كل الشركاء، والإبقاء فقط على الاتصال بين القلب وبين خالقه، لأنه هو الوحيد القادر على ضبط هذا الجهاز وتوجيهه بطريقة صحيحة.

وصف الله سبحانه وتعالى للعباد الذين لا يمكن للشيطان غوايتهم بالخلصين؛ إذ خلصوا قلوبهم من التعلق بغير الله، فلا يمكن لأحد تشويش أو إزعاج أو التأثير على هذه القلوب، إنه أبلغ وصف يمكن أن يصف تلك القلوب التي تخلصت من كل ما هو دون الله، فلا يمكن أن يصيبها الرعب أو الاضطراب، وإنما سكينه وطمأنينة بسبب طريقة اتصالها الصحيح.

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْتَمَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (سورة الزمر الآية : 45).

لنحاول فهم كلمة اشمأزت في هذه الآية الكريمة من خلال جذر الكلمة؛ أصل الكلمة شمز، كما في قاموس اللغة، ومعناها الانقباض أو اجتماع الشيء بعضه إلى بعض. ذلك يعني أنه كلما حاول القلب المنتكس توجيهه مجاله نحو خالقه ليعود الانسجام مرة أخرى، حدث الانقباض والتنافر؛ لأن قلوب الذين لا يؤمنون توافقت تماماً في عكس اتجاه الفطرة، فكل محاولة لإعادتها من حالتها المستقرة تلك تواجه بالاشمئزاز. الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر انقطعت صلتهم بربهم، فأصبحت قلوبهم مستقرة بعيداً عن فطرة الخالق، وأي محاولة لتوجيه القلب نحو خالقه مرة أخرى تلاقي مقاومة كبيرة لتغيير حالة الاستقرار هذه، برغم أنها حالة غير صحيحة.

قانون الطبيعة واحد، فكل الأشياء تميل للبقاء في الحالة المستقرة وتقاوم تغيير هذه الحالة بغض النظر عن نوع الاستقرار، هل هو استقرار على الوضع الصحيح أم استقرار على الوضع الخاطئ. مثال حالة القوس فكلمها حاولت تعديل وضعه، قاوم القوس هذا الوضع وعاد لوضعه الطبيعي، فالوضع المستقر هو بالنسبة للقوس هو الوضع الموعج، لكي يؤدي وظيفته وأي محاولة لتقويمه هي محاولة ستفقدته وظيفته.

في حالة القلب المستقر على الفطرة السليمة فإنه يحاول دائماً العودة للفطرة، عندما يحدث له انحراف (الوضع المستقر له هو وضع الفطرة السليمة) بينما القلب المطبوع أو المنقلب عن فطرته، كلما خالطته حالة يمكن أن تعيده لفطرته الأصلية، يشمئز منها وينفر، ويطمئن لوضعه المستقر على الانحراف. لذلك حذر ربنا من الاستهانة بالمعاصي وتكرارها، ففي الاستهانة والتكرار تخفيف خطير للقلب أن ينقلب ويألف الوضع الشاذ، وبالتالي سيقاوم أي تغيير لإعادته للوضع الصحيح.

(ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ) (سورة الحديد الآية : 27).

الرافة والرحمة والرهانية كلها مشاعر وأحاسيس جعلها الله في القلب، تُرجم إلى سلوك وتصرف يقوم به الإنسان. كلمة ابتدعوها وتعبير ما كتبناها عليهم توحى بأن الرافعة والرحمة من ضمن ما كتب الله على القلوب، ومن ضمن البرنامج الأصلي للقلوب، بعكس الرهبانية التي هي نتاج بشري خالص.

القلوب صممت على الرحمة والرافة، وتدرك هذا المفهوم بسهولة ويسر دون أي عناء؛ أما الرهبانية فهي ليست من الفطرة، وإنما هي سلوك وتصرف بغرض التقرب إلى الله، والرهانية هنا مع أنها سلوك ليس فطرياً إلا أن المداومة عليه جعلته يتنقل لبرنامج القلب، ويصبح ملازماً له مثله في ذلك مثل أي سلوك يعتاده القلب.

هنا يجب الحذر من محاولة مجاهدة النفس وجعلها تنتهج سلوكاً، حتى وإن كان يبدو طيباً مراده الخير، لم يقرره الله؛ لأن هذا السلوك يتطلب إعداداً خاصاً وجهداً إضافياً حتى يتعوده القلب ويصبح من ضمن برنامجه.

بشكل علمي أي زيادة أو نقص في منظومة مغلقة يتبعها مراجعة شاملة لهذه المنظومة، وهذه الزيادة أو النقص يؤثر بقدر ما في باقي المنظومة؛ لذلك نجد أن الرهبانية التي ابتدعها بعض الناس للتقرب إلى الله احتاجت، لكي تنضم للسلوك الفطري المجهز سابقاً في القلب، إلى مجهود حتى تصبح جزءاً من السلوك الفطري، فبالتالي أي خلل في هذا السلوك، أقصد سلوك الرهبانية، وعدم القيام به بطريقة صحيحة، سيؤثر بالسلب على باقي السلوك الفطري؛ ومن ثم يصيب الخلل نظام التوجيه في القلب ككل. ولذلك يكون التحذير شديد جداً في الابتداع أو محاولة إجهاد القلب في سلوك ليس فطرياً؛ لأن هذا السلوك إذا صار مكسباً للقلب، فإن أي خلل في هذا السلوك التطوعي أو عدم القيام به بشكل سليم وصحيح، ينشأ عنه خلل في باقي السلوك الفطري.

من هنا يمكننا أن ندرك لماذا القرآن الكريم دائماً يحث الناس على الاعتدال، وعدم التطرف، أو محاولة الابتداع، فالسير خلف الفطرة وضبطها نحو خالقها هي الطريقة الوحيدة

الضامنة لانسجام القلب مع الكون وتوجيهه السليم للفرد. الآيات التالية مليئة بالتعبيرات القرآنية الدالة على احتواء القلب على مجموعة من المشاعر والأحاسيس المختلفة.

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (سورة آل عمران الآية : 126).

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُرَىٰ لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة آل عمران الآية : 156).

(قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ) (سورة المائدة الآية : 113).

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) (سورة الأنفال الآية : 2).

(وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (سورة الأنفال الآية : 10).

(وَيَذْهَبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (سورة التوبة الآية : 15).

الطمأنينة والحسرة والوجل والغیظ كلها أحاسيس وشعور، محلها القلوب، والآيات تطول وتحتاج لتفصيل، وتؤكد أن القلب محل الشعور والأحاسيس. الشعور والأحاسيس ما هي إلا صدى للسلوك البشري فسلوك الكذب يورث القلب توترًا وقلقًا، والغيرة والحقد والحسد ما هي إلا تفاعلات نفسية معينة تُترجم إلى تصرفات وسلوك. الآن يمكننا تلخيص تفاعل القلب مع البيئة المحيطة كما يلي:

عند تعمد سلوك خاطئ، مثل الكذب، فإن القلب يبتث ذبذبات هذا السلوك للوسط المحيط؛ لأن هذه الذبذبات غير متوافقة مع الطبيعة فتعاني جهداً معيناً ما يلبث أن يرتد إلى القلب مرة أخرى ليشعر القلب بعدم الراحة، فكما قلنا إن القلب يعمل كجهاز إرسال واستقبال؛ إذ جميع المقادير الفيزيائية مصنفة كأزواج، فما يبثه القلب في الوسط المحيط ما يلبث أن يعود إليه، إما بتوافق أو بتنافر. لكي يؤثر السلوك أو التصرف في محيطه فلا بد أن يكون نابغاً من داخل الإنسان، أي متعمداً ومقصوداً. السلوك المتعمد والمقصود يكون له صدى داخل القلب، وله تردد يصدره القلب، يتفاعل مع البيئة المحيطة. السلوك الناتج عن الخطأ أو النسيان وغير متعمد لا يدخل ضمن هذه المنظومة، ولا يؤثر في محيطه بسبب غياب الحاجة الداخلية. (ادعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) (سورة الأحزاب الآية : 5).

في الآية الكريمة إشارة واضحة للفرق بين الخطأ، الذي هو نتيجة لتصرف غير مقصود لم تعقد النية عليه، وبين تصرف متعمد، معقود النية ومقصود. التصرف الخطأ هو تصرف أو سلوك لم يعد في مركز التوجيه وهو القلب، لا يترتب عليه تغير في ترددات القلب؛ بخلاف الفعل المتعمد والمقصود، فهو فعل متبوع بذبذبات وتردد معين، إما موافق أو غير موافق. لذلك إنما الأفعال معقودة بالنيات، فكل فعل صادر عن إرادة وعزم حقيقي هو الفعل ذو التأثير الحقيقي الذي يجب أن يأخذ في الحسبان.

(مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة النحل الآية : 106).

هنا أيضاً في الآية الكريمة تقرير بأنه لا ضير في الإكراه، ما دام أن القلب رافض لهذا الإكراه ومطمئن لفطرته، ولكن المشكلة الحقيقية تكمن إذا تهاون هذا المكره مع الفعل ولم

ينكره بقلبه، وحاول إقناع نفسه بسلامة الخطأ ومعقوليته. في هذه الحالة يخالط الكفر ما في قلبه من إيمان فيفسده. أي محاولة لتبرير الظلم والكفر حتى يقبلها القلب هي محاولة كارثية مدمرة لنظام التوجيه في القلب، يتبعها الانحراف الذي حذر الله منه ويستحق صاحبه غضباً من الله.

هل هناك علامة على غضب الله أكثر من تحول القلب من فطرته وطمأنينته إلى التعايش مع الكفر ومحاولة تقبله، الكفر هنا هو طمس الحق وتغطيته؛ ولعل هنا تحذير للإنسان المؤمن المطمئن إلى عدم الركون أو البقاء في أماكن ومناطق يكون فيها احتمالية الرضوخ للباطل قائمة، فإن كان مضطراً في البداية ولا شيء عليه، إلا أنه مع الوقت قد تبدأ مرحلة شرح الصدر ومحاولة تقبل وتبرير هذا الكفر، فيتغير القلب دون أن يدري، ويصبح مستحقاً لعذاب الله وغضبه.

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة التغابن الآية : 11).

هذه الآية الكريمة تلخص كل ما يمكن قوله في أن القلب مصدر السلوك الإنساني، وإذا اختل هذا السلوك يمكن أن يسبب خللاً في البيئة المحيطة، ومن ثم ينتج عنه كوارث ومصائب. في الآية السابقة يقول الله عز وجل (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ) هذا لا يمكن بحال من الأحوال أن يناقض أن المصائب من عند أنفسنا، ولكنها بإذن الله أي بعلم الله وقوانينه وأسبابه. يتضح هذا المعنى إذا أكملت الآية (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ) فمن يؤمن بالله فعلٌ نتيجته من المفترض الوقاية من المصائب، ولكن الآية لم تذكر أن من يؤمن بالله يمنع عنه المصائب، بل ذكرت أن من يؤمن بالله (يَهْدِ قَلْبَهُ).

هداية القلب تعود بالقلب لوضعه الطبيعي، وبالتالي تمنع انحرافه وتعيده إلى الاتساق مع الكون، وبالتالي تمنع حلول الكوارث والمصائب التي يكون انحراف السلوك سبباً مباشراً فيها.

تختم الآية بقول الله سبحانه (وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) لفظ عليم يوحي لك أن مسألة الوقاية من المصائب عن طريق هداية القلب فيه من العلم ما فيه، ولعله إثارة لعقولنا للبحث والتنقيب. إنها إشارة لكل منكر كيف يمكن لهداية القلب أن تقي من المصائب، وأن ينتهج العلم منهجاً في فهم هذا الارتباط بين القلب والمصائب.

الكون سيمفونية بليغة الألحان قائم عليها خالق عظيم، ومن بديع هذه السيمفونية أنها منسجمة تماماً مع بعضها بعضاً، لا شذوذ ولا انحراف فيها، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون الفرضيات التي نفرضها في تعارض مع قدرة الله وعلمه. إن من يفترضون هذا التعارض إنما يعتقدونه بحسب تصورهم القاصر عن الخالق، ويحاولون الدفاع عن قدرة الله المطلقة غير المرتبطة بالقوانين، لأن عقولهم ترتاح لذلك. أما التفكير والتدبر فهو عملية مجهددة ومحفوفة المخاطر وغير آمنة على الإطلاق، وتثير كثيراً من الشكوك، خاصة إذا كان المتدبر غير مؤهل للخوض في مثل هذه الأمور.

إن تمام القدرة في تصورنا أن يكون فيها كل سلوك وكل حركة وكل طرفة عين بقدر وبسبب وبقانون وتناسق وتوافق، من خلال منظومة متكاملة تدل وتشير إلى الوحدانية. إنها يد الله التي تعمل من خلال العلم المحيط والقدرة اللانهائية المطلقة. يبدو أن الإنسان أعدّ لتولي مهمة الإشراف على هذه السيمفونية الكونية والعمل معها ومن خلالها في انسجام تام فيما، يعرف بمفهوم العبودية، التي لا تعني أبداً الخضوع والاستسلام (انظر الجزء الثالث) وإنما تعني العمل بمسئولية كاملة عن سلوك وتصرفات نفسه ومن حوله.

الآثار المدمرة للسلوك المنحرف

مما لا شك فيه أن سلوكاً منحرفاً لا ينسجم مع الكون سيسبب اضطراباً في المنظومة الكونية ككل. يبقى تأثير هذا السلوك صغير جداً أو مهملاً، إذا كان سلوكاً فردياً غير قادر على تغيير في النظام الكوني. إذا حدث وزادت أعداد المنحرفين فهذا نذير بزيادة مقدار الاضطراب والتشوش الذي ينتقل إلى المنظومة الكونية. هنا تتجلى نظرية التكافل والتكامل

في أسمى معانيها؛ وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. العلم يوفر وجهة نظر مقبولة عن فكرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عن تلك الفكرة التي تقوم على فرض الوصاية والإجبار. الكون يشبه السفينة الحقيقة التي تبحر في محيط لا نهائي، كل إنسان لديه مهمة محددة على هذه السفينة تتكامل مع الآخرين وتتوافق معهم؛ إذ تصبح المحصلة النهائية سير السفينة بشكل صحيح دون أي اضطراب. فإذا قام أحد ركاب السفينة بعمل مخالف من شأنه التأثير على سير السفينة، حتى وإن كان فعلاً صغيراً، هنا يجب توعيته بمخاطر هذا الفعل بشكل علمي صحيح، وتوضيح كيف يمكن لسلوكه أن يكون سلوكاً مدمراً وكارثياً على الآخرين.

فرض الوصاية بدون علم ستزيد من حدة التوتر وتؤدي للتضامن مع المخرب؛ لأن النفس البشرية ترفض التجبر والتسلط والوصاية. رفض السلطوية من ضمن البرنامج الإلهي والفترة السليمة. قد تؤدي الوصاية في بعض المجتمعات إلى نتائج إيجابية في الشكل الخارجي، ولكن على المستوى المادي لن تجلب إلا الخراب والدمار؛ خصوصاً إذا علمنا أن عملية إبحار السفينة في المحيط الكوني تعتمد على نوعين من القوى والترتيبات:

القوى الأولى هي القوى المرئية أو المادية، مثل صيانة المحرك، وعوامل التشغيل السليمة؛ والقوة الثانية هي الحاجة الداخلية للسير والإصلاح، وهي قوى غير مرئية وغير مادية.

مجاهة السلوك المنحرف دون وعي حقيقي بخطورته على المنظومة الكونية، ومن خلال منظومة دينية غير مفهومة تقوم على الوصاية والتسلط، ستزيد من أعداد المنحرفين والقابلين للانحراف بحجة مجابهة التسلط ورفض الجبرية. هنا تكمن الكارثة الحقيقية؛ حتى إذا زاد عدد أصحاب السلوك المنحرف إلى الحد الذي يستطيع أن يسبب تشوهاً ملحوظاً في المنظومة الكونية، عند هذه النقطة تبدأ هذه المنظومة في التفسخ والانهيار شيئاً فشيئاً؛ حتى إذا وصلت إلى نقطة الالعودة، يصبح أمر انهيار النظام الكلي هو مسألة وقت لا أكثر.

الهدف الرئيسي للشرائع السماوية، هو العودة بالإنسان إلى فطرته السليمة، والحد قدر الإمكان من الشذوذ؛ لأن الشذوذ في السلوك هو السبب الرئيسي في اضطراب القلب، وبالتالي المجال المحيط به مما يتسبب في خلخلة الانسجام الكوني.

القصص القرآني

القصص القرآني العظيم الذي يخبرنا عن المجتمعات الكاملة التي هلكت بسبب شذوذهم، هي مثال واضح لما يمكن أن يحدث إذا استفحل السلوك السيئ وساد عوضاً عن السلوك القويم. ليست قصصاً تروى هكذا، وإنما إشارات تتكامل مع أحسن الحديث وأصدق الأقوال في كتاب الله. بحث القصص القرآني يمنحنا فرصة جيدة لتطبيق النظريات المعرفية التي تحصلنا عليها، والتي تقضي بتأثير السلوك الإنساني على النظام الكوني، وكيف يمكن أن يختل النظام عن طريق فعل الإنسان المنحرف.

هذه المجتمعات عندما انحرفت بسلوكها عن الفطرة صارت أغلب قلوب أصحابها منتكسة غير متوافقة مع محيطها. هذا الانتكاس في الفطرة مثل عبثاً على الكون لما يحمله من تنافر واختلاف وعدم انسجام. لقد استطاعت هذه التجمعات بتكلفتها خلف الخطيئة أن تصنع ما يسمى بالكلمة الحرجة، وهي الكلمة القادرة على إحداث التغيير. لأن الكون جميعه في انسجام، والنسيج الكوني ملتف على بعضه فلا يمكن استبعاد أن اضطراباً ناتجاً عن تجمعات بشرية في بقعة مركزة، مثل المجتمعات التي ذكرها ربنا بالقرى قد يكون أحد أسباب الكوارث الطبيعية، مثل الطوفان، أو الصاعقة، أو الصيحة، أو ريح صرصرٍ عاتية.

من الأشياء اللافتة للنظر، والتي يخبرنا عنها القصص القرآني، هو أن أغلب الهلاك والدمار قد أصاب أهل القرى، والتي من المعروف أن أصحاب القرى يتميزون بالاجتماع، ويغلب عليهم المنهج الواحد والنمط الواحد على عكس أهل المدن الذين يتميزون بكونهم أخلاطاً.

الفرق بين القرية والمدينة في كتاب الله

لقد صال وجال كثير من المعاصرين في بيان الفرق بين مدلول القرية والمدينة، ولكن لا بأس من التعرّيج على هذا المفهوم من خلال فهمنا لحالة القلب وتأثيره في محيطه. كلمة قرية في اللغة مشتقة من القاف والراء وحرف العلة، وله أصل واحد كما جاء في قاموس اللغة، وهو جمع أو اجتماع، ومن ذلك سميت القرية قرية لاجتماع الناس فيها، وغالباً ما يجتمع

فيها الناس بسبب العرق الواحد، أو الطائفة الواحدة، وبالتالي يكون من السهل اجتماعهم على فكرة واحدة، وغالباً ما يكون سلوكهم متشابهاً إلى حد كبير، ويؤثر بعضهم في بعض بشكل ملحوظ.

على العكس من ذلك المدينة، لم أقف على أصل لها في المعاجم، وليس فيها إلا كلمة مدينة، لكن بمحاولة قياس الكلمة على الكلمات ذات الجذر الثنائي الميم والدا، وتتبع الكلمات قدر الإمكان، مثل كلمة مدر، ومعناها طين محبب (غير متجانس)، وكلمة مدس كما ذكر ابن دُرَيْد، معناها الفرق والدلك، وهو أيضاً يذهب إلى معنى عدم التجانس، وكلمة مدق ليس لها إلا معنى واحد، فيقال مدق الصخر أي: كسر الصخر، وهنا أيضاً جعله غير متجانس.

اعتماداً على هذا القياس يمكن أن نقول إن كلمة المدينة هي مكان يجتمع فيه الناس، ولكن خليطاً من البشر المختلفين، بالتالي خليط من الأفكار والسلوك المتباين. كتاب الله يدعم هذا الرأي، فلو نظرنا إلى مكة نموذجاً للقرية، ويثرب نموذجاً للمدينة تتضح الرؤية؛ فمكة كان غالباً على أهلها النسيج الاجتماعي الواحد (أغلبها لقبيلة قريش) وسلوكهم واحد في معظمه، ثم كيف أن رسول الله ظل عشر سنوات يدعوهم وما زادهم ذلك إلا عناداً وكبراً، وما استطاع خلخلة هذا النسيج بشكل كبير على مدار العشر سنوات، إذ تقول المصادر إن عدد من اتبع الرسول في فترة مكة لم يتعد 150 فرد.

عندما فكر في الذهاب إلى الطائف، وهي أيضاً قرية لم يستمع إليه أحد لأنها نسيج متماسك، ومن الصعوبة بمكان غزوه فكرياً وإحداث تأثير يذكر فيه. في حالة المدينة التي كانت تحوي أخلاطاً من الناس والأفكار والسلوكيات (قبائل الأوس، والخزرج، وقبائل اليهود) سجدت أن تقبل الأفكار والتنوع هو السائد. في القرآن إشارات واضحة عن أهل القرى الذين اجتمع فيهم السلوك السيئ فاستحقوا العذاب، وعلى النقيض أهل القرى الذين اجتمع فيهم السلوك الخير فكان ذلك سبباً لتنزيل البركات والنعم؛ ولأن الموضوع طويل جداً سأكتفي هنا بذكر خمس آيات من كتاب الله توضح استحقاق العذاب على القرى.

(إِنَّا مُنَزِّلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (سورة العنكبوت الآية : 34). (وَكَرَّمْنَا أَهْلَكَهَا مِّنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فِتْلِكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ) (سورة القصص الآية : 58).

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ) (سورة سبأ الآية : 34). (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ) (سورة الزخرف الآية : 23).

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُكْرًا) (سورة الطلاق الآية : 8).

إذا كانت الآيات السابقة تعزز فرضية استحقاق المجتمعات المتوافقة على الانحراف والسلوك الشاذ على العذاب من خلال الكوارث الطبيعية؛ فهناك إشارة في كتاب الله تدعم بشدة تنزيل البركات إذا استقامت المجتمعات واتبعت الفطرة السليمة.

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (سورة النحل الآية : 112).

الموضع الوحيد في كتاب الله الذي جاء فيه الهلاك موجهاً للمدينة هم قوم ثمود، فقد أخبرنا القرآن أن فيها فريقين يختصمان (دلالة على التنوع كما قلنا)، ولكن على ما يبدو أن الفريق صاحب السلوك المنحرف هو السائد، لذلك كان استدراج الله لهم ليستحكم السوء فتزل بهم الكارثة.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) (سورة النمل الآية : 45). سنأتي إلى قصة ثمود وكيف استدراجهم الله، سبحانه وتعالى، بالناقة حتى يحق عليهم العذاب في السطور القادمة.

(وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40) وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ
الْعَاقِمَةَ (41) مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرِّيمِ (42) وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى
حِينٍ (43) فَتَعَتُوا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ
وَمَا كَانُوا مُنْتَصِرِينَ (45) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (سورة الذاريات الآيات
: 38 - 46).

استدراج قوم فرعون بعيداً عن أهل المدينة

هذا مثال للمجتمع المتباين والمختلف ذي الأخلاط، ليس شبيهاً بمجتمع القرية ذي النمط
الواحد. هذه المجتمعات تعاني شظف العيش وقلة البركات عندما يسود فيها السلوك المنحرف.
هالك هذه المجتمعات ككل أمر لم يرد في القرآن بسبب تنوعها. على الجانب الآخر يظهر
التدخل الإلهي عن طريق استدراج الفئة الطاغية لحتفهم، كما حدث مع فرعون وقومه. لقد
استكبر فرعون هو وجنوده ولكن هناك في هذا المجتمع مستضعفون لا يشاركون فرعون وقومه
نفس درجة الكفر والسوء. من هنا كان مكر الله سبحانه وتعالى عن طريق استدراج هذه
الفئة الباغية إلى اليم ليغرق هو جنوده.

الآيات التي أصابت قوم فرعون لم تكن آيات مهلكة بسبب عدم توافر القدر الكافي من
السلوك السيئ في هذا المجتمع المتباين، والذي يضم بجانب فرعون وجنوده كما قلنا، جانباً من
المؤمنين بموسى عليه السلام فلم يحدث أن أصابهم كارثة أو مصيبة مهلكة، وإنما هي مصائب
دون الهلاك مثل القحط والجوع.

(فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا
وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ) (سورة الأعراف الآية : 133).

بقاء المصلحين وسط المنحرفين هو مدعاة لإصابة المصلحين - على أقل تقدير - بالقطر وضيق العيش بسبب ما يُرتكب من شرور وانحراف؛ وفي الوقت نفسه يمنح متنفساً ونجاةً للمنحرفين بالأنازل بهم كوارث بما كسبت أيديهم. لذلك كانت حرية التنقل التي حث عليها القرآن، ورغب فيها الخالق بالابتعاد عن المجتمعات المنحرفة، التي لا تستبين الحق من الباطل. هذه الهجرة أو هذا الحق في التنقل يمنح المصلحين فرصة أفضل بعيداً عن هذا السوء، ويسمح للقوانين الكونية والأقدار التي قدرها الله في هذا الكون أن تعمل عليهم ويهلكهم وتجث هذه البؤرة الخبيثة.

قوم ثمود والناقة

قوم ثمود كما ذكر القرآن، مجتمع مدينة فيها فريقان يختصمان، وهو دليل على التنوع والتباين. ما كان إرسال الناقة إليهم إلا استدراجاً من الله حتى عقدوا النية على المكر فتوافى القلوب على عقد النية وتجمع على الانحراف فيستجلبوا الكارثة التي تدمرهم وتهلكهم؛ وما كان إرجائه إلى حين إلا بسبب الفريق المؤمن أصحاب القلوب السوية. (وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ) (سورة الذاريات الآية : 43) فلها عتوا وأصروا كان لازماً أن تتوافر الكملة الحرجة، التي معها تتحرك الريح فتدمرهم. لقد كان أمر الناقة استدراجاً لهم لتنعقد القلوب على المكر ويصلوا إلى قدر من السلوك المنحرف، يكفي لإحداث تأثير بيئي ملحوظ. وقد كان، وتحركت الريح بإذن ربها وقوانينه وأسبابه لتقتلع هؤلاء القوم، ويخبرنا ربنا عز وجل أنه أنجى القوم المؤمنين.

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ) (45)
 قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (46) قَالُوا
 أَطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (47) وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ سَعَةُ
 رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (48) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ

مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (49) وَمَكْرُوهًا مَكْرًا وَمَكْرَنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (50) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (53)) (سورة النمل الآيات : 45- 53).

يبرز سؤال في مسألة هلاك ثمود وهو مع أن الذي قتل الناقة هو شخص واحد إلا أن العذاب شملهم جميعاً؛ عن طريق قراءة الآيات التالية الكريمة تتضح القصة:

(إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَبِعْهُمْ وَأَصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئُهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنَادَوْا صَاحِبِهِمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ (30) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ (32)) (سورة القمر : الآيات 27-32).

لقد كان إرسال الناقة هو عملية من عمليات المكر الإلهي لهؤلاء القوم حتى تنطبق عليهم القوانين المسيرة للكون، والتي وضعها الخالق، فكل حركة فيها وكل لفظة بقدر وبقانون. فلما جاءتهم الناقة، وحُدِّد وقت الماء بينهم لم يعجب هؤلاء القوم الأمر الإلهي، ومع ذلك لم يجروا أحدهم على فعل صريح يعلن من خلاله العصيان والرفض والاعتداء. فعندما قرر أحدهم أخذ زمام المبادرة بقتل الناقة، لم ينهه الآخرون، ولكن يبدو أن قلوبهم كانت معه توافق وتؤيد. عند هذه اللحظة أصبحت القلوب معقودة على الاعتداء ومشاركة في هذا السلوك المنحرف، حتى وإن لم تشترك بشكل مادي. عندما صارت القلوب مع الظلم الواقع وغابت الحاجة الداخلية للإصلاح، تحققت المعادلة واستحق هؤلاء الناس أن تحل بهم الكارثة.

قوم نوح وجينات الكفر

لنا مع قصة نبي الله نوح وقفة، ولنتعرض الآيات أولاً: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِن تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (27)) (سورة نوح الآيتان : 26، 27).

من المعلوم أن نبي الله نوحاً ظل يدعو قومه لتوحيد الله وترك المنكرات أمداً طويلاً، فلم يستجب له طيلة هذه المدة إلا النذر اليسير. عندما أدرك أنه لا فائدة من دعوتهم دعا ربه أن يهلكهم لأن في بقائهم ضررين:

أولهما: التأثير المستحث

التأثير المستحث هو انتقال التأثير من شيء إلى شيء آخر؛ في حالتنا يعني انتقال تأثير السلوك المنحرف من قلوب المنحرفين إلى قلوب أصحاب السلوك السليم فتنتكس وتعطب القلوب السليمة. بعبارة أخرى السلوك المستحث هو قدرة السلوك النفسي المنحرف، في حالة كونه سائداً، على تحفيز السلوك القويم إلى الانحراف. إذا كان أصحاب السلوك المنحرف بالكثرة، بحيث يصبح تأثير السلوك المنحرف متغلباً، فهناك احتمال كبير أن يتأثر من في محيطهم بسلوكهم السيئ.

الموجات الكهرومغناطيسية لجسم الإنسان تؤثر وتتأثر بمحيطها؛ فالمقصود بتأثير السلوك المنحرف ليس تأثيراً مجازياً وإنما تأثير فيزيائي، يدفع أصحاب السلوك المنحرف أصحاب السلوك القويم لنفس السلوك المنحرف. لو حاول أصحاب السلوك القويم المقاومة فإن الحالة النفسية تبدأ في الاضطراب مما يسبب أحاسيس وشعوراً تدفع جميعها لانتهاج السلوك المنحرف، مثل إحساس بالغربة، والاختلاف، والشعور بعدم الاندماج، وأنه شخص منبوذ؛ ما هذه الأحاسيس إلا تفاعل فيزيائي في النفس البشرية، وإن كانت القوانين الفيزيائية الحالية لا تستطيع التعبير عنه، فربما قادم الأيام ستكشف لنا الكثير والكثير.

الضرر الثاني: التأثير البيولوجي

يلدوا فاجراً كفاراً! ما الذي دعا نبي الله أن يقول ذلك؟ هل هو مجرد استنتاج، أم أن للأمر زاوية أخرى؟ فما علاقة النسل الجديد بما فعله الآباء، ولماذا استخدم لفظ يلد بدلاً عن يربي أو ينشئ؟ الحقيقة أن فعل يلد أو ولد هو فعل - إن صح أن نطلق عليه - فعل بيولوجي، بمعنى فعل يصف عملية التكاثر؛ ولكي يتضح المعنى أكثر نجد أن في القرآن الكريم تعبيرين عن الآباء، إما آباء أو والدان.

يمكن أن يطلق لفظ الآباء على غير الأبوين البيولوجيين، مثال نبي الله إبراهيم عندما خاطب أباه آزر، وهو في الحقيقة عمه، أما والدان فلا يطلق هذا اللفظ إلا على الأبوين البيولوجيين، فعندما يقول نبي الله نوح يلدوا، أي أن العملية متعلقة بالجينات والتكاثر. إنه إشارة إلى انتقال السلوك والطغيان إلى الجينات، إذ يصير السلوك المنحرف جزءاً من التركيب الجيني للإنسان، لا شك أن هذا التغيير يحتاج مدى زمنياً طويلاً وحاجة داخلية للانحراف. هذا الترتيب الجيني الجديد لا شك سيورث للأبناء، فيولدوا بسلوك منحرف كذلك، فيصبح بقائهم تهديداً للنظام الكوني، وتكاثر هذا الجيل مفسدة قد تهدد استقرار المنظومة الكونية بالكامل.

مسألة اكتساب الجينات صفات بيئية، وانتقالها عبر الأجيال مسألة ثابتة علمياً، ولكن الجديد هنا أن السلوك أيضاً يمكن أن يكون له جينات خاصة به، ويمكن أن تنتقل إلى الأجيال عبر عملية التناسل، الأمر ليس مستبعداً، وهناك دلائل كثيرة عليه، وربما يحتاج لباحثين ماهرين لتتبع وإحصاء مثل هذه السلوكيات عبر أجيال متعاقبة.

قصة قوم لوط

لقد جاء قوم لوط بفعل لم يكن موجوداً من قبل بنص كتاب الله، وهذا الفعل عندما تفشى فيهم استحقوا العقاب لأنهم كانوا سابقين في هذا الفعل، ولم ينتهوا أو يرتدعوا، بل شرعنوا فعلهم، وأصبح هذا الوضع الشاذ في مجتمعهم بمثابة الوضع الطبيعي. عندما أصبح

الوضع المقلوب هو المسيطر، وأصبحت قلوبهم متوافقة على الانحراف ، أصبح وجودهم خطراً على البشرية، وليس منه أدنى فائدة، ويمثل عبثاً على النظام الكوني.

(وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (80) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ) (سورة الأعراف: الآيات 80-81).

سنتوقف عند هذه الفاحشة التي كان يفعلها قوم لوط، وهل هي أمر طبيعي، كما يقول بعض المهتمين بدراسة الأمر من الناحية العلمية وأن المسألة جينية بحتة؟ هناك أبحاث عديدة حول هذا الأمر تقول إن المثلية الجنسية أمر جيني، ولا لا شك أن القتل كعقاب لهذه الفعلة والذي يتبناه بعض الفقهاء ليس هو المنهج القرآني السليم، ولقد حث كتاب الله على التعامل مع هذا الأمر بطريقة مختلفة بشكل أقرب للعلاج منه للعقاب. دعونا نرى كيف عالج المنهج القرآني هذا الأمر بعيداً عن التحيز المعرفي وعبء العقل الجمعي. الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذا الأمر الآية 15 والآية 16 من سورة النساء.

(وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) (سورة النساء آية 15).

(وَالَّذَانَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) (سورة النساء: آية 16).

أغلب التفاسير تحدثت عن هاتين الآيتين بأن المقصود بهما هو الزنا الطبيعي بين الرجل والمرأة، وأن هاتين الآيتين قد نُسختا بآية الجلد في سورة النور، والرجم من خلال السنة. هناك شبه إجماع على أن آية سورة النور نسخت الآيات التي بين أيدينا الآن، ولكن لو تدبرنا هذه الآيات جيداً، لوجدنا أن الآيات لا تتحدث عن الزنا الطبيعي، وإنما تتحدث عن المثلية

الجنسية. لفظ اللاتي الذي جاء في أول الآية رقم 15 يقصد به جمع النساء؛ أي أن الفاحشة بين جمع من النساء.

في حالة العقاب نجد أن كتاب الله حدد أربعة شهود لإثبات هذه الواقعة، فإذا ثبتت الفاحشة على هؤلاء النساء صدر العقاب الإلهي بحبسها في البيوت. تعظيم عدد الشهود هو لا شك تنبيه للمجتمع على أن الستر وعدم تناول الأمر وهو الوضع الأمثل. من الواضح أن الآية الكريمة مخصصة للنساء فقط، وليست الآية في سورة النور التي جمعت الزانية والزاني:

(الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (سورة النور: آية 2).

في آية سورة النور جاء ذكر الزنا صراحة، بينما في الآية التي بين أيدينا جاءت بذكر الفاحشة، وهذه الدقة في التعبير من عظمة وإعجاز هذا الكتاب العظيم إذ لم ينطبق عليها اسم الزنا. في الآية التالية سيصبح الأمر أكثر وضوحاً وبينه، فقد بدأت الآية الكريمة بالاسم الموصول اللذان الذي يدل على مثنى مذكر:

(وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانَهَا مِنْكُمْ فَادُّوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا) (سورة النساء: آية 16).

ألم يسأل العلماء أنفسهم لماذا ذكر هذا الاسم الموصول الدال على مثنى مذكر بهذه الطريقة؟ ولماذا آية مخصصة للنساء، وآية مخصصة للرجال؟ من خلال سياق الآية الكريمة نستطيع أن نفهم أن هذه الفاحشة تقع بين الرجال، وهي بالفعل المثلية الجنسية، التي لم يفرق القرآن فيها بين الفاعل والمفعول، وحدد العقاب الرباني وهو الأذى، وهذا الأذى يحدده المجتمع مسترشداً بكتاب الله. في هاتين الآيتين لا يوجد قتل لأصحاب المثلية الجنسية، وإنما الحل الرباني أقرب للعلاج منه للعقاب.

في حالة النساء يبدو واضحاً أن مسألة العزل عن المجتمع قد يكون علاجاً لهذه الفاحشة، وقد يكون قول الله سبحانه وتعالى (أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا) المقصود بالسبيل هو التحقق من

علاجهن من هذه الفاحشة. لو استطاع العلم بطريقة ما تقرير أن المريضة قد برأت من هذا السلوك قد يكون هذا هو سبيل الله لها في الخروج وممارسة حياتها الطبيعية.

العقاب الموجه للذكور كما جاء في كتاب الله هو الإيذاء، وبالتحديد الإيذاء النفسي، وعدم تقبل الأمر وإظهار ذلك؛ لا أن يتم تقبل الأمر والترويح له تحت بند الحرية الشخصية. سنتعرف بعد قليل لماذا لا يجب الترويح لهذا الأمر حتى لو سلمنا أن الأمر متعلق بالجينات؟ لو تتبعنا الإيذاء، كما جاء في كتاب الله، ومن خلال الآيات التالية سنقف على المقصود بالإيذاء، وهو غالباً إيذاء بالقول لا بالفعل، وليس فيه قتل أو أي عقاب بدني.

(وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة التوبة : آية 61).

المقصود بالإيذاء في هذه الآية الكريمة هو الإيذاء بالقول بدليل قول الله سبحانه وتعالى "يقولون هو أذن" القول بأن رسول الله هو أذن هو في حد ذاته أذى لرسول الله.

(إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا) (سورة الأحزاب: الآية 57).

الإيذاء هنا أيضاً هو قول ولا يمكن تصور هذا الإيذاء فعل مادي ضد الله ورسوله، وسياق الآيات في سورة الأحزاب يدل على ذلك؛ والآية التالية تبين ذلك، إذ إنها في نفس السياق، وهي الآية التالية .

(وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا) (سورة الأحزاب: آية 58).

من خلال المنهج القرآني يتبين لنا أن العقاب الموجه للمثلية الجنسية هو أقرب ما يكون للعلاج، فأما الذين ذهبوا لقتل أطراف هذا الفعل، وأولئك المتصالحين مع هذا الفعل جميعهم

سواء في عدم الالتزام بالمنهج القرآني. الأبحاث التي تقول أن المثلية الجنسية أمر جيني لن نكذبها، ولكن دعونا نتساءل أليس هناك كثير من الأمراض متعلقة بالجينات؟ فهل من المفترض تشجيع المرض والتصالح معه، أم الطريق السليم للتعامل مع وضع كهذا هو محاولة إيجاد علاج له؟ لقد كان الحل الرباني علاجاً، ولم يكن عقاباً، ولكن أكثر الناس لا يعلمون. من خلال قصة نبي الله لوط ومن خلال الآية الكريمة التي أرشدت إلى هذا الفعل، وخصوصاً قول الله سبحانه وتعالى (أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) يبدو جلياً أن هذا الفعل مستجد على البشرية إذا لم يكن موجوداً قبل استحداثه من قبل قوم لوط. فهل هذا السلوك الشاذ انتقل إلى الجينات عبر الأجيال، كما بينا ذلك من خلال قصة نبي الله نوح؟ لا أستبعد أبداً ذلك، وهو انتقل هذا المرض عبر الجينات إلى البشرية عبر العصور. حتى إذا ادعى أنصار المثلية الجنسية أن هذه العملية طبيعية حتى بين الحيوانات الأقل مرتبة من الإنسان، فهذا لا يعني التسليم بطبيعتها، ولكن بحثاً عميقاً عن أصل هذه المشكلة قد يقود إلى نشأتها وكيفية معالجتها وليس تشجيعها.

ليس كل أمر جيني واجب الحدوث، ولكن المعروف أن كثيراً من المشاكل الجينية لا تظهر إلا في وجود عوامل مساعدة لظهورها. يبدو من خلال كتاب الله أن هذا الأمر لو لم يتم قبوله وعولج بالمنهج الرباني لعاد القهقري، ولم يؤذ المجتمع. على العكس من ذلك التصالح مع أمر كهذا بل وتشجيعه يعطي دفعة وتحفيزاً للآخرين أن يسيروا في نفس الطريق، وبدلاً من علاج بعض الحالات الفردية يصبح الأمر كالوباء.

خطورة هذا الأمر على مستقبل البشرية ربما لا يدركها أرباب الحرية الجنسية، ولا يحسبون عواقبه، فعندما يكتفي كل طرف بمثيله تصبح البشرية على أهبة الانقراض، ولن ينفعها وقتئذ علاج المصلحين. بالطبع نتمنى ممن يتبنون التصالح مع هذا الأمر على أنه أمر جيني، أن يدركوا هذه الحقيقة وأن يكفوا عن تشجيع المريض على الانتشار. نسلم لهم أنه أمر جيني ولكن ليس هذا هو الوضع الطبيعي، وهو أمر لو تصالح المجتمع معه كما يرغبون، لكان

عامل حفز وتنشيط لجينات الآخرين، وبدلاً من علاج ومساعدة المبتلين، سنجر على البشرية مزيداً من المشاكل التي هي في غنى عنها.

التوجيه القرآني اللطيف في هذا الفعل هو أشبه بتربية الأبناء حتى يتعودوا السلوك القويم، وليس إقصائهم وإبعادهم. عندما تنهر ابنك عندما لا يقوم بغسل يديه أو يفعل أي سلوك غير طيب فأنت في الحقيقة توضح له أن هذا الفعل مستقذر، وأنه لا يجب فعل ذلك. سيراجع الطفل نفسه مرات قبل فعل يعلم جيداً أنه غير مرحب به مما يعدل سلوكه. على العكس من ذلك تماماً لو لم تفعل بل تساهلت مع أفعاله وشجعته فسيخرج يحمل القذارة في سلوكه ويورثها لأبنائه.

بالقطع ليس بعيداً إذا تعود الإنسان القذارة أن تنطبع في جيناته ويتم توارثها، وكما ذكرنا من قبل أن توارث السلوك أمر وارد علمياً. هل إذا ثبت علمياً أن قذارة الشخص أمر جيني هل من المفترض التسامح معها، أم الطريق الأفضل هو محاولة علاجها، وإعادة الإنسان للوضع الطبيعي. بقدر ما نحذر من الانجراف خلف موروث القبيلة، وتجاوز حدود الله في تغليظ العقاب، بقدر ما نحذر أيضاً من التهاون ومحاولة تقبل الشذوذ، والانحراف في السلوك بدعوى الحرية الشخصية. إذا كانت الحرية الشخصية ذات تأثير سلبي على المجتمع، فيجب أن يقف المجتمع في وجهها وينظمها لا أن يتساهل معها حتى تهلك الجميع.

نهاية العالم

الفصل الأول تحدث عن نهاية العالم إذا ظن الإنسان أنه قادر على التحكم في كل شيء، وفي غير حاجة للإله. صدى هذه الفرضية في هذا الفصل واضحة بشكل كبير. العالم في حالة تسارع معرفي ومعلوماتي لم يسبق له مثيل، وعند وصول الإنسان لحالة التحكم في كل شيء مثل الظواهر الطبيعية، وغيرها سيغلب على ظنه أنه أصبح قادراً ومهيماً على كل ما حوله؛ وظن القدرة مع قطع الصلة بالله هو عين الكفر، فإذا أعلن إنسان ذلك العصر، قطع صلته

بالله وأصبح من يسيرون في هذا الركب كُثر، فإن القلوب تبدأ في الانقلاب، ويصبح مجالها متنافراً وغير منسجم مع الكون من حولها.

مع اطمئنان الإنسان لقدرته هذه وثقته، تبتعد القلوب أكثر فأكثر ويمكن أن ينطبع هذا الشعور في الخلايا الوراثية، فلا يلدوا إلا منتكسي الفطرة. عند هذه النقطة تكون النهاية وإعلان عدم صلاحية الإنسان ليعمر هذا الكون، ومن ثم يبدأ انهيار النظام الكوني بسبب انهيار الفطري للإنسان. التكوين الفطري مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالكون، وانهياره يندرج بانهيار الكون. هذا التعبير ليس مجازياً أبداً، أنا هنا أعني الارتباط الفيزيائي بكل ما تحمل الكلمة من معنى، انتكاس الفطرة معناه أن القلوب تعمل جميعها في اتجاه عكس الاتجاه الطبيعي، ولا يمكن مع هذا الخلل في أحد المكونات الأساسية للكون الاستمرار، فستتحطم المنظومة، والكون لا محالة سينهار.

الاستغفار وتأثيره المادي

ما علاقة الاستغفار بالتأثير في المادة؟ كل الإشارات في كتاب الله لها مدلول وإشارة، ونحن هنا نحاول قدر استطاعتنا وبقدر ما توافر لدينا من معلومات أن نستنتج فكرة، لعلها تكون فاتحة لأفكار جديدة. يقول الله سبحانه وتعالى في سورة نوح:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (10) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (11) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (12)) (سورة نوح الآيات : 10-12).

ما علاقة الاستغفار المعنوي بالرزق والأموال؟

الاستغفار هنا لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون ألفاظاً يقذف بها اللسان، ولكن هو إرادة ونية عقد القلب عليها العزم؛ فإن كانت أحوال القلب مضطربة فلاستغفار هو محاولة جادة لإعادة ضبط ترددات القلب، ومحاولة جادة للاتصال بالصانع حتى يعود القلب إلى وضعه الطبيعي منسجماً مع الكون من حوله، إن هذا الانسجام التام مع الكون، هو السبب الرئيسي لكي تصبح حياتك جنة بالمعنى الحقيقي للجنة.

(وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ) (سورة المائدة: الآية 66).

لا يمكن أن يكون ربط إقامة التوراة والإنجيل بتدفق الرزق المادي هنا جاء هكذا، فنحن نحيا مع الأسباب وكل شيء بقدر، فأصلاح عيوب القلب يتبعه إصلاح المنظومة الكونية كلها لتتحول الحياة لجنة حقيقة. إن دراسة مثل هذا الأمر يمكن أن يقود إلى فتوح جديدة كلياً، إذ يمكن التعرف على القوة الكامنة للدعاء والحالة النفسية المصاحبة، وعلاقتها بالقوى الكونية.

كثير من الناس يشكون من عدم استجابة الدعاء وهناك مقولة منسوبة لإبراهيم بن أدهم يقول فيها عندما سأله أحدهم لماذا ندعو ولا يستجاب لنا، فقال لهم لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء. الحقيقة أن إبراهيم بن أدهم قد توصل لحقيقة الأمر وسر عدم قبول الدعاء، وهو موت القلوب أو حتى انصرافها، الحل هو محاولة ربط القلوب مرة أخرى بخالقها وضبط بوصلتها.

كثير من مدربي التنمية البشرية يعتقدون أن الإنسان إذا اعتقد في أمر بشدة فسيحدث، وهذا الأمر تبعاً يبدو صحيح إلى حد كبير، ولكن الإنسان لكي يعتقد في الأمر بنفسه معتمداً على قدراته الخاصة فهذا صعب للغاية يحتاج لترويض وتمارين ليس هيناً، لكن بشيء من محاولة ضبط ترددات القلب على الترددات الفطرية، سواء بالاستغفار أو الدعاء، يمكن تحقيق الأمر بسهولة ويسر.

إذا كان السلوك المنحرف يزعج الطبيعة والكون من حولنا بقدر ما، فلا شك أن الانسجام مع الكون من حولنا مدعاة لأن يفيض هذا الكون بالخير لأصحاب القلوب المخلصة. يجدر بنا الإشارة إلى أن أصحاب القلوب المنحرفة إذا كانوا قلة في مجتمع ما فلا شك سيصيبهم من الخير والرخاء ما يصيب الآخرين. بخلاف إذا تغلب أصحاب السلوك الشاذ عدداً وعدة وبقينا على أصحاب السلوك القويم، فسيصيب الخراب والدمار الجميع بلا استثناء.

يبقى أن نشير إلى أن عملية الاستغفار وعملية التوبة ليست عملية سهلة، بل هي تدريب وحاجة داخلية حقيقية. لا بد أن ينبع طلب المغفرة من الداخل حتى يؤتي أكله، ويصبح القلب مرتبطاً بشكل وثيق مع النظام الكوني. عملية إيهاام الناس أن عملية الاستغفار عملية بسيطة، وأن قصور الجنة تنتظر من يردد مائة مرة أستغفر الله العظيم دون الإشارة لتوافر الحاجة الداخلية للإنسان، ودون ربط القلب بعملية الاستغفار هو تسطيح محل بهذه العملية. لن تجر السطحية إلا مزيداً من الخجل النفسي والتردي على هذه الأمة؛ إذ يعتقد الإنسان أن كل شيء يمكن أن يزول بمجرد ترديد مجموعة من العبارات، وأن الجنة في انتظاره بمجرد الانتهاء من عملية عد المائة تسبيحة أو مائة استغفار.

هذا التهاون في أمر ارتباط القلب وتأثيره الحقيقي وتأثره من خلال كل قول يصدر عنه ستنجب تديناً ظاهرياً، ظاهره الدين ومن قبله فراغ لا نهائي. كل جملة استغفار تحتاج أن تستحضر عظمة الخالق، وتستحضر جرمك، وتعتقد العزم على الإقلاع، تندم وتتعهد بالالتزام. رب استغفار مرة واحدة يضبط القلب تجاه خالقه خير من ألف استغفار من قلب فارغ. حاول أن تصل إلى الله بقلبك وتجاهد نفسك على ذلك بدلاً من التشاغل بالعد والإحصاء، وعد قصور الجنة مقابل حفنة أقوال . فكما لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن بما كسبت قلوبكم، فكذلك الأعمال الصالحة لن يصعد منها إلا الطيب الصادر من القلب، ويبقى اللغو يذهب جفاءً.

الفصل السابع: وفار التنور

لا تكاد ثقافة من الثقافات أو شعب من الشعوب تخلو ذاكرته من قصة الطوفان العظيم، وإن كان هناك بعض الاختلافات، إلا أن جميع القصص متفقة على أن الطوفان حدث في عهد نبي الله نوح للتخلص من أصحاب السلوك المنحرف. هناك ما يقرب من 500 قصة مختلفة للطوفان من خلال شعوب السومريين، والآشوريين، والبابليين، والفرس، وسكان الأمريكيتين، وأوروبا، وإفريقيا، وسكان جزر المحيط الهادئ. بالإضافة إلى ورود قصة الطوفان العظيم في التراث اليهودي والتراث المسيحي، وبالطبع في القرآن.

هذه القصة العجيبة والثرية وردت في مواضع شتى في كتاب الله، حيث اختيار الكلمات في وصف القصص يحمل لنا معلومات وتفاصيل غاية في الأهمية. لقد أفردنا فقرة في الفصل الخامس عن فعل يلد ودلالة عبارة يلدوا فاجراً كفاراً، وأصل فعل يلد الخاص بالعملية البيولوجية، وعلاقة السلوك الشاذ بالجينات وإمكانية توارث التصرفات والسلوك المنحرف. قد يكون هلاك قوم نوح، كما سنرى، هو امتداد طبيعي للفصل السابق، ومن خلال التأثير المباشر لسلوكهم على الكون من حولهم، أو بالأحرى على البقعة التي يعيشون فيها. التغيرات المناخية التي حدثت توحى بذلك من خلال ارتباط السلوك الإنساني المقصود والمتعمد بالنسيج الكوني ككل.

من خلال هذا الفصل سنتطرق لفهم كلمة التنور اعتماداً على كتاب الله، ثم جذر اللغة، والمعلومات العلمية المتاحة.

مدلول كلمة التنور

كلمة تنور من الكلمات التي لم يتفق على معناها ودلالاتها المفسرون، وإنما حاول كل واحد منهم الاجتهاد قدر المستطاع في فهم ومعرفه دلالة الكلمة، سواء من خلال التراث البشري أو حتى من خلال التخمين. هذا التنوع في فهم كلمة التنور إن دل على شيء، فإنه يدل على مساحة الحرية التي تمتع بها السابقون، والتي ضاقت علينا بما رحبت.

جاء ذكر كلمة التنور في كتاب الله في موضعين اثنين كما يلي:

(حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ

سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) (سورة هود: الآية 40).

(فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوْحِينَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا

مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ

مُغْرَقُونَ) (سورة المؤمنون: الآية 27).

فسر المفسرون كلمة التنور في كتاب الله على معاني عدة، ويمكن تلخيص تلك الأقوال

من خلال قول الطبري. (وقوله: (وفار التنور) اختلف أهل التأويل في معنى ذلك. فقال

بعضهم: معناه: انجس الماء من وجه الأرض، (وفار التنور)، وهو وجه الأرض عن ابن

عباس أنه قال في قوله: (وفار التنور) ، قال: (التنور)، وجه الأرض . قال: قيل له: إذا

رأيت الماء على وجه الأرض، فاركب أنت ومن معك. قال: والعرب تسمي وجه الأرض:

"تنور الأرض" أخبر الشيباني، عن عكرمة، في قوله: (وفار التنور) ، قال: وجه الأرض. وقال

آخرون: هو تنوير الصبح ، من قولهم: "نور الصبح تنويراً" عن علي رضي الله عنه قوله: (حتى

إذا جاء أمرنا وفار التنور)، قال: هو تنوير الصبح. عن رجل من قریش، عن علي بن أبي

طالب رضي الله عنه: (وفار التنور) ، قال: طلع الفجر) انتهى التفسير.

اتفق تماماً مع قول أبي جعفر الطبري أن كلام الله يوجه إلى الأغلب الأشهر من

معانيه؛ إلا أن تقوم الحجة على شيء خلاف ذلك فيسلم له. هذا بالضبط ما نفعله ونحاول

دراسة فكل كلمة تقوم الحجة والدليل عليها بخلاف ما فهمه العرب يجب أن يسلم لها، وكلمة

التنور هي واحدة من تلك الكلمات التي أرى أنها تعني شيئاً آخر.

فهم دلالة كلمة (فار) التي سبقت كلمة التنور في الآيتين الكريمتين يمكن أن يؤسس لفهم دلالة كلمة التنور بشكل أفضل. كلمة فار وأصلها فور، ذكرت في كتاب الله في ثلاثة مواضع، منها مرتان مع التنور في الآيات السابقة والآية الثالثة ووصفاً لجهنم وحالة النار في جهنم.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورٌ﴾ (سورة الملك: الآية 7).

كلمة تفور لم تصف حركة الماء قط في كتاب الله، وإنما وصف الماء في كتاب الله جاء عن طريق ألفاظ أخرى، مثل خرج، ونزل، وصب، وساق، وطغى.

﴿أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا﴾ (سورة عبس: الآية 25).

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة البقرة: الآية 74).

﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة الأعراف: الآية 50).

﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعِدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (سورة هود: الآية 44).

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ (سورة السجدة: الآية 27).

﴿نَا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ (سورة الحاقة: الآية 11).

كما نرى أن القرآن الكريم لم يستخدم لفظ فار مع الماء أبداً برغم تعدد الآيات التي تصف حركة الماء؛ وعلى العكس تماماً وصف القرآن النار في جهنم بالفوران. بالعودة إلى كلمة التنور نفسها سنجد أن جذر الكلمة هو نور ومعنى نور بحسب قاموس اللغة لابن فارس هو إضاءة واضطراب وقلة ثبات، ومنه النور والنار.

البحث عن معنى كلمة التنور في معاجم اللغة وجدنا أن هناك إشارة إلى أن أصل الكلمة فارسي ومعناها بيت النار أو فرن يخبز فيه. بما أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين ومعنى عربي؛ أي يفصح وينيب عن نفسه؛ فإن الدلالة الصوتية لحروف كلمة التنور لا بد أنها تصف المسمى بكل دقة (نظرية اللغة ومعنى قرآنياً - راجع الجزء الثاني).

لو حاولنا جمع المعطيات السابقة من جذر الكلمة ودلالاتها التي تدل على النار أو التنور جنباً إلى جنب مع أقوال السابقين، ثم أضفنا إليها فعل فار الذي يصف خروج النار ولا يمت بصلة لخروج الماء؛ وضحت الصورة من أن المقصود هو مكان تخرج منه النار أو يحدث لها فوران فيه. على ذلك نجد أن أقرب وصف للتنور، وطبقاً للمعلومات المتاحة، هو البركان. فعل فار يعبر بدقة عن خروج المواد المنصهرة وقوة اندفاعها (ثوران البركان). ما يؤيد هذا المعنى ويقويه عدم وجود ذكر للبركان في كتاب الله بالرغم من وجود ذكر صريح للزلازل، بل يوجد سورة قرآنية كاملة تسمى سورة الزلزلة.

إذا كان التنور هو الأنسب في وصف البركان الذي تفور منه النار، فمن أين جاءت تسمية البركان بالبركان وماذا تعني؟ جذر كلمة بركان هو برك، ولها أصل واحد، كما جاء في قاموس اللغة لابن فارس، وهو الثبات. ذكر جذر برك بصيغة بركات في ثلاثة مواضع في كتاب الله.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (سورة الأعراف: الآية 96).

(قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يُمَسِّمُهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ) (سورة هود: الآية 48).

(قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنَّا إِنَّ اللَّهَ رَحِمٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ) (سورة هود الآية 73).

من الواضح أن كلمة برك ليس لها أي علاقة بصفات وخصائص البركان الثائر. يمكننا أن نلاحظ الفرق في التسمية بين كلمة تنور التي وردت في كتاب الله وبين كلمة بركان التي يتعارف الناس عليها. من خلال مدلول كلمة برك، ومن خلال فهم زيادة الألف والنون التي تفيد الاستمرار، يمكننا أن نستنتج أن وصف بركان ربما يصف البركان الحامل غير الثائر؛ أما لفظة التنور هنا فأعتقد أنها تصف البركان النشط أو القابل للانفجار.

لا يفوتنا قبل أن نغادر هذه الجزئية أن نشير إلى أن بعض المعاجم، مثل معجم المعاني الجامع، قد ذكرت في وصف التنور أنه قد يكون ينبوع المياه الملتهبة الكامنة في جوف الأرض، وهذا الوصف اقتراب كثيراً من وصف البركان، غير أنه ما زال يدور في فلك المياه وليس النار.

كما تعودنا.. إن كلمات القرآن الكريم هي إشارات ودلالات تحمل الكثير والكثير فهل يمكن أن يحمل معنى ومدلول كلمة التنور والمقصود بها البركان دلالات علمية معينة وإشارات محددة؟ وصف التنور بالبركان يرحح بشدة العلاقة القائمة بين السلوك النفسي والظواهر الكونية، وكيف يمكن للانحراف السلوكي أن يقود إلى خلل في المنظومة الكونية. يبدو أن كفر قوم نبي الله نوح قد جلب عليهم كوارث استحقوها بما كسبت أيديهم.

الرؤية العلمية

تفسير كلمة التنور على أن المقصود بها البركان أكثر واقعية وينتمي لعالم العلم والمنطق، خصوصاً إذا أدركنا أن الطوفان الذي حدث وذكره ربنا يمكن تصنيفه على أنه اضطراب في المناخ. علاقة البركان والانبعاثات التي ينفثها خلال الغلاف الجوي بتغيير المناخ علاقة قائمة وطيدة ولا يمكن تجاوزها. الغبار البركاني والرماد الناتج عن فوران البركان له القدرة على امتصاص أشعة الشمس، أو على الأقل امتصاص جزء من هذه الأشعة مما يتسبب في انخفاض درجة الحرارة بشكل ملحوظ.

ذكر حسن أحمد شحاتة في كتابه "معجزات السماء: من آيات الله في الكون : دراسة علمية معاصرة" أن انخفاض درجة الحرارة الملحوظ الذي ساد القارة الأمريكية عام 1783م إلى عام 1784م يعود بالأساس إلى النشاط البركاني في كل من اليابان وأيسلندا.

مصطلح الشتاء البركاني هو مصطلح شهير، ويشير إلى تلك التغيرات التي تحدث في درجات الحرارة نتيجة للنشاط البركاني بسبب حجب تأثير الشمس عن الأرض، بواسطة الرماد البركاني الذي يحتوي على حمض الكبريتيد. هذا الحمض له قدرة كبيرة على امتصاص أشعة الشمس، وبالتالي يتسبب في خفض درجات الحرارة بشكل ملحوظ.

توجد أمثلة عديدة على تأثير المناخ بالنشاط البركاني، والتي تسببت في كوارث إنسانية في بعض المناطق. انخفضت درجة حرارة المناخ العالمي على مدار سنتين بسبب ثورة بركان في جبل بيناتوبو في الفلبين عام 1991م.

بركان كراكاتوا في إندونيسيا عام 1883م تسبب في انخفاض درجات الحرارة بشكل ملحوظ، ولمدة أربع سنوات متتالية، لدرجة أن العواصف الثلجية قد لوحظت في شتاء 1887م. ثورة بركان تامبورا في إندونيسيا عام 1815م، تسببت فيما يعرف بالشتاء البركاني، فقد تساقط الثلوج على إنجلترا في شهريونيو في موسم الصيف، وكذلك شهدت مدينة نيويورك انخفاضاً ملحوظاً في درجات الحرارة على غير المتوقع.

عام 1601م حدثت مجاعة عظيمة امتدت من 1601 وحتى 1603 ميلادية في روسيا، فقد انخفضت درجات الحرارة انخفاضاً أثر على نمو المحاصيل؛ نتيجة لثورة بركان هوانابوتيانا في البيرو. الجدير بالذكر أن المجاعة التي حدثت في أوروبا عام 1315 وحتى عام 1317م تشير كثير من الدراسات إلى أنها حدثت بسبب نشاط بركاني غير عادي وتشير الدراسات إلى أنه ربما يكون بركان جبل تاراويرا في نيوزيلندا، الذي استمر لقرابة خمس سنوات. هو المسئول الرئيسي عن ذلك.

في عامي 535 و 536 ميلادية حدثت تغيرات شديدة في المناخ، أدت إلى تغيرات عظيمة في أوروبا من حيث الغذاء ووفرتة، ويعتقد الباحثون أن بركان تيرا بلانسا جوفين في السلفادور هو المتهم الرئيسي في هذا التغير المناخي.

مما لا شك فيه أن علاقة النشاط البركاني بالتغيرات المناخية هي علاقة قائمة، قد تشرح لنا كيفية هطول الأمطار بهذا الشكل المنهمر، كما ذكرها كتاب الله في حادثة الطوفان العظيم، ولكن مسألة تفجير الأرض عيوناً يحتاج لدراسات وأبحاث مستفيضة للوقوف على علاقة البركان بمخزون المياه الجوفية.

من خلال بحثنا وقراءتنا حول هذا الموضوع لا أستبعد أبداً تلك العلاقة القوية بين النشاط البركاني والمياه الجوفية، خصوصاً إذا علمنا أن الأرض تموج بشبكة من الموجات الكهرومغناطيسية، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بشبكة الموجات الكهرومغناطيسية في الغلاف الجوي الموجودة في طبقة الأيونوسفير. هذه الشبكة هي المتحكمة الرئيسية في الظواهر الطبيعية، مثل الزلازل، والبراكين، والتغيرات المناخية، كما جاء في الفصل الأول (وظن أهلها أنهم قادرون عليها).

الفصل الثامن: ويل للمصلين

سورة الماعون التي تصف بكل دقة حالة منتشرة، وتحذر منها وتبوعد مانعي الماعون بالويل، لا تكاد تُذكر إلا في حالة الساهي عن الصلاة، ويكاد الناس لا يعرفون عن هذه السورة العظيمة إلا ويل للمصلين، على اعتبار أن المقصود هو الصلاة الشعائرية. السورة العظيمة وتأويلها أبعـد ما تكون عن ذلك. تبعاً للمنهج الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني، والذي يقرر أن الألفاظ تصف حالة معينة، ويمكن فهمها من خلال السياق الذي ذُكرت فيه. سنحاول فهم سورة الماعون وألفاظها من خلال كتاب الله، لنكتشف عظمة هذا الكتاب الذي أنزله الله هدى للناس ودستوراً ينظم حياتهم وتصرفاتهم.

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْدينِ (1) فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ (2) وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ (3) فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ (4) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (5) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (6) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (7)) (سورة الماعون).

التفسيرات التقليدية تقول إن الويل أعده الله للساھين عن الصلاة، فالصلاة المقصودة هي الصلاة الشعائرية وفروضها المعروفة، والتي افترضها الله على عباده المؤمنين. كيف يكون المقصود بالمصلين، عباد الله المؤمنين، وكيف يكون المقصود بالصلاة، الصلاة الشعائرية، والسورة تدور حول ذلك الشخص الذي يكذب بالدين؟

حسب التفسيرات التقليدية؛ الدين يعني دين الله ونواھيه وأوامره؟ إذا كان الخطاب المقصود من التوجيه الرباني يدور حول ذلك الشخص الذي يكذب بالدين؛ فمن الطبيعي أن هذا الشخص غير مكلف بالصلاة من الأساس وغير معني بها، فكيف يكون المكذب بالدين مخاطباً بالصلاة؟ الصلاة الشعائرية كُتبت على المؤمنين وليست على المكذبين بالدين كما ينص على ذلك كتاب الله.

(فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ فَادْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ^ج فَإِذَا أطمأننتم فَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ^ج إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا) (سورة النساء : آية 103).

يمكن الهروب من هذه الإشكالية على اعتبار أن الآيات الأولى منفصلة عن آية المصلين، وهذه كارثة أخرى، إذ جعلت آيات القرآن جزءاً معزولة تنتقل من حالة إلى حالة دون أي رابط أو علاقة بينهما. السورة الكريمة تشكل وحدة واحدة وتحدث عن موضوع واحد من الموضوعات الأساسية. تدور السورة الكريمة حول ذلك الإنسان الخبيث الذي يقف عقبة كؤود في سبيل تحقيق مصالح الناس.

كل إنسان يصعب السهل ويعقد الحلول ولا يراعي ولا يفهم طبيعة عمله التي هي تسهيل الأمور لا تعقيدها هو المخاطب بهذه السورة العظيمة. إنما يُستعمل الناس في الوظائف لغرض قضاء حوائج الناس، فعندما تنقلب المهمة الأساسية للإنسان من النقيض إلى النقيض، ويصبح عقبة وصخرة بدلاً من كونه نهراً يجري بالخير؛ هنا يستحق التوعد بالويل؛ لأنه يعمل ضد طبيعة الحياة وضد مهمته بالأساس. تبدأ السورة الكريمة بقول الله تعالى أرأيت الذي يكذب بالدين؛ والدين هو مجموعة تعليمات وقوانين يعمل من خلالها الإنسان، أو قل إن شئت المنظومة التي تحكم تصرفات وعلاقات الإنسان بمن حوله. إذا نُسب الدين لله فالمقصود هو مجموعة الأوامر والنواهي والتعليمات التي أصدرها الله تعالى لعباده ووجب عليهم الالتزام بها والعمل من خلالها.

(هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرِينَ بَحْرًا بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أُنجَيْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (سورة يونس : الآية 22).

أما إذا نُسب الدين لغير الله فالمقصود هو مجموعة الأوامر والتعليمات التي وضعها المنسوب إليه، والتي يجب أن يعمل الداخلون تحت ولايته وفق هذه التعليمات، ومثال ذلك

دين الملك الذي ذكره الله في سورة يوسف . (فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ) (سورة يوسف : آية 76).

المقصود هنا هو القانون الذي وضعه الملك لتسيير حالة المجتمع، والتي يجب على الناس العاملين خلال نطاق هذه المملكة وتحت سلطانه الالتزام بهذا الدين (القانون) والعمل من خلاله، ومخالفته توجب العقاب. إذن لفظ الدين هو لفظ يصف مجموعة من التعليمات والالتزامات بصفة عامة، ولكي نفهم ما هي هذه التعليمات وهذه الالتزامات، وعن أي شيء تدور، وهل المقصود هو دين الله، أم دين الملك، أم دين المجتمع، لا بد من فهم السياق، وعن ماذا يدور الخطاب. ما سيحل لغز هذه الألفاظ ويوضح المقصود بالحالة التي تصفها هو فهم كلمة الماعون، والتي سميت السورة باسمها. كل آية من آيات هذه السورة العظيمة تعطي لمحة من الصورة الكلية، وستكتمل الصورة بالوصول إلى الآية الأخيرة التي تتحدث عن الماعون.

الآية الأولى: (أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالذِّينِ)

الذين يكذب بالدين هنا تعني الذي يكذب ولا يتعامل من خلال المنظومة التي تسيّر المجتمع، سواء هذه المنظومة كانت مستمدة من كتاب الله أو من خلال قوانين وضعها المجتمع لتسيير الحياة وقضاء الحاجات (قانون الذي ينظم حركة المجتمع). التعجب هنا من ذلك الشخص الذي يشذ عن المنظومة التي تنظم حركة المجتمع وينفرد عنها، ويعمل وفق رؤيته الشخصية كما سنرى. الآية الكريمة تحمل توجيهاً عاماً للإنسان بأنه إذا كان يعمل داخل منظمة معينة فلا يتوجب عليه الشذوذ عنها لأي سبب، سواء كان هذا السبب قناعته الشخصية أو اعتقاداته النفسية؛ العمل من خلال المنظومة هو الأولى من العمل منفرداً تحت أي ظرف من الظروف.

الآية الثانية: (فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ)

تشير الآية الكريمة إلى صفة هامة من صفات ذلك الذي يكذب بالدين، أو الذي لا يعمل من خلال المنظومة والقوانين التي تنظم حركة المجتمع، إذ إنه يدع اليتيم. أصل كلمة يدع هو دع، ومعناها دفع واضطراب، ويمكن فهم كلمة دع من خلال الآية القرآنية التي تتحدث عن المجرمين الذين سيدعون إلى نار جهنم.

(وَمَ يَدْعُونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا) (سورة الطور: الآية 13).

لفظ "دعا" كما يقول المفسرون هو الدفع مع الإرهاق أو الإزعاج، وعلى ذلك يصبح دع اليتيم أي دفعه بشكل مهين ونهره بشكل لا يليق؛ لكن من هو اليتيم؟ لفظ يتيم تصف حالة من الانفراد، الذي يصبح بدوره مدعاة للضعف بسبب عدم وجود معين أو قوة يستند إليها؛ وما سمي الذي مات أحد أبويه باليتيم إلا بسبب تطابق حالته مع الحالة التي تصفها كلمة اليتيم، وهي الانفراد والضعف بسبب عدم وجود معين.

الآيات الكريمة تتحدث عن الشخص المسئول عن مهام معينة، ويقوم بهذه المهام من خلال منظومة قوانين محددة (الموظف أو المسئول) ولكن يختار أن يخرج عنها ويعمل بهواه وفق رؤيته. التعجب القرآني موجه لهذه الشخصية، التي يصفها المشهد القرآني باقتدار، فمن أبرز صفات هذه الشخصية نهر ودفع من ليس له سند أو معيل، أو لا يملك القوة في نظر هذا المسئول.

الآية الثالثة: (وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ)

الآية الكريمة تتحدث عن الصفة الثانية التي تميز هذه الشخصية الخبيثة، فهو لا يحض على طعام المسكين. الحض على الشيء تعني البعث على شيء أو التحفيز أو التشجيع. في هذه الآية الكريمة التي تبدو سهلة الفهم كلمتان، يبدو أن مدلولهما ليس كما نعتقد نتوارثه، ويحتمل أن حالة خاصة نستطيع من خلال كتاب الله فهمها. الكلمتان هما كلمة الطعام، وكلمة مسكين، وقبل أن نحاول فهم كلمة الطعام سنخرج قليلاً على كلمة مسكين لفهم الحالة التي تصفها.

أصل كلمة مسكين هو سكن ولها أصل واحد وهو خلاف الحركة والاضطراب أي تصف حالة السكون. والمسكين هو الذي ينطبق عليه وصف هذه الحالة سواء كان السكون سكوناً مادياً، مثل إصابته بالعجز أو الإعاقة أو سكون نفسي مثل المصاب بالتوحد. هناك إشارة مباشرة إلى ذلك الشخص المصاب بالتوحد في قول الله تعالى مسكيناً ذا متربة في سورة البلد.

(وَمِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ) (سورة البلد: آية 16).

أصل كلمة متربة هو ترب، وكما في قاموس اللغة، يعني تساوي شيئين، لو نظرنا إلى المسكين وحالة السكون التي يمثلها، ثم أضف إلى ذلك تساوي الأشياء لديه، فهذا الوصف ينطبق تماماً مع المريض بالتوحد إذ تتساوى عنده الانفعالات، ولا يستطيع التفريق بينها بسهولة.

هذا المسكين في الأغلب الأعم يحتاج لنوع من الرعاية الخاصة لأنه لا يستطيع القيام على أمر نفسه. أغلب الآيات القرآنية التي ذكر فيها الطعام، أو بصورة أكثر تحديداً إطعام الطعام، كانت موجهة للمساكين.

ذكر لفظ مسكين في كتاب الله في أحد عشر موضعاً منها ثمانية مواضع متعلقة بالطعام، وكذلك ذكر لفظ إطعام المساكين بصيغة الجمع في موضعين من مواضع كتاب الله. نلاحظ أن الكفارات المتعلقة بالطعام في كتاب الله جاءت جميعها خاصة بالمسكين أو المساكين، بالرغم أن لفظ الفقراء لفظ قرآني أيضاً؛ حتى الآية الوحيدة التي حثت على إطعام الطعام في حق اليتيم والأسير جاء على رأسها المسكين.

(وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا) (سورة الإنسان: الآية 8).

لقد كان التوصيف القرآني غاية في الدقة عندما جاء الطعام مرتبطاً بصفة المسكين، وهو في الغالب الشخص الذي لا يقوى على القيام بأمر نفسه ويحتاج إلى الطعام، وتتغير وجهة نظرنا بالكامل عندما نفهم ما يعنيه لفظ الطعام وما الحالة التي يصفها.

كلمة الطعام من الكلمات التي تبدو سهلة المدلول، ولكن بالتريث قليلاً سيتضح أن مدلول كلمة الطعام أشمل مما نفهم وتعارف عليه الناس؛ وهو الغذاء. برغم أن قاموس اللغة قال إن أصل كلمة طعام هو طعم، وتعني تذوق الشيء، إلا أن ورود كلمة الطعام في كتاب الله من خلال الآيات التالية تضيف بعداً جديداً لهذه الكلمة وتجعلها أكثر شمولية.

(أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة المائدة: الآية 96).

لفظ "طعامه" هنا عائد على البحر وليس وصفاً مجازياً، كما يعتقد البعض، ولكن هو وصف حقيقي، فكل ما هو داخل هذا البحر ويعد جزءاً منه يسمى طعام البحر. لقد وصف القرآن الكريم كذلك الماء على أنه طعام كما في سورة البقرة، فقد عبر عن فعل الشرب أيضاً بطعمه، الذي هو أصل الطعام.

(فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ) (سورة البقرة: الآية 249).

بالنظر إلى استخدام فعل طعم وقدرة الإنسان على استخدام هذا الفعل في وصف عملية من عمليات تكاثر الأشجار؛ وحتى عملية التطعيم المتعارف عليها وهي التطعيم بالأمصال المختلفة، وكذلك تطعيم الحلي، مثل تطعيم الذهب بالماس؛ نجد أن فعل طعم يصف حالة إنفاذ شيء داخل شيء آخر بغرض الإفادة.

لفظ طعام يطلق على الغذاء، وهو الوصف الأشمل والأعم، ولكن بناء على المعطيات التي بين أيدينا، لا يمكن أن يقتصر الطعام على وصف الغذاء، إذ أيضاً الشراب يمكن تسميته طعاماً، والعلاج أيضاً يصح تسميته طعاماً. لو دققنا النظر في حالة المسكين، وكيف صاحبها

الطعام في أغلب الآيات، وكيف رغب ربنا، وحث على إطعام الطعام، وخصوصاً في حالة هذا المسكين سندرك بكل سهولة هذا المعنى الخفي لمعنى الطعام وهو يشمل الغذاء والعلاج والشراب أيضاً.

لفظ الطعام يصف حالة معينة كما نقرر دائماً، مثل جميع الألفاظ في القرآن، ومثال ذلك لفظ المال، وهو لفظ يصف حالة ما يمتلكه الإنسان ويستطيع التصرف فيه؛ النقود والذهب والعقارات والمنزل، وكل ما يملكه الإنسان هو في الحقيقة مال للإنسان.

بعد فهم مدلول كلمة مسكين وكلمة طعام أعتقد أنه قد حان الوقت لفهم مدلول الآية الكريمة التي نتحدث عن ذلك الشخص الذي لا يحض على طعام المسكين، والحض هو مستوى ضعيف من الخيرية، ولا يرتقي إلى مرحلة الإطعام نفسها، هي عملية حث وتشجيع لا غير. هذا الشخص الذي يكذب بالدين ولا يعمل داخل أي منظومة وينكرها، ليس لديه الحد الأدنى من الوازع الأخلاقي الذي يجعله يحض على طعام المسكين. إنه لا يبالي بالمهام الموكلة إليه، إذ لا يقوم بواجبه فقط بل ليس لديه دافع أو ضمير يحركه لمجرد أن يساعد هذا الضعيف في أبسط احتياجاته إن كانت طعاماً أو دواءً.

كل مسئول وقعت تحت مسؤولياته مهام معينة، وفق قوانين وضوابط، ثم يضرب بهذه القوانين عرض الحائط وينكرها، هو في الحقيقة هذا الخبيث الذي نتحدث عنه السورة الكريمة.

الآية الرابعة: (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ)

هذه هي الآية الشهيرة التي لا يتذكر الناس سواها، والتي أثارت جدلاً كبيراً في أوساط المشككين، وحتى بعض المثقفين؛ إذ إنها تتوعد الويل للمصلين الذين يسهون عن الصلاة، ولم يرد ذكر الويل لمن يشرب الخمر مثلاً.

مدلول لفظ الصلاة في حد ذاته يعني حالة من الاتصال، وإقامة علاقة ما، فإذا نسبت الصلاة إلى لفظ إقامة أو إلى ربنا يكون معناها الاتصال بالله، وهي الصلاة الشعائرية، أما إذا لم تنسب لشيء فلا بد أن تفهم من خلال السياق. نلاحظ أن التعبير القرآني عندما كان يعبر عن الصلاة الشعائرية كان يستخدم وأقيموا الصلاة، أما إذا كان يقصد الناس الذين يؤدون

هذه الشعيرة فكان يصفهم بمقيمي الصلاة؛ والصلاة على ذلك أيضاً هي حالة من الاتصال وإقامة العلاقة مع الخالق.

(الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (سورة البقرة: الآية 3).

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّائِعِينَ) (سورة البقرة: آية 43).

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سورة البقرة: آية 110).

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ) (سورة البقرة: آية 277).

المصلين الذين توعدهم الآية الكريمة هم من لهم علاقات واتصالات، لكن مع من هذه العلاقات والاتصالات؟ من يقرر هذه العلاقات والاتصالات هو التعبير القرآني الذي حل في أول السورة (أرأيت الذي يكذب بالدين).

ما دام أن أصحاب هذه العلاقات يكذبون بالدين، فلا يمكن أن يكون المقصود هنا الصلاة الشعائرية، بل على النقيض تماماً، يصبح المقصود هنا القوانين التي يعمل خلالها هؤلاء ويخضعون لها بقوة المجتمع، وهذه القوانين حكمت العلاقة بين الموظف أو المسئول والمتعاملين معه.

الآية الخامسة: (الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ)

من خلال هذه الآية الكريمة سنحاول فهم لفظ ساهون، وهو لفظ ليس مرادفاً للفظ ينسون من النسيان، وإنما يعني، بحسب قاموس اللغة، التغافل أو الغفلة، والفرق بين النسيان والغفلة؛ أن النسيان لا يكون بقصد، بينما الغفلة تكون مقصودة، أو إهمال ما لا يجب إهماله. التوعده جاء في الآية، لأولئك الذين لديهم مسؤوليات وعلاقات مع غيرهم، وهم على ذلك يتغافلون ويهملون ولا يقومون بواجبهم إلا تحت ضغط. القيام بواجبهم تحت ضغط

توضحه الآيات التي تصف طبيعة هؤلاء، حيث التجبر على الضعيف الذي لا يملك سنداً، وليس لديهم الحد الأدنى من الإنسانية الذي يؤهلهم حتى للث على حاجة المحتاج الضرورية (المسكين)؛ وكذلك الآية التالية تزيد الأمر وضوحاً.

الآية السادسة: (الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ)

الرياء معروف وهو فعل الشيء بشكل ظاهري وليس حقيقياً بسبب قوة ما. قد تكون هذه القوة رأياً عاماً حيث لا يقوم المسئول بأداء مهامه إلا خوفاً من الرأي العام؛ وقد تكون كاميرا مراقبة، أو أي نوع من القوة الجبرية التي تجبر هذا المسئول على فعل الشيء دون حاجة داخلية حقيقة تدفعه لفعل الأمر وإنجازه، أو حتى جعله يسير في مساره الطبيعي.

الآية الأخيرة (وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ)

الماعون في اللغة أصلها "معن" وأصلها يعني السهولة والجريان، فيصبح الماعون هو الأشياء التي من طبيعتها السهولة واليسر. الأشياء التي من طبيعتها السهولة واليسر؛ يقف هذا الشخص عائقاً في طريقها ويمنعها. هل رأيت أخص من شخص كهذا، لا يعمل وفق القوانين ويضيع حقوق الناس ويصعب كل سهل، ولا يعمل بشكل صحيح إلا تحت ضغط. ليس لديه الحد الأدنى من الأخلاق؛ هذه النوعية من البشر استحققت بجدارة التوعد بالويل بسبب ما يسببونه من ألم وحتق في المجتمع، ولما ينشرونه من إحباط ويأس بين أفرادهم.

عن طريق فهم لفظ الماعون نكون قد وضعنا اللمسة الأخيرة لفهم هذه السورة العظيمة التي ترشد الناس وليس المؤمنين فقط إلى الطريقة المثلى لتسهيل حياتهم وشؤونهم، وهي الالتزام بالمنظومة التي تسير الحياة، وعدم الانفراد والعمل حسب الأمزجة والهوى.

الفصل التاسع: انشروا

سنعيش في رحاب خمس آيات من آيات سورة المجادلة تعطي معاني ومفاهيم مختلفة تماماً عما فسرهُ المفسرون وخطه التقليديون، إذ نتحدث الآيات عن التخطيط للمستقبل وإدارة النقاشات من خلال ما يسمى باللجان أو المجالس؛ بل وتحدث عن المعارضة في هذه المجالس. الآيات محل دراستنا وبحثنا هي الآيات رقم 7 وحتى رقم 11.

الآية الأولى

(لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا آدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا تُمَّ يَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (سورة المجادلة: الآية 7).

ما سنحاول فهمه في هذه الآية هو مدلول كلمة نجوى، ومدلول الأرقام التي ذكرت في الآية الكريمة. رغم أن التفسيرات التقليدية تقول إن النجوى هي الحديث سراً، أو الحديث في الخفاء، إلا أن أصل كلمة النجوى في اللغة ومدلولها في كتاب الله يشير إلى شيء آخر تماماً. أصل كلمة النجوى هو (نجو) ولها، كما في قواميس اللغة، أصلان: الأصل الأول هو كشف وطرح، والأصل الثاني سر و خفاء. لو نظرنا إلى الأصلين نجد أنهما متضادان، أحدهما يعني كشفاً، والآخر يعني سراً أو سترًا، وهذا التضاد تبعاً للمنهج الذي نستخدمه غير وارد؛ إذ لا يمكن أن تحمل الكلمة الواحدة معنيين متضادين (راجع الجزء الثاني - كتاب تلك الأسباب). تبعاً لذلك نرجح أن أصل كلمة نجو هو الكشف، وذلك واضح تمام الوضوح من خلال الآية القرآنية التالية:

(أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ) (سورة التوبة: الآية

78).

لا يمكن أن تكون النجوى هي أيضاً سر، فكيف أن الله يعلم سرهم وسرهم، ولكن المناسب للمقال أن الله يعلم سرهم ومكاشفاتهم. المكاشفة تعني الحديث عن المستقبل. النجوى تبعاً لأصل الكلمة وتبعاً لمدلول الكلمة في كتاب الله سنجد أن لفظ النجوى من ضمن صفاته القلق والتوتر، ونستطيع فهم ذلك من خلال وصف ربنا للنجوى بأنها من الشيطان؛ سنأتي على هذه الجزئية عندما نتحدث عن الآية الكريمة التي وصفت النجوى من الشيطان.

لفظ النجوى يعني الحديث عن المستقبل المحمل بالقلق والتوتر، وهو حديث بطبيعة الحال ليس طيباً لما له من أثر غير طيب على النفوس؛ بسبب ما يتركه من هموم، وخصوصاً إذا كان أحد أطراف هذه النجوى متشائماً. يطمئن الله عباده في نهاية الآية بأنه معهم حتى يزيل همومهم وتزداد لديهم جرعة الاطمئنان. السؤال هنا ما علاقة الأعداد التي ذكرت في الآية الكريمة وما دلالتها، إذ يقول ربنا

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ).

في هذه الجزئية يقول المشككون من أهل اللغة في كتاب الله إن القرآن ليس بليغاً أبداً؛ إذ كيف يقول ثلاثة وهو رابعهم، ولا خمسة هو سادسهم، ثم يقول ولا أدنى من ذلك أو أكثر؛ لماذا كل هذا الإطناب، ولماذا لم يقل منذ البداية ما يكون من نجوى بين الناس إلا هو معهم مثلاً، أو ذكر عدداً واحداً، وقال أدنى من ذلك أو أكثر؛ مثال: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر؛ ما فائدة أن يذكر عبارة خمسة إلا هو سادسهم وماذا أضافت؟

هذه الإشكالية تعتبر حجر عثرة أمام أهل اللغة، ولا يمكن الخروج منها إلا بفهم سياق الآيات وموضوعها.

من خلال قراءتنا لهذه الآية الكريمة، التي تصف الحديث والجدال الدائر في المجتمع عن المستقبل، وما يحمل هذا المستقبل (الخطط المستقبلية) وغالباً ما يكون الحديث عن تدليل

صعاب أو إنجاز مهام أو حل مشكلات. هذه هي طبيعة لفظ النجوى الذي قلنا إنه الحديث عن المستقبل المحمل بالقلق والتوتر. هذه النجوى تخص المجتمع سواء كان هذا المجتمع أسرة صغيرة، أو اتحاد ملاك في بنائة، أو شركة من عشرة أفراد، أو مجلس حي، أو قرية، أو حتى دولة بالكامل، أو هيئة دولية.

إنها الإشارة القرآنية إلى فريق العمل الذي يقوم بمناقشة التطوير والتخطيط، أو اللجنة التي يشكلها المجتمع لبحث أمر ما. هذا الإجراء معروف ومتبع في كل المجتمعات؛ فعند الرغبة في حل مشكلة أو التخطيط لأمر مستقبلي فإن الأسلوب الأمثل للتخطيط هو تكوين فريق أو لجنة لبحث الأمر وتقديم المقترحات.

الأعداد التي ذكرت في القرآن تبدو أنها تشير إلى الحد الأدنى والحد الأعلى لتكوين فريق مثالي يبحث أمر من أمور المستقبل. لا مانع أبداً أن يكون أقل أو أكثر من ذلك ولكن الآية تضع وصية بالعدد المثالي. إذ العدد ثلاثة هو الحد الأدنى للفريق، والعدد خمسة هو الحد الأعلى للفريق، ويبدو أن هذا هو الشكل المثالي للفريق. على ذلك يبشرهم الله ويذكرهم بأنه معهم كنوع من الاطمئنان، ولا يكون هذا الاطمئنان إلا في حالة أن النجوى نفسها تحمل قلقاً وبعض التوتر كما ذكرنا؛ لذا يقول الله للمؤمنين به أنه معهم في كل حال.

الآية الثانية

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَجَّجُونَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوكَ بِمَا لَمْ يُحْيِكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (سورة المجادلة: الآية 8).

قبل أن نحاول فهم مجمل الآية لا بد في البداية من فهم كلمة حيوك، وما معنى بما لم يحيك به الله. أصل كلمة حيوك هو الحياء والياء والحرف المعتل، ومعناها عكس الموت. قاموس اللغة يقول إن لكلمة حي معنى آخر وهو الاستحياء، وهو عكس الوقاحة. للأسف

لفظ الاستحياء ليس هو لفظ الحياء المعروف، وسنكتشف وجود خطأ في توصيف حال هذه الكلمة من خلال كتاب الله.

ورد أصل كلمة حيوك وهو حيي في كتاب الله في ثلاث صور أولها الحياة، والثانية يستحي، والثالثة حيوك، التي نحن بصدددها، بالإضافة إلى لفظ يستحيون الذي وصف فعل فرعون وجنوده الواقع على نساء بني إسرائيل.

مدلول كلمة حي

الحياة كما نعلم هي حالة غير مادية، قل إن شئت طاقة غير مرئية ينفخها الله في الشيء الميت فيحييه. إننا نتحدث عن حالة إمداد شيء ذي قدرة إيجابية، أو بمعنى أكثر وضوحاً مد قوة معينة أو نوع من الطاقة. حتى يمكننا التأكد من هذه الفرضية، وهي أن لفظ حيي أصله مد شيء ذي فائدة، أو مد طاقة نافعة (حيوية) لا بد أن نطبق هذه الحالة على كل آيات القرآن الكريم التي ذكر فيها جذر الكلمة حيي ونلاحظ الفرق.

لفظ الحياة ويحيي، وكل ما يتعلق بالحياة، مطابق تماماً لمفهوم المد بقوة أو بطاقة حيوية؛ كل كان ميت حصل على دفعة حيوية، أو نفخة حيوية لو جاز لنا التعبير، انتقل من حالة الموت والسكون والثبات إلى حالة الحيوية والحياة.

مدلول لفظ يستحي

لفظ يستحي الذي جاء من خلال كتاب الله يصف حالة من الخجل، بينما يستخدم الناس لفظ الحياء تقريباً بنفس معنى الاستحياء، وهو وصف حالة من الخجل ليس لفظاً قرآنيّاً. النتيجة التي حصلنا عليها من تحليل الألفاظ انتهت إلى أن لفظ الحياء لا يعني حالة من الخجل، كما يعتقد الكثيرون، بل يعني الحالة العكسية وهي حالة خلاف الخجل. اللفظ الذي يصف حالة الخجل هو الاستحياء، كما جاء في القرآن الكريم، أما لفظ الحياء فهو توصيف بشري خالص لا يصف حقيقة المقصود.

أصل الكلمة هو حيي، ثم مع إضافة الألف والسين والتاء التي تفيد الطلب تحول الفعل حيي الذي يعني مد طاقة أو إمداد قوة معينة إلى فعل، يعني طلب مدد من القوة أو من

الطاقة. أن أهل اللغة يقولون إن دخول الألف والسين والتاء على الفعل تفيد ثلاث حالات هي: الطلب، والتحول، ووضع الصفة على المفعول من قبل الفاعل. من خلال تدقيق هذه الحالات نجد أنه يمكن ضمها في حالة واحدة، وهي أن دخول الألف والسين والتاء على الفعل تفيد الطلب. مثال ذلك فعل غفر واستغفر. الفعل غفر هو الفعل الذي يقوم به الفاعل لكي يغفر شيء ما؛ بينما الفعل استغفر نجده يفيد طلب المغفرة حيث دخول الألف والسين والتاء فادت الطلب هنا.

من هنا سنجد أن فعل استحي يعني طلب مدد أو معونة أو طلب تحفيز معين. عندما يقول ربنا إنه لا يستحي يعني لا يطلب المدد والعون أو تحفيزاً من أحد لضرب مثل كهذا، وإنما إرادته وقدرته مطلقة وعلمه محيط. عندما حاول المفسرون تفسير (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة) جاءت أقوالهم في أغلبها على قولين:

يستحي بمعنى يأخذه الحياء أو بمعنى يخشى كما جاء في تفسير الطبري (وأما تأويل قوله: "إن الله لا يستحي"، فإن بعض المنسويين إلى المعرفة بلغة العرب كان يتأول معنى "إن الله لا يستحي": إن الله لا يخشى أن يضرب مثلاً ويستشهد على ذلك من قوله بقول الله تعالى: وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ (سورة الأحزاب: آية 37)، ويزعم أن معنى ذلك: وتستحي الناس والله أحق أن تستحيه - فيقول: الاستحياء بمعنى الخشية، والخشية بمعنى الاستحياء) انتهى التفسير.

فعل استحي الذي استخدمه القرآن لوصف ما يسميه الناس "الحياء" هو في الحقيقة يصف الحالة التي يكون عليها الشخص عندما يخجل أو يحدث له تردد في أمر ما (لفظ حي الذي يصف مدداً أو قوة أو طاقة إذا أضيف إليه مقطع ألف وسين وتاء أصبح استحياء وهو طلب قوة أو طاقة أو دعم معين). الشخص الذي يستحي هو شخص حرقياً يطلب عوناً أو مدداً أو تحفيزاً لفعل ما يريد فعله، وقد يكون هذا العون أو المدد في صورة كلمة طيبة أو

ابتسامة، أو أي نوع من أنواع التشجيع المعنوي. كلمة استحياء هي طلب التشجيع والعون حتى يستطيع الشخص فعل ما يريد فعله.

عندما قدمت فتاة مدين إلى موسى عليه السلام لتخبره أن أباه يدعو له ليحزيه أجر ما سقى لهما كانت تمشي على استحياء، وكأنها تطلب قوة تعينها على ما ستفعله، وهذا هو حقيقة الاستحياء، طلب مدد أو قوة أو طاقة تعين صاحبها على أداء الفعل المتوقع.

(جَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا

فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) (سورة القصص: آية 25).

كلمة الحياء نفسها لم ترد في كتاب الله بالمرّة، وهذا ما نسمية في منهجنا الفرق بين التسمية القرآنية الحقيقية والتسمية البشرية الاعتبارية. من خلال فهم مدلول كلمة حي وفهم كلمة الحياة والاستحياء سنجد أن لفظ الحياء نفسه لا يصف حالة النجل التي نعرفها، وهو وصف غير دقيق، إذ تبعاً لمدلول الكلمة القرآني سنجد أن كلمة الحياء تصف قوة ومدداً وعوناً بخلاف كلمة الاستحياء التي تصف طلب هذه القوة والعون والمدد.

مدلول كلمة يستحيون

لفظ يستحيون التي جاء يصف ما يفعله آل فرعون بنساء بني إسرائيل يسير على نفس النسق، ومعناها أن فرعون وجنوده يطلبون أو يأخذون نساء بني إسرائيل الصغيرات اللاتي لديهن قدرة وقوة وطاقة، وليس النساء الضعيفات أو المتقدمات في السن.

مدلول لفظ حيوك

لفظ حيوك الذي نحن بصددده هو أيضاً يصف حالة من المدد والدعم - كما قلنا - المعنوي وليس جنس التحية التي نعرفها. سميت التحية تحية لأن من صفاتها وخصائصها تقديم الدعم والقوة، أو إذا شئت قل نشر الطاقة الإيجابية بين الناس. دعونا نرجح قليلاً على مسألة

التحية، وما يفعله الناس في شأن التحية ويظنونه من الدين، ومن التوجيهات الإلهية، وهي على خلاف ما أراد الله.

يقول ربنا (وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) (سورة النساء: آية 86).

التحية هنا جاءت بلفظ عام، ولم تخصص شيئاً معيناً، كما يقول المفسرون إن المخصوص هو السلام عليكم. لا يمكن أن ننكر أن لفظ السلام عليكم من التعبيرات ذات المردود الطيب على النفس لمن يفهم ويعي مدلولها. لكن لا بد أن نفهم معنى التحية، ومعنى حَيِّتُمْ كما ذكرنا لنفهم كيفية التعامل مع بعضنا بعضاً دون مزايدات، وحتى نحقق مراد الله ونتجنب الوقوع في مخالفة التوجيه الرباني.

يقول الله إذا حَيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ، وتعني - كما أسلفنا - إذا تلقيتم مدداً أو عوناً معنوياً أو طاقة إيجابية في أي صورة، مثل كلمات أو إيجاءات أو أفعال، فردوا هذه الطاقة والمدد والعون بأحسن مما تلقيتم. ذلك يعني عندما يلتقيك شخص أو حتى مقيم معك ويدعمك بعبارة إيجابية، أو إطراء، أو مدح، أو إلقاء التحية؛ وجب عليك أن تبادله هذه التحية وهذا الدعم بشكل أفضل مما قدمه لك.

على سبيل المثال إذا أثنى شخص على فعل فعلته وجب عليك أن تقدم له الشاء على ما قدم وتزيد في ذلك، وإذا لقيك شخص وقدم لك التحية بأي شكل وجب عليك أن ترد عليه هذه التحية بشكل أفضل. لا شك أن إفشاء السلام والتحية والابتسام بين الناس بعضهم بعضاً يدعم الطاقة الإيجابية، ويزيد الشعور بالراحة والطمأنينة بين الناس، وهذا هو عين التوجيه القرآني.

ماذا يحدث عندما يلقي أحدهم تحية غير السلام عليكم؟

ردود أنماط البشر ستختلف باختلاف الخلفيات الثقافية والخزون المعرفي لديهم. النمط الأول سيقوم برد التحية بغض النظر عن صيغة التحية. النمط الثاني قد يرد بلفظ السلام عليكم

في محاولة للفت نظر الشخص الآخر أن التحية المعتمدة إسلامياً هي السلام عليكم. النمط الثالث قد لا يرد التحية من الأساس.

النمط الأول هو النمط الوحيد الذي اتبع المنهج القرآني حيث بادل الدعم بالدعم وببادل الخير بالخير، كما قال ربنا (خَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا).

النمط الثاني يحتاج للتعلم والتريث بدلا من الفدلكة المؤذية والتنطع السخيف. هل عندما تتقمص دور الأستاذ في موضع التحية وتحاول أن تعطي نصيحة هل بذلك يصبح السلوك طيب أم منفر. هل مثل هذا السلوك سلوك يدعم الطاقة الإيجابية؟ هل هذا السلوك يمنح الناس راحة وهدوءاً ودعمًا نفسيًا؟ أم أنه سلوك يشعرهم بانجلى والتوتر؟ قد يرى احدهم أن فعل كهذا فعل طيب وانه يرشد الناس للخير، هذا الإنسان يحتاج لكي يقرأ عن اختلاف الناس وخلفياتهم الثقافية، حتى لا يظن أن العالم حدوده الشارع الذي يسكن فيه.

النمط الثالث وهو الذي لا يرد التحية من الأساس هو نمط ضل طريقة من الحياة البدائية الأولى إلى مجتمع الإنسانية فلا يجب التوقف عنده كثيراً لأنه نمط منقرض بطبيعة الحال ولم يجدي معه أي نوع من الحديث أو المنطق.

عدم فهم اللفظ القرآني بشكل صحيح خلق أجيالاً تنشر الكراهية وهي لا تدري، وتصد الناس عن منهج الله وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. لا شك أن تحية السلام عليكم تحية طيبة، ولكن هذا لا يعطيك الحق في أن ترفض تحية الناس، وبدلاً من العمل بالمنهج القرآني الذي حث على نشر الطاقة الإيجابية نعتنق منهجاً مخالفاً، ونقوم بنشر الطاقة السلبية بين الناس بحجة تعليمهم في وقت ليس مناسباً للتعليم وليست حاجة ملحة مقابل رد التحية. بعد فهم معنى حيوك وأصلها نعود مرة أخرى للآية الكريمة التي تتحدث عن النجوى.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَهَوْنَا عَنِ النَّجْوَى ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نَهَوْنَا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ جَهَنَّمُ يَصَلُونَهَا فَئِسَّ الْمَصِيرُ) (سورة المجادلة: الآية 8).

يشير كتاب الله إلى أولئك الذين يتحدثون عن الأحداث المستقبلية والمشاريع المستقبلية بشكل غير طيب، أو بشكل تأمري كما أوضحت الآية؛ إذ تقول إنهم يتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، ثم إذا جاء هؤلاء بثوا ودعموا بأشياء خلاف ما أمر بها الله، فإذا كان الله سبحانه وتعالى يدعم عباده بالتواصل والرحمات، والعون فهؤلاء على عكس ذلك يبثوا التشتت والقنوط والعوز. هؤلاء أصحاب الخذلان والمثبطون بشكل تأمري، توعدهم الله بنار جهنم وبئس المصير.

الآية الثالثة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (سورة المجادلة: الآية 9).

بعد فهم مدلول لفظ النجوى وتوضيحه لن نجد عقبة في فهم هذه الآية الكريمة المباشرة، إذ ترشد هذه الآية الكريمة الناس إلى الطريقة المثلى التي عليهم امتثالها حيال أمر مناقشة أو الحديث عن الأمور المستقبلية، وإن كان الحديث عن المستقبل يحمل نوعاً من القلق، فلا يجب أن يترجم هذا القلق إلى تجاوز ويجب تجنب التعدي والبعد عن المعاصي.

مناقشة أمور المستقبل وما تحمله من قلق قد يكون مفهوماً في كثير من الأحيان؛ ولكن لا يجب ألا تدفع هذه النجوى الإنسان أو المجتمع إلى اتخاذ خطوات فيها من الإثم والعدوان، وتحمل قدرًا كبيراً من المعاصي. هذا المثال واضح بشكل لا يمكن إنكاره فيما يعرف باتخاذ بعض المواقف الخاطئة بحجة تأمين المستقبل، أو بحجة أن الطرف الآخر كان ينوي فعلاً بشكل معين. كتاب الله يقول للناس لا يدفعكم هذا الإحساس إلى النجوى بالشر، ولكن

قدموا الخير واجعلوا الله أمامكم، واعلموا أن الله معكم كما ذكرت الآية السابقة. الآية التالية ستزيد الأمر وضوحاً عن وصف كلمة النجوى ومدلولها.

الآية الرابعة

(إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (سورة المجادلة: آية 10).

إذا كنا قد استطعنا فهم كلمة النجوى بأنها المكاشفة أو الحديث عن المستقبل، فإن هذه الآية الكريمة تضيف بُعد القلق للفظ، إذ يقول الله إن النجوى من الشيطان. يصف ربنا النجوى بصفة عامة، ولم يقل إن بعض النجوى من الشيطان، فلو أن التعبير القرآني قال إن بعض النجوى من الشيطان لكان الأمر مختلفاً. ماذا يمكن أن يضيف لنا وصف حالة النجوى أنها من الشيطان؟

آلية عمل الشيطان تقوم على مبدئين أساسيين هما التخويف والتزيين. أما التخويف كما في الآية التالية:

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ) (سورة آل عمران : الآية 175). وأما التزيين فقد ورد في سورة سبأ:

(وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزِينَهُ لِمُ الشَّيْطَانِ أَعْمَالُهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ) (سورة سبأ: الآية 24).

إذا كان التزيين غالباً ما يرتبط بالحاضر فإن التخويف في الأعم يكون من المستقبل، ولذلك يستخدم الشيطان هاجس الفقر والعوز ليدفعكم نحو الانحراف:

(الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (سورة البقرة: الآية 268).

التخويف من المستقبل هو سبيل من سبيل الشيطان، يُورث هذا الهاجس القلق لدى الإنسان مما يجعله في حالة غير مستقرة؛ هذه الحالة غير المستقرة هي من الدوافع الرئيسية لفعل

المنكر؛ لذلك إذا كانت النجوى هي مناقشة أمر المستقبل، وإذا كانت النجوى من الشيطان فلا بد أن يكون من صفات وخصائص لفظ النجوى القلق والتوتر.

الآية الخامسة

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (سورة المجادلة: الآية 11).

سورة المجادلة من بدايتها تدور حول موضوع الحوار والجدال واسمها المجادلة لا يحتاج إلى بيان، وقد بينا أن النجوى هي مناقشة أمر المستقبل وليست تعني الحديث سراً كما فسرها المفسرون، وهذه المناقشة بطبيعتها يغلب عليها القلق والتوتر، والآن نختم بهذه الآية العظيمة التي تشير إلى قواعد إدارة حوار في شأن من شئون المجتمع، سواء كان هذا الحوار والمناقشة تتم داخل إدارة تتكون من ثلاثة أفراد أو على مستوى وطن بأكمله.

لا يمكن بحال من الأحوال فصل الآية الكريمة عن بعضها بعضاً، أو عن سياق الآيات السابقة التي تناولت موضوع الحوار والمناقشة، ولا يمكن أيضاً أن نفسير الآية الكريمة دون الأخذ في الاعتبار الإشارة الربانية إلى أهل العلم الذين قال ربنا عنهم: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ).

ثلاث كلمات يجب أن نبحث معناها حتى يمكننا فهم المقصود من هذا الإرشاد الرباني، وهي كلمة تفسحوا وكلمة مجالس وكلمة انشزوا.

مدلول كلمة تفسحوا

أصل كلمة تفسحوا هو فسح، وكما جاء في قاموس اللغة، تعني السعة والاتساع، كما تعودنا أن الكلمات والألفاظ في كتاب الله تصف حالة معينة، ولا تصف جنساً، وعليه فإن لفظ تفسحوا يصف حالة من التوسع والتبسط، أو إعطاء فرصة، سواء كانت هذه الفرصة في

شكل مادي أو شكل معنوي. المقصود هنا في الآية الكريمة هو أن تعطي فرصة ومجالاً لغيرك في المجالس. سيزداد الأمر وضوحاً مع بحث كلمة المجالس .

مدلول كلمة مجالس

أصل كلمة مجالس هو جلس وتعني الارتفاع في الشيء، لذلك وضع الجلوس المعروف لا يسمى جلوساً إلا إذا انتقل المجالس من وضع النوم أو الاضطجاع إلى وضع القعود، أما الانتقال من وضع القيام إلى وضع الجلوس يسمى قعوداً .

إذن الجلوس هو الارتفاع في الشيء، والمجالس تبدو وكأنها الكيان الذي يحوي هؤلاء الجلوس، ويبدو أيضاً من أصل الكلمة أنها من خاصيتها الارتفاع أو الرفع بصفة عامة، وأرجح بشدة أن المجالس هي الكيانات التي تُرفع فيها الأشياء، أو بمعنى أكثر وضوحاً، رفع أمر ثم مناقشته. لفظ مجالس الذي جاء في كتاب الله يبدو موافقاً تماماً للكيانات التي يسميها الناس مجالس في عصرنا الحديث، مثل مجلس القرية، أو مجلس المدينة، أو مجلس المحافظ، أو مجلس الشعب، أو الحكم، أو حتى مجلس إدارة شركة.

هذا التوافق العجيب بين المسمى القرآني، وقدرة النفس البشرية على التسمية بشكل صحيح أحياناً أشرنا إليها في الجزء الثاني من كتاب تلك الأسباب، حيث قدرة النفس المذهلة على التسمية، والتي يبدو لنا أنها من النبع الإلهي الأول الذي قرره رب العالمين عندما قال علم آدم الأسماء (راجع الجزء الثاني فصل علم آدم الأسماء).

هذه القدرة العجيبة تجدها في أغلب المسميات التي تتوافق تماماً مع خصائص المسمى وصفاته، والتي عبر عنها المنهج القرآني بأنها مسميات سميت بسلطان، أو كما ذكرنا بقانون التسمية الذي أودعه الله عباده من لدن آدم. على نفس النهج هناك تسميات لا تتبع هذا القانون، وقد عبر عنها القرآن بالقول إنها مسميات ما أنزل الله بها من سلطان.

لا يمكن التفريق بين المسمى الذي يتبع القانون الإلهي، والمسمى الذي لا يتبع القانون إلا من خلال البحث والتنقيب، وسبر أغوار المعرفة حتى يتبين الصواب من الخطأ. إنه التعليم بالقلم الذي ذكره ربنا في كتابه، الذي أفردنا له فصلاً كاملاً في الجزء الثاني من كتاب تلك الأسباب - فصل علم بالقلم).

تفسير الكلمات القرآنية منفردة عن السياق، وعدم ضم بعضها إلى بعض جعل آيات القرآن منعزلة عن بعضها بعضاً، وكأنها تتحدث عن الغاز بينما استخدام المنهج العلمي ذي الفرضيات المحددة في فهم اللفظ القرآني، والذي يتعامل مع اللفظ على أنه وصف لحالة معينة بدلاً عن الفهم التقليدي الذي يعطي المسمى مدلول دون دلالة حقيقية في كثير من الأحيان. مثال بسيط على هذه الفرضية: عند سماع لفظ السماء فإن أول ما يتبادر إلى الذهن شكل سقف يحيط بالأرض، وهذا ما يسمى تجسيد المسمى لسهولة فهمه، بينما الحقيقة أن الاسم يصف حالة مجردة، فنجد أن لفظ سماء يصف حالة ارتفاع من صفاته وخصائصه الإحاطة. يفهم لفظ السماء بحسب سياق التعبير، فمن الممكن أن تكون الغلاف الجوي، أو أي طبقة من طبقات الغلاف الجوي، ومن الممكن أن تكون سقفاً لبنانية، ومن الممكن أن تصف حالة غير مادية مثل حدود معلوماتك، أو تطلعاتك، وهكذا يجب أن نفهم في البداية الحالة التي يمثلها المسمى، ثم نحاول فهم المدلول من خلال فهم السياق.

على ذلك يمكن فهم المجالس على أنها أماكن الاجتماعات، ومناقشة الأمور على كل المستويات، وسنضع اللمسة الأخيرة على هذا المفهوم من خلال فهم كلمة انشزوا التي وردت في الآية الكريمة: (وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فَانشُرُوا) فما هو النشوز؟

مدلول لفظ النشوز

النشوز أصله نشز، كما في قاموس اللغة، يعني الارتفاع والعلو، والنشز هو المكان المرتفع. عندما فسر المفسرون كلمة انشزوا قالوا إنها تعني ارتفعوا إلى الصلاة، ومنهم من قال تعني قوموا إلى القتال، ومنهم من قال تعني قوموا إلى الخير. لا أدري على وجه الخصوص ما علاقة كل

هذه التفسيرات بسياق الآية، وخصوصاً مع ذكر العلم ودرجاته في نهاية الآية الكريمة، وكذلك ما علاقة النشوز كذلك بالآيات السابقة.

قاموس اللغة لم يبين بشكل قاطع معنى الكلمة، ولكن بفضل الله سنجد أن مدلول النشوز واضح تماماً في كتاب الله، وخصوصاً من خلال الآية الكريمة التي تتحدث عن عدم طاعة الزوجة لزوجها.

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنِ اطَّعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا) (سورة النساء: الآية 34).

النشوز في الآية الكريمة هو عكس الطاعة، والطاعة في مضمونها تعني الموافقة؛ فيصبح النشوز عدم الموافقة أو عدم الاتفاق أو ما نسميه نحن بالمعارضة.

ها قد وضحت المفردات واستطعنا فهم سياق الآية الكريمة التي تتحدث عن طريقة إدارة الاجتماعات وفن المناقشة. لمحة أخيرة من خلال التعبير القرآني (إذا قيل لكم) الذي جاء في بداية الآية الكريمة يوحي ونفهم منه أن من متطلبات هذه الاجتماعات أن يكون لها مدير من مهامه تنظيم عملية النقاش، من إتاحة الفرصة للمتحدث أن يعبر عن فكرته (تفسحوا في المجالس)، وإتاحة الفرصة للمعارضة أن تبدي فكرتها (انشزوا فانشزوا) في شكل منظم؛ لكي لا يطغى أحدهما على الآخر. إنه التوجيه القرآني السليم الذي يحث أتباعه على إدارة النقاش بشكل سليم وصحي فيما يخص أمورهم المجتمعية، وخاصة المستقبلية منها. ها نحن نرى المعارضة قد أسس له المنهج القرآني، ورتب أوراقها، وأرشد إلى أنها جزء لا يتجزأ من عملية إدارة أي نقاش يخص المجتمع، أما من يتجرأ ويقول إنه لا توجد معارضة في الإسلام، أو يعتقد أن المعارضة شكل من أشكال الهدم، فهو معذور بسبب الفهم المقلوب للفظ القرآني.

لم تترك الآية الكريمة عملية النقاشات والاجتماعات وطرح الأفكار ومعارضتها دون أن تلفت النظر إلى متطلب أساسي من متطلبات تلك المناقشات؛ وهي الإيمان، والعلم، وفهم درجات العلم: (يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ). لا بد أن نتساءل عن علاقة الإيمان والعلم ودرجات العلم بإدارة النقاشات، وتأسيس المجالس التي تتولى التخطيط والتنظيم في المجتمع. إن كان الأمر واضحاً ولا يحتاج إلى بيان، إلا أننا سنخرج عليه قليلاً لبيان ما هو الإيمان، ولماذا العلم من متطلبات تلك المجالس.

لفظ الإيمان يعني الثقة والاطمئنان والرسوخ في الشيء، فإذا جاء الإيمان مقروناً بالله فهو يعني الثقة والاطمئنان ورسوخ الاعتقاد بوحداية ووجود الله، أما إذا جاء في سياق آخر فلا بد أن يفهم من خلال هذا السياق. الإيمان في الآية الكريمة جاء مرتبطاً بعملية حوار مجتمعي حول شأن من شئون المجتمع، فلا بد أن يكون الإيمان والعلم متعلقاً بهذه العملية. إنه التعليم الرباني الذي يرشد عباده إلى رفعة شأن الإيمان، والذي عرفناه بالثقة والاطمئنان والرسوخ، وهو متعلق بالشأن الذي سيبحثه هذا المجلس. هذه الثقة وهذا الاطمئنان وهذا الرسوخ لو حاولنا ترجمته إلى لغتنا المعاصرة فالمقصود هو الخبرة، إذ يكون صاحبها أكثر وثوقاً واطمئناناً بالمعلومات المتاحة لديه في هذا المجال. المتطلب الثاني هو العلم، ولا شك أن العلم متطلب لا يخفى على أحد، ويرشد كذلك كتاب الله إلى رفعة أولئك الذين تدرجوا في العلم؛ هذا التدرج لا شك يمنحهم قدرة ودراية ورؤية أشمل للأمر المراد مناقشته.

التوجيه الإلهي باستخدام أهل الخبرة والعلم في إدارة المجتمعات وحل مشاكلها ومناقشة قضاياها، تم استبداله في كثير من المجتمعات الضحلة معرفياً، وغير المحصنة ثقافياً، بأهل المال أو أهل القبيلة. فبدلاً من أن يتصدر المشهد أكفاء القوم؛ تصدر المشهد الانتهازيون والأفقون، والذين لا ينفقون أموالهم إلا رثاء الناس.

الفصل العاشر: وَعَلَّمَنَا مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا

هل الإنسان قادر على علم الغيب؟ هناك دلالات وإشارات على أن كثيراً من الأمور الغيبية يمكن اكتشافها عن طريق العلم، سواء كان هذا الغيب من الماضي أو من الحاضر أو حتى من المستقبل. ليس حديثاً يفترى، ولكن تصديق كتاب من لدن حكيم خبير.

القصة الأشهر على الإطلاق، قصة العبد الصالح، الذي التقاه نبي الله موسى ليتعلم منه علماً لم يتعلمه من قبل؛ ثلاثة مشاهد قصها كتاب الله، تحمل الكثير من التساؤلات، وتفيض بالدلالات لدرجة أن نبي الله موسى لم يستطع صبراً. لقد أنهى فضول المعرفة لدى نبي الله موسى هذه العلاقة قبل أن تبدأ. لقد خلق الإنسان عجولاً في فهم وإدراك ما غاب عنه، بسبب هذه العجلة قد يُفوت الإنسان على نفسه معارف لا حصر لها، كم واحد منا تمنى لو أن نبي الله موسى لم يسأل العبد الصالح شيئاً، واستطاع صبراً ليقص علينا القرآن مواقف ومشاهد أخرى عديدة ومتفردة.

ثلاثة مواقف تعرض لها العبد الصالح، أولها كان موقفاً مليئاً بالإحسان، وثانيها موقف متعادل لا إحسان ولا إساءة، وثالثهما موقف إساءة. ومع ذلك عمل بما يعلم دون اعتبار لوجهة نظر من لا يعلم. في المقابل نبي الله موسى لم يطق صبراً، وفي كل موقف كان يتدخل بالاستفسار المحمل باللوم، مع أنه كان بين الرجلين عهداً ووعداً بعدم التعجل والصبر، حتى يوضح له الأمر. لقد برزت إشكالية في هذه القصة العظيمة، وتساؤل مشروع.. هل الرسول والنبي عالم، وهل يمكن أن يكون هناك حتى في نفس الزمن من هو أعلم منه؟

الإجابة مثل الشمس في كبد السماء، تبليغ الرسالة شيء والعلم شيء آخر، وهذا نبي الله موسى مع قدره العظيم إلا أنه اتبع العبد الصالح الذي قال عنه ربه (آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا

وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا) آيات عظيمة في سورة الكهف أخبرتنا أحسن القصص منذ أن التقى نبي الله موسى العبد الصالح وحتى تفرقا؛ لأن موسى عليه السلام لم يستطع صبراً.

- (فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عَلِمًا (65) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (66) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (67) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (68) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (69) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (70) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ^ط قَالَ أَخْرَقْتُهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا (71) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (72) قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا (73) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا (74) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (75) قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ^ط قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (76) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ ^ط قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا (77) قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ^ج سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (78) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (79) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنِينَ نُحْشِينَا أَنْ يَرِهَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (80) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (81) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ^ج وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ^ج ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (82)) (سورة الكهف: الآيات 65-82).

خلط مفهوم العلم بمفهوم المعرفة جعل الكثيرين لا يفرقون حقيقة بين أصحاب العلم وأصحاب المعرفة. لقد صار كل من نقل حديثاً أو نقل رأي عالم هو عالم برغم أنه لم ينتج شيئاً يذكر، وصار كل مجدد أو صاحب فكرة أصيلة ضالاً يجب اجتنابه. عدم فهم الفروق بين العلم والمعرفة أنتج واقعاً مستقراً بالمفهوم السلبي، واقعاً يضطهد التفكير ويعادي التغيير، ويرى الأمان فيما يعرف. لو فهم الناس هذا الفرق ما تجرأ القاضي والداني على وصف المفكر بكل النعوت القبيحة، وكأنا في العصور الوسطى التي ترى كل خروج على السائد يهدد وجودها. العلم أعظم ما أعطي الإنسان، فبينما نال صاحب العلم أعظم تكريم عندما قال الله في حق العلماء:

(وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ

قُلْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ) (سورة فاطر: الآية 28). نجد أن أصحاب المعرفة في خطر داهم، وعلى حرف لو ركنوا إلى هذه المعارف دون اختبار.

(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (سورة النحل: آية 83).

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

(سورة الأنعام: آية 20).

أصحاب المعرفة فقراء العلم عدائيون، لا يقبلون غير ما يعرفون لا يشعرون بارتياح تجاه من يصحح لهم ما يعرفون ويحاربون كل من يثبت لهم خطأ ما يعتقدون. في كتاب تاريخ العلم يقول راسل عندما اكتشف جاليليو التلسكوب واكتشف الكواكب، رفض التقليديون النظر خلال التلسكوب اعتقاداً منهم أنه حيلة لهدم معتقداتهم، هكذا كثير من أصحاب المعرفة الموروثة يرفضون الدليل والبرهان حفاظاً على بنيتهم المعرفية من الانهيار.

المعرفة قائمة بالأساس على موروثات لم تختبر ومسلمات أغلبها ليس عليها دليل أو برهان سوى تأكيدات السابقين. بينما العلم يستخدم المعرفة أحد معطياته خلال عملية من التحليل

والاستنتاج والاستنباط ، غرض استخراج فائدة جديدة. لقد نال العبد الصالح نوالاً أحب من الدنيا وما فيها؛ فقد حاز علماً ورحمة من الله غلفت ذلك العلم وجعلته اهلاً أن يكون المعلم لنبي من أنبياء الله، صلوات ربي عليهم أجمعين. ثلاثة مشاهد عظيمة سنعيثها مع نبي الله موسى والعبد الصالح تروي الكثير والكثير.

المشهد الأول

سفينة قدم أصحابها معروفاً للعبد الصالح وضيغه بأن حملوهم معهم؛ يبادر العبد الصالح رغم هذا المعروف إلى خرق السفينة وتعطيل سيرها. فعل ذلك بعلم كما قص علينا القرآن، فقد رأى بالمعطيات المتاحة له أن ملكاً خلفهم يصادر السفن، فقرر على الفور أن يعيها رحمة بهؤلاء المساكين. صاحب العلم الحقيقي يرى ما لا يراه الآخرون، ويجب عليه أن يقوم بما يجب عليه فعله، بغض النظر عن نظرة الناس لما يفعل وما يترتب على فعله. هؤلاء الناس لا يعلمون ما يعلم ولا ينظرون إلى ما ينظر. سيدرك الناس بعد مدة أن ما فعله العبد الصالح كان صواباً وكان لا بد من فعله. هكذا دائماً أصحاب العلم يسبقون بخطوة أو قل بخطوات، يدركون ما لا يدركه العامة، ويرسلون النظر بعيداً، فلا يمنعونهم لوم المجتمع على فعل ما يجب فعله، فهم لم يأتوا لتسليّة الناس وإنما جاءوا لغرض أعظم من ذلك.

رغم الإحسان الذي تلقاه الرجل لم يمنعه الضغط المجتمعي من نفاق العامة، بل فعل ما يتوجب عليه فعله في الحال، بينما سيرى الناس ما فعله العبد الصالح قمة الجحود والنكران، إلا أن الحقيقة تقول إن هذا الفعل يحمل قمة الرحمة لهؤلاء المساكين الذين يعملون في البحر، إذ أنقذ السفينة من بين براثن هذا الملك الغاصب، بأن صنع فيها عيباً ظاهراً يجعل الملك يزهد فيها، ومن ثم يصلح المساكين هذا العيب ويحفظوا سفينتهم. تدلنا الآيات الكريمة التي وصفت هذا المشهد على أن القرار كان قرار العبد الصالح بشكل كامل، إذ قال أردت مستخدماً تاء المتكلم (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) بعكس الآيات التالية التي توحى أن القرار لم يكن قراره منفرداً.

عندما توافرت لديه معلومات كافية استطاع تحليل واستنتاج ما يمكن أن يحدث، فقرر إحداث عيب في السفينة هو بالتأكيد عيب ليس خطيراً، بدليل أن السفينة لم تغرق. لم يرد أي ذكر لغرق السفينة، لقد كان فقط عيباً ظاهراً حتى تبدو غير صالحة فيتركها الملك الغاصب ويرحل بعيداً عنها.

هذا المشهد القرآني يتحدث عن علم يتعلق بالغيب، إنه غيب مكاني في نفس الزمن؛ إذ أن السفينة والملك في نفس الزمن، ولكن بقعتين جغرافيتين مختلفتين، فكلاهما غيب بالنسبة للآخر. من خلال العلم الذي حازه العبد الصالح استطاع التغلب على الغيب المكاني واستجلابته، هذا النوع من الغيب لم يعد الآن معضلة، إذ أمكن التغلب على هذا الغيب الجغرافي من خلال تكنولوجيا الاتصالات والأقمار الصناعية، وفكَّت رموز هذا النوع من الغيب.

الإشارة القرآنية إلى علم العبد الصالح وأنه كان السبب المباشر في كشف هذا الغيب المكاني، لا بالوحي مثل الأنبياء والرسل هو إشارة عظيمة إلى أن العلم قادر على فك رموز ذلك الغيب الجغرافي. اليوم لدينا القدرة على معرفة ما يحدث في بقعة أخرى تبعد عنا آلاف الأميال وفي نفس وقت حدوثها عن طريق العلم، ولو أن إنساناً منذ قرنين من الزمن قال إنه يمكن كشف الغيب الجغرافي أو المكاني في نفس اللحظة لاتهمه الآخرون بالجنون، ولو ربط تأويل هذا المشهد القرآني على أنه ربما يكون إشارة على أن الغيب المكاني يمكن فك طلاسه بالعلم لربما اهتمه أصحاب وجهة النظر الأحادية بالزندقة. هل المشاهد الأخرى في الآيات الكريمة تحمل دلالات وعلامات يمكن أن تقودنا لمعارف في المستقبل، إن كان قد فاتنا استغلال المشهد الأول.

المشهد الثاني

الغلام الذي لا تربطه أي علاقة بالعبد الصالح، سواء بشكل إيجابي أو بشكل سلبي، ومع ذلك أقدم الرجل على قتل الغلام؛ لقد قتل العبد الصالح الغلام بمقتضى علم معين استطاع من خلاله الحصول على معلومات عن غيب زمني في اتجاه المستقبل. في هذه الآية الكريمة

تحول خطاب العبد الصالح من خطاب المتكلم المفرد إلى استخدام نا المتكلمين في كلمة نَحْشِينَا وكلمة أَرَدْنَا، التي توحى أن هناك مشاركة ما في العلم والقرار: (نَحْشِينَا أَنْ يُرَهِّقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا)، (فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ) القول إن المشاركة كانت مع الله هو قول لا يصح، فالله سبحانه وتعالى لا يشارك أحداً وإنما يريد ويوحى ويشأ كما سنرى في المشهد الثالث.

كل ما يمكن قوله هنا أن القرار لم يكن فردياً كما في الحالة الأولى، ربما لصعوبة الموقف، ويبدو أن هناك معاونين للعبد الصالح، وإن كنا لا نستطيع الجزم بذلك، إلا أن التكلم بصيغة الجمع يدل على ذلك، وخصوصاً أن الحديث في الآية الأولى كان بصيغة المفرد.

الغيب في هذا المشهد غيب مستقبلي وهذا النوع من الغيب المستقبلي تكشف منه جزء ليس بقليل من خلال العلم والمعارف المتراكمة. في مجال المناخ والطقس أصبح التنبؤ بالظواهر المناخية أمراً عادياً، وكذلك حركة الشمس والقمر والظواهر المصاحبة لهما أمكن من خلال العلم التنبؤ بالأحداث بشكل بالغ الدقة. على صعيد الإنسان وخصوصاً على المستوى الفسيولوجي، أصبحت القدرة على اكتشاف الخلل الجيني، الذي يمكن أن يؤدي إلى تشوهات جينية، أو قد ينتج طفلاً غير قادر على الحياة بشكل طبيعي في أسابيع الحمل الأولى أمراً عادياً من خلال اختبار المادة الوراثية للجنين، هذا النوع من العلم استطاع بشكل كبير اكتشاف الغيب في حياة هذا الطفل، واستطاع اكتشاف الخلل الذي قد يصيبه إذا استمر الحمل بشكل طبيعي.

المشهد القرآني يتحدث عن خلل سلوكي، وليس خللاً جينياً في هذا الغلام قد يسبب طغيانه وكفره. أستطيع قراءة هذه الآيات في سياقها، وأنها إشارة للبشر على أن القدرة على التنبؤ بالسلوك والتصرف في المستقبل قد يكون قريب جداً، وبناء على علم محدد وليس مجرد تخمينات، تقوم على قدرات غير مقاسه ولا يمكن الاعتماد عليها. ربما يسبق هذا العلم فهم

علاقة السلوك النفسي بالجينات، أو تحديد مراكز معينة أو ارتباطات جينية معينة مسؤولة عن السلوك الإنساني.

دعونا نفترض أن مثل هذا العلم قد أصبح متاحاً، وأن الإنسان تمكن من معرفة إمكانية شذوذ السلوك الإنساني قبل حدوثه بمراحل، فهل ذلك يعطينا الحق في قتل هذه النفس؟ طرح كهذا بالتأكيد هو طرح مثير للجدل، ولكن لو استطعنا فهم هذا الأمر من زاوية أخرى قد يكون الأمر مختلفاً، وخصوصاً في ظل تطور البشرية. إذا تمكن الإنسان بالفعل من فهم السلوك المستقبلي للإنسان فالعلم نفسه هو ما سيتيح معالجة الخلل قبل أن يستفحل، أو حتى على أقصى تقدير مراقبة هذا الإنسان عن قرب، أو إيداعه إحدى دور الرعاية لتقويم سلوكه.

على غرار ما حدث على المستوى المادي في اكتشاف الخلل الجيني، ومن ثم محاولة علاجه، لا يمكن أبداً استبعاد نفس الأثر على المستوى اللامادي المتعلق بالسلوك البشري. مرة أخرى يجسد المشهد العمل بالعلم دون اعتبار لوجهة نظر الذين لا يعلمون. لا يشترط أن العلم الذي مكّن العبد الصالح من كشف الغيب أن يكون كالعلم الذي بين أيدينا، ولكن يكفي أن يكون المشهد إشارة إلى أنه بالعلم يمكن كشف أنواع من الغيب. كذلك لا يمكن أن تكون معالجة العبد الصالح للحوادث التي مر بها هي نفس معالجتنا، وخصوصاً في ظل تقدم البشرية وتطورها. الملك الذي يأخذ ويصادر كل سفينة غصباً لم يعد له مكان في العالم الحر، ولا يمكن اليوم لحاكم أو ملك أن يصادر أملاك الناس بقرار منفرد ودون تعويض مناسب، وإن كان هذا النموذج ما زال موجوداً في الكيانات غير المتطورة والمجتمعات البدائية.

لو حدث هذا الأمر اليوم، فإن المؤسسات المستقلة تستطيع محاسبة ذلك الحاكم أو الملك، إذ لا يسمح له القانون بفعل أمور كهذه دون وعاء قانوني. كذلك لو أتاح لنا العلم مثلاً بيان خلل سلوكي في المستقبل لإنسان ما، فهذا ليس شرطاً أبداً أن تكون معالجتنا للأمر بنفس الطريقة التي عالج بها العبد الصالح الأمر. ليس علينا نسخ وتقليد ما قام به العبد الصالح

لأنه ليس وحياً ملزماً من الله بل هو علم والعلم مرتبط بمعرفة الإنسان وقدرته المستمرة على معالجة ما لديه من معرفة.

المشهد الثالث

جدار معرض للانهييار، وأهل قرية لثام، ومع ذلك يشمر العبد الصالح عن ساعديه ويعيد ترميم الجدار؛ موقف على النقيض من الموقف الأول تماماً، فهنا أهل قرية قدموا السوء فبادر الرجل بالعمل الطيب. مرة أخرى إنه العمل بالعلم تحت كل الظروف، حتى وإن بدا العمل غريباً وغير مستساغ فليس كل الناس على نفس القدر من العلم.

لقد استوقفتني عبارة (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا)، فبينما في المشهد الأول كانت الإرادة صادرة عن العبد الصالح نفسه عندما قال (فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا) وفي المشهد الثاني عندما قال (أردنا) بصيغة الجمع، نجد في هذا المشهد الذي تعرض فيه العبد الصالح للإساءة غابت إرادته الشخصية، ولكن حضرت إرادة الله لكي تتقذ الجدار من الانهييار، متمثلة في فعل العبد الصالح (فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا). الإحسان للمسيء يتطلب جهداً عظيماً و استحضاراً لله بكل ما تحمل الكلمة من معنى، وهذا ما أراه واضحاً في الآية من أن الرجل استحضر الله في هذا العمل بكل قوة، بل جعل العمل كله لله برغم السوء الذي تعرض إليه من أهل القرية اللثام.

هنا المشهد القرآني يمثل علم غيب من الماضي، فكون أبوهما صالحاً، وكذلك وجود الكنز، هو غيب من الماضي بالنسبة للعبد الصالح ونبي الله موسى. لا شك أن كشف الغيب الماضي أصبح اليوم ميسراً بشكل كبير، مثل الكشف عن الآثار المختفية أو البترول أو الغاز عن طريق أجهزة استشعار متقدمة. قراءة التاريخ الموغل في القدم عن طريق الحفريات والدراسات الجينية ودراسة ظاهرة الإشعاع في العناصر، هي كذلك نوع من العلم الذي يمكن الإنسان من كشف الماضي بكل تفاصيله.

في هذا المشهد القرآني إشارة في غاية الأهمية، وربما قريباً جداً قد يتحول التاريخ الإنساني - وأقصد الخاص بالأحداث - إلى علم مقاس، من خلال أدوات وطرق قياس موثوقة، وليس مجرد وجهات نظر الأشخاص، متأثرة بالواقع السياسي والاجتماعي؛ العلم الذي استطاع من خلاله العبد الصالح معرفة أن (أبوهما صالحاً) ربما يكون إشارة على أن الإنسان يمكنه عن طريق العلم اكتشاف السلوك الإنساني في الماضي، ولربما اكتشف العلم مواقع جينية خاصة بتسجيل الأحداث في الماضي من خلال شفرة معينة. لا أحد على وجه الإطلاق يستطيع التنبؤ على وجه الدقة بما يمكن أن يحمله العلم في هذا الاتجاه، إلا أن كتاب الله يحمل دلالات وإشارات على كون هذا الأمر غير مستبعد.

من لا يملك العلم لا يمكن أن يعد خرق السفينة وقتل الغلام وبناء جدار في قرية لثام أفعال رحمة، وإنما على العكس أفعال قاسية وغير مبررة. ليست كل الأفعال التي ظاهرها القسوة هي كذلك، ولكن كثيراً منها باطنها الرحمة لو كانوا يعلمون.

الفصل الحادي عشر: ليس على الأعمى حرج

واحدة من تلك الآيات التي شكك فيها أهل اللغة واتهموا القرآن بأنه غير بليغ ثم اكتشفنا أنها آية تمس كل شخص فينا وتشرح حالات منتشرة في كل البيوت. لم تكن هذه الآية مجرد آية بليغة فحسب بل هي هدية من رب العالمين لكل متعسر.

آية (ليس على الأعمى حرج) في سورة النور تعتبر ركن أصيل في أي هجوم على بلاغة القرآن والتشكيك في كونه كلام من رب العالمين. ساعد على ذلك التفسيرات التي لم تعطي أي ردود مقنعة ولم تستطع بيان بلاغة هذه الآية وتعبيراتها أو الرد على هذه الانتقادات بأسلوب علمي خالي من الخطابة والإنشاء.

سوف أنقل ما قاله أحد أولئك الذين يشككون في بلاغة الآية وبالتالي في بلاغة القرآن من الأساس دون تدخل مني لفهم أبعاد المشكلة ثم أقوم بالرد وشرح الآية لندرك أين القصور: "يقول القرآن: «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج

ولا على أنفسكم أن تأكلوا من بيوتكم أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم أو بيوت إخوانكم أو بيوت أخواتكم أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم أو ما ملكتم مفاتيحه أو صديقكم ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً أو أشتاتاً فإذا دخلتم بيوتاً فسلّموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون»،

وهذا الكلام لا بلاغة فيه لأنه لا فائدة من ذكره، فكل أحد له أن يأكل في بيته وفي بيت أقاربه لأن هذا حلال، ثم ما ربط هذا بالأعمى والأعرج والمريض؟! لماذا تخصيص هؤلاء فقط بالذكر دون غيرهم كالمرأة أو الطفل مثلاً؟! ولماذا تكرار كلمة "الحرج" بعد ذكر كل واحد منهم؟! ولماذا هذه الإطالة في تعداد الأقارب؟! قل منذ البداية (بيوت أقاربكم) أو (بيوت أرحامكم) واختصر الموضوع! ثم لماذا تشمل بيت «ما ملكتم مفاتيحه» في الأكل؟ هذا خطأ

فليس كل شخص يترك مفاتيح بيته عندك لك أن تذهب فتدخل منزله وتأكل منه ما تشاء؟! وأيضا لا داعي لذكر «جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا» لأنه لا إثم في أن يأكل الناس في جماعة أو يأكل كل منهم على حدة، ثم إذا أنا سلّمت على أحد فالله ما دخالته بالسلام حتى يقول «تَحِيَّةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ»؟ وأخيرا كيف إذا لم يتبين لنا هذا الكلام فإننا سنكون محبولين - حسب المعنى - ولعلنا نعقل أو لا نعقل؟ إن لم تتبين لنا هذه الآيات التي تتحدث عن الأكل فإننا لا نعقل؟ هذا تهافت بلاغي" انتهى الاقتباس.

تعالوا نتعرف كيف يمكن أن نفهم هذه الآية في ظل المنهج الذي نستخدمه في هذه السلسلة . الآية الكريمة في سورة النور هي آية من ضمن مجموعة آيات كثيرة تتحدث عن التعامل الراقى الذي أرشد إليه ربنا، مثل الاستئذان والاحتشام وغيض البصر وكيفية التعامل ومخاطبة الرسول. هذه الآية تتحدث عن الحرج بشكل أساسي أو بمعنى دقيق رفع الحرج. لكي نفهم هذه الآية يلزمنا تحليل ثلاث كلمات رئيسية من كلمات هذه الآية وهي لفظ الحرج، ولفظ الأكل ولفظ جناح. فهم مدلول لفظ الأكل تحديدا هو مفتاح الدخول لهذه الآية الكريمة لذا يحتاج لمزيد من التركيز والتروي.

(لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ^ج فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَاسْلُتُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ ^ج كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (سورة النور: آية 61).

أولاً: مدلول لفظ الحرج

الحرج في اللغة هو تجمع الشيء وضيقة، فجاء لفظ الحرج في سورة الأنعام بمعنى الضيق.

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ^ط وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة الأنعام : آية 125). من هنا نستطيع القول أن الحرج هو الضيق الشديد الذي يمنع الإنسان من فعل معين . المفهوم المعاصر المقابل للفظ الحرج هو لفظ الإحراج الذي نستخدمه بشكل يومي. تكرار لفظ الحرج هو إشارة إلى الموضوع الذي سوف تناقشه الآية الكريمة وكأن الآية جاءت لرفع الإحراج .

ثانياً: مدلول لفظ تأكل

أول ما يتبادر إلى الذهن بمجرد سماع لفظ يأكل هو الطعام والمائدة وهو الصورة الأشهر للفظ يأكل . لفظ يأكل أصله في اللغة هو التنقص ولو أضفنا لهذا الأصل سياق الآيات القرآنية التي جاء فيها لفظ الأكل مثل أكل المال أو أكل الربا لأدركنا أن لفظ أكل يشير إلى حالة أخذ شيء بغرض استخدامه أو استهلاكه. سواء هذا الشيء طعام أو مال أو أي غرض كان.

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ وَتُدْخُلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِنَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة : آية 188).

الآية التالية توضح المعنى العام للأكل والذي ليس له علاقة بالطعام وإنما بأخذ الشيء

لغرض استهلاكه. (وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ^ج فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِّنْهُنَّ نَفْسًا فَاكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا) (سورة النساء : آية 4). بالطبع أكل الصداق ليس مضغه في الفم وإنما أخذه والانتفاع به.

لفظ الأكل في الآية هو لفظ عام يشمل كل ما يمكن أن يستخدمه الأعمى والأعرج والمريض سواء كان طعام أو مال أو ملبس أو أي أدوات مساعدة (مدلول لكل ما هو

مادي من وسائل المساعدة). الأكل لفظ عام بينما ذكر القرآن لفظ أكثر خصوصية يتحدث عن الطعام تحديدا وهو الإطعام كما جاء في سورة المائدة

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْاَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة المائدة : آية 89).

ثالثاً: مدلول لفظ جناح

أصل كلمة جناح هو الميل ولو أضفنا إلى هذا الأصل سياق الآيات الذي ورد فيه لفظ جناح ومشتقاته سوف ندرك وظيفة الجناح ومن هنا سوف ندرك المقصود بالجناح في الآية . جناح الطائر هو الجزء المستخدم في وضع الطائر في وضع الطيران ويستخدم أيضا في تصحيح طيران الطائر عن طريق الميل في اتجاهات مختلفة. إذن الجناح هو الآلة التي يستخدمها الطائر لتصحيح مساره أو وضعه في المسار الصحيح وهو الطيران بالنسبة للطائر في هذه الحالة.

من هنا نجد الجناح بضم الجيم لا يخرج عن هذا الجذر في الآية الكريمة، بل يبدو أنه الآلية التي يستخدمها الإنسان لتصحيح وضع ما أو العودة للمسار الصحيح الذي يجب عليه اتباعه. يبدو لي أن الضم الذي جاء مرافقا لحرف الجيم إنما أضاف بعد جديد لبيان الحالة في أنها تحمل استحواذاً ما. إن كان الجناح بفتح الجيم هو ذو وظيفة آلية فإن الجناح بضم الجيم يبدو فيه تكلف ما واستحواذاً كما يشير صوت الواو أو الضم المرافق لحرف الجيم.

عندما يقول ربنا للإنسان ليس عليك جناح تعني ليس عليك التكلف في تصحيح الوضع وغالباً ما يأتي هذا التعبير مع الأفعال المرهقة التي تستلزم جهداً زائداً مثل الآية في سورة البقرة.

(فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدِ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (سورة البقرة : آية 233) .

تعبير عظيم يرفع عن الإنسان الإحساس بالذنب أو التقصير ويعفيه من المسؤولية في صورة من صور الرحمة الربانية. أقرب مفهوم يومي نستخدمه للتعبير القرآني (ليس عليكم جناح) هو (ليس عليكم لوم) غير أن لفظ جناح لفظ حقيقي صفاته وخصائصه متوافقة تماماً مع الحالة الموصوفة. بعد أن وضعنا تصور معقول لثلاث كلمات رئيسية في الآية وهي الحرج ، الأكل ، الجناح سوف نحاول فهم التعبيرات القرآنية في الآية الكريمة.

الآية بصفة عامة تتحدث عن رفع الحرج عن بعض الفئات إذا احتاجوا للأكل أو احتاجوا لما يقيم معيشتهم وليس فقط طعام. ترتيب هذه الفئات يشير إلى التدرج من الفئة الأقل تضرراً إلى الفئة الأقل تضرراً وهي فئة أنفسكم والتي سوف نأتي عليها بعد قليل. هذا التدرج الواضح والتكرار يشير إلى أن الأمر ملح ولكنه مدعاة للإحراج.

الآية تتحدث عن فئات عفيفة حتى وإن أصابها الفقر لن تطلب شيء من أحد وسوف تقع في حرج شديد. الآية جاءت لرفع الحرج عن هذه الفئات العفيفة عندما يحدث نقص المؤونة أو متطلبات المعيشة بشكل عام للأسباب الظاهرة في الآية. جاء لفظ الحرج مع الأعمى تأكيداً على هذه الحالة ثم جاء مع الأعرج وهما الفئتين الأكثر تضرراً وفي حاجة للدعم والمساعدة. ثم جاء التأكيد على المريض إذا أقعده مرضه عن توفير متطلبات المعيشة أو في حاجة إلى المساعدة .

لم يأتي لفظ حرج مع الفئة الأخيرة وهي أنفسكم لأنها الفئة الأقل تضرراً؛ حيث فئة أنفسكم هي فئة الغير قادرين على الكسب أو في احتياج للمساعدة لظروف غير الظروف التي ذكرتها الآية.

قد تكون ظروف خارجة عن إرادتهم مثل البطالة. ما دفعنا للقول أن فئة انفسكم تقصد المتضررين وليس لفظ عام كما يعتقد البعض بسبب وجودها في نفس الترتيب مع الفئات المتضررة لذلك لا بد وأنها مشتركة معها في الحالة العامة الموصوفة. لو أن الآية جاءت بلفظ ليس عليكم حرج ولم تذكر هذا التدرج وهذا التقسيم لم نكن لنفهم المقصود من الآية وأصبحت مدعاة لاتخاذها مبرراً لكل ما لا يحق ولا يجوز.

هذا التكرار أفادنا في فهم هذه الحالات وتدرجها وعلاقتها ببعضها البعض وعلاقتها بالأكل. كيف نفهم التوجيه الإلهي الذي يرشد هذه الفئات إلى أن تأكل من بيوتها إذا عاقها عائق عن الكسب وتوفير متطلبات المعيشة؟ يتساءل أحدهم كيف هذا؟ فالأمر الطبيعي أن يأكل الإنسان من بيته. البيت هنا هو الكيان الذي يضم هذا الشخص مع آخرين لأن الفئات المذكورة لديها ما يمنعها من التكسب الطبيعي. لذلك عندما يقول ربنا بيوتكم فهذا يعني أن الزوج والزوجة والأطفال مشمولين بهذا البيت لأنه لم يأتي ذكرهم في باقي الآية، وإنما جاء لفظ الأباء والأمهات و درجات القرابة الأخرى التي سوف نتناولها في الفصل.

معنى ذلك أن يكون أحد أطراف البيت غير قادر على التكسب أو حدث له مانع ويخرج مثلاً من أن يعيش اعتماداً على الطرف الأخر لأن الوضع غير اعتيادي بالنسبة له؛ لذلك جاءت الآية لرفع هذا الحرج تماماً.

أضرب مثال على هذه الحالة حتى نفهمها جيداً رب أسرة يعمل ثم حدث له حادث مثل العمى والعرج (معوق عن الحركة) أو فقد عمله ولديه زوجة أو أبناء يعملون أو لديهم مصدر دخل منفصل. الآية تقول صراحة ليس عليكم جناح أن تأكلوا من بيوتكم. أي لا داعي لأن يقع أحد أفراد الأسرة في الحرج إذا حدث له مانع وجعله يعتمد على الآخرين في نفس بيته. لفظ بيوتكم يلغي الحرج تماماً بل إن الرسالة التي يمكن قراءتها من هذا التعبير هي أنه لا وجود للحرج من الأساس لأنه بالمفهوم الدارج " البيت بيتك".

من خلال هذا التعبير فقط نستطيع استنباط كم هائل من المعلومات بل وطبيعية المعاملة التي يجب أن تكون بين الزوج والزوجة على سبيل المثال. الزوج والزوجة شركاء بالفعل في كل شئ وفي كل ما يحققونه سوياً وليس للزوج أو الزوجة زيادة فضل بل يجب التعامل على هذا الأساس، ولا وجود للحرج في هذه الحالة تحديداً لأن الآية لم تذكره كما في حالة الأعمى والأعرج.

الزوج الذي يجعل زوجته تشعر بالمن من إنفاقه أو الزوجة التي تفعل نفس الشئ لو افترضنا عدم قدرة الزوج هي حالة غير سوية لأن الوضع الطبيعي الذي أشارت إليه الآية هو لفظ بيوتكم الذي يشمل الزوج والزوجة والأبناء ككيان واحد بدون وجود الحرج بينهم. بعد أن رفعت الآية الحرج عن أنفسنا في حالة الأسر الواحدة والتي علي أي من أفرادها أن يأكل من البيت أو المتاح دون حرج، إن كان هناك سبب وجيه للحرج مثل إعاقة أو عدم قدرة على العمل. لا حرج في أن نأكل من بيوتنا، بمعنى تلاشي الفرق بين أفراد الأسرة الواحدة وهو إرشاد رباني أراه موجه بصفة رئيسية إلى الزوج والزوجة تحديداً للتعامل ككيان واحد. ذكرت الآية الفئة الثانية التي لا حرج أن نأكل من بيوتهم وهي بيوت الأباء وبيوت الامهات.

التعبير التالي في الآية الكريمة جاء ليؤكد رفع الحرج عن الأبناء الذي تعسرت بهم الظروف، فلهم أن يلجأوا إلى بيوت آباءهم أو بيوت أمهاتهم. الآية تقول للأبن أو الأبنه الذي استقل بحياته أو أصبح له مصدر دخل منفصل ثم حدث له مانع من التكسب، أن يستفيد بقدر حاجته من بيت الأب أو بيت الأم دون حرج. لاحظ هنا لفظ الأكل لا يعني الأخذ بدون حساب ولكن بحسب الحاجة لغرض الاستخدام والاستهلاك وليس لغرض الكنز أو أي شئ خارج المؤلف. تعدد لفظ بيوت مع الأباء والأمهات لأن هذه الحالة لا تصف أكل الطعام كما يظن البعض وليست مرة عابرة بل هي مثال لمن يأخذ من أبيه وأمه لكي ينفق على معيشته.

تكرار لفظ بيوت مع الأباء والأمهات جاء لأنه بالفعل هناك حالات فيها بيوت أباء وحالات فيها بيوت أمهات حيث كلا منهما منفصل عن الآخر، أو حتى أحدهما متوفى أو أن لكل واحد منهما ذمة مالية منفصلة. هذه الحالات هي حالات موجودة وطبيعية لذلك رفعت الآية الحرج عن الأبناء في استخدام هذه المصادر في معيشتهم ولا داعي لكي يشعروا بالحرج من ذلك. مرة أخرى الآية تتحدث عن حالات الحرج أما من لا يتخرج فالآية لا تخصه ولا تنطبق عليه.

انتقلت الآية بعد ذلك إلى بيوت الأعمام والعمات ثم بيوت الأخوال والحالات. التكرار هنا له أغراض متعددة وهامة وأولها تحديد هذه الفئات والتأكيد عليها بسبب حساسية الموضوع الذي تناوله الآية الكريمة. لا يدخل في هذه الفئات مثلا أبناء العمومة وأبناء الأخوال لأن دخول هؤلاء قد يسبب حرج حقيقي ولكن الأعمام والعمات والأخوال والحالات فئات لا حرج منها في المجتمعات السليمة. ثانياً التكرار بمثابة رسالة طمأنة للمتضررين أن لديه مصادر عديدة ومتنوعة يمكن أن تقف بجانبه تطبيقاً لنفسه وخاطرة ولا حرج عليه في أن يطلب منهم العون والمساعدة.

انتقلت الآية بعد ذلك إلى فئة أخرى وهي ما ملكتم مفاتيحه. لا يظن أحد أن هذه الفئة هي نفسها بيوتكم أو بيوت آبائكم مثلا لأن تعبير (ما ملكتم مفاتيحه) يشير إلى امتلاك جزئي وليس امتلاك كلي. بعض التفاسير قالت أن المقصود هنا الخزائن التي يملكون مفاتيحها، لكن أرى أن هذا التعبير يشير إلى كل ما يمكنكم الدخول إليه أو مسموح لكم الاستفادة منه مثل جمعيات أو مؤسسات. الآية تزيل الحرج عن هذه الفئات العفيفة في الاستفادة من هذه الهيئات والمؤسسات مثل الجمعيات الخيرية أو أية إدارات حكومية تؤدي هذا الدور، لأنه هناك بالفعل من هذه الفئات من يتخرج من الاستفادة من هذه المصادر.

المصدر الأخير الذي أشارت إليه الآية كمصدر يمكن أن تلجأ إليه هذه الفئات هو صديقكم. لفظ صديق لفظ دقيق للغاية لأنه مشتق من الصدق والصدق هنا في هذا الموقف مرتبط بالعتاء والمساعدة دون أي احتمال لصدور ما يتسبب في حرج لهذه الفئات. الذي

يستطيع تحديد فئة صديقكم هو فقط الواقع عليه الحرج، لأنه هو الأدرى بمن حوله ومن سوف يصدقه الفعل والقول ومأمون الجانب في أن لا يسبب له أى نوع من الحرج.

لم تذكر الآية لفظ صاحب لأن لفظ الصاحب لا يشترط فيه الصدق وإنما هو وصف الملازمة والمرافقة بينما لفظ صديق هو اللفظ المناسب والقوي للتعبير عن الشخص الذي يمكن أن يُطلب منه المساعدة دون حرج. هذا الترتيب الذي جاء في الآية هو ترتيب الأولوية لا شك في ذلك فالأولى هو بيوتكم كما ذكرنا وبيننا، ثم بيوت الآباء والأمهات وهكذا حسب ما جاء في الآية الكريمة. سوف نلاحظ أن ما ملكتم مفاتحه جاء قبل بيوت صديقكم وهذا الترتيب يتعلق تماماً بتخفيف الحرج عن هذه الفئات وليس ترتيب حسب قدرات هذه الفئات.

بعد أن سردت لنا الآية الكريمة الفئات التي يمكن للشخص فاقد أو قليل الكسب اللجوء إليها دون حرج أرشدتنا إلى أنه ليس عليكم جناح في أن تأكلوا منها جميعاً أو أشتاتاً، بمعنى ليس عليك عناء تصحيح هذا الوضع أو ليس عليك لوم في الجمع بينهم وإنما يمكنك الاستفادة منها حسب رؤيتك وكأن الترتيب هنا نصح وليس إلزام. الآية الكريمة تذهب إلى الحدود العليا في تطيب النفس ورفع الحرج حيث كل كلمة وكل تعبير يحمل هذا المعنى في صورة من أروع صور التوجيه الإلهي. تعبير جميعاً أو أشتاتاً ليس تعبيراً زائداً كما ظن أهل الظنون بل هو تعبير متكامل مع غرض الآية وهو رفع الحرج وكأنها ترفع الحرج عن فاقد الكسب في الإلتزام ببيت واحد أو بترتيب معين حسب الحاجة. الآية تركز بشكل كبير على إكرام هذه الفئة واعطائها حرية كبيرة لأنها بالفعل فئة عفيفة بحسب سياق الآية.

نأتي على الجزئية الأخيرة في هذه الآية والتي أثارت سخرية البعض وهي "فَإِذَا دَخَلْتُمْ

﴿٢٠٩﴾

بيوتاً فسألوا على أنفسكم تحيةً من عند الله مباركةً طيبةً"

يقول هؤلاء المشككين كيف إذا دخلنا بيوتاً أن نسلم على أنفسنا فالمفترض أن نسلم على غيرنا؟ الآية الكريمة لا تتحدث عن السلام الذي نفهمه مثل قول السلام عليكم فهذا المعنى معنى فرعي ولكن المعنى العام للسلام بشكل عام هو بث الطمأنينة في النفوس فإذا سلمنا على

غيرنا فهذا يعني أن تؤدي تصرفات أو أقوال تبث الطمأنينة في نفوس الذين نسلم عليهم. جاء تعبير (سلموا على أنفسكم) في الآية الكريمة يحمل رسالة محددة وواضحة وهي اطمئنوا واقبلوا هذا الأمر بنفس راضية ولا داعي للحرج المسبب للقلق. سلموا على أنفسكم تعني حرفياً اطمئنوا واهدئوا ولتسكن نفوسكم الجريحة بهذا التوجيه الإلهي.

هذه الجزئية متكاملة بشكل يثبت بلاغة كلام الله مع موضوع الآية كلها، حيث التأكيد على السلام النفسي لمن فقد الكسب واضطر لأن يأكل أو يسد حاجته الأساسية بشكل قد يظن أنه يسبب له حرج. لقد جاء التعبير الرباني في أروع صورته وأبلغها على الإطلاق إذ منح هذه الفئة سلاماً نفسياً وطمأنينة عندما قال تحية من عند الله طيبة مباركة.

التحية كما تم شرحها عندما تحدثنا عن قول الله تعالى:

(وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا) (سورة

النساء: آية 86).

هي التحفيز والدعم النفسي لمستقبل التحية. فكأن الله يقول أن التوجيه والإرشاد الرباني هو بالأساس هدية من الله لكم، غرضها دعمك وتطيب خاطرک و سلامک النفسي فاقبلوها بطيب خاطر.

الفصل الثاني عشر: الأنصاب والأزلام

الميسر ليس القمار، والأنصاب ليست أصنام، والأزلام ليست سهام للاقتراع؛ بل هي ثلاث ألفاظ قرآنية شكلت أساس قويم لكيفية تعامل الإنسان مع جسده وشكلت معلومات طبية كثيفة ومرجع لا مثيل له، خصوصاً لإنسان هذا العصر.

سوف نتناول هذه الكلمات بشئ من التفصيل لنقف على معناها والمراد منها بحسب ما يفتح الله لنا وعلى الله قصد السبيل. سوف ندخل إلى هذه الألفاظ من خلال فهم كلمة الخمر التي لها علاقة وثيقة بهذه الألفاظ.

أولاً لفظ الخمر

لفظ الخمر يعني التغطية والمخالطة والستر، ولذلك سميت الخمر خمر لأنها تخالط العقل وتغيبه وتجعل عليه غطاء بحيث يصبح الوعي مفقود أو شبه مفقود.

ثانياً: الميسر

قال المفسرون قديماً وحديثاً أن المقصود بالميسر هو القمار أو لعب النرد، لكن المتبع لأصل الكلمة وسياق الآيات التي ورد فيها لفظ الميسر لا يمكن أن يعتقد بكون الميسر هو القمار. كلمة الميسر أصلها يسر وهو الشيء الخفيف ويقال شئ يسير يعني شئ خفيف ليس فيه ثقل. الالفت للنظر أن لفظ الميسر ذكر في كتاب الله في ثلاث مواضع جميعها مقرونة بالخمر.

الآية الأولى (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (سورة البقرة: الآية 219).

الآية الثانية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (سورة المائدة: الآية 90).

الآية الثالثة (نَمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (سورة المائدة : آية 91)

الآية الأولى تتحدث عن منافع في الخمر والميسر، فهل القمار فيه منافع للناس؟ (المقصود هنا منافع حقيقية وليس منافع وهمية).

سوف نجيب على هذا السؤال في نهاية الفصل لأن البعض سوف يعتقد أن في القمار منافع وهي كسب المال. اللفظ القرآني لا يؤخذ هكذا وإنما لابد أن يقاس على مثيله ويعاير بشكل متزن حتى نفهم فحواه. إننا نتعامل مع كتاب رب العالمين فلا بد لكل حرف وظيفة والتساهل في فهم كلماته جريمة لا تغتفر. الآية الثانية ورد فيها لفظ رجس والرجس يعني اختلاط شئ بشئ وهو موافق تماما لمفهوم الخمر (راجع لفظ الرجس في الجزء الثالث من سلسلة تلك الأسباب- الطور).

هذا الارتباط الوثيق بين الخمر وبين الميسر وأصل كلمة الميسر وهي الشئ المخفف يدفعنا للقول أن المقصود بالمسير هو كل شئ يفقد الإنسان وعيه بشكل جزئي. من هنا يجب فهم معنى الخمر والميسر من حيث التأثير؛ حيث كل ما له تأثير ثقيل على الوعي هو خمر ولو كان عشب أو غيره وكل ما له تأثير خفيف، هو في الحقيقة ميسر ولو كان سائل أو عشب، والاثان لهما نفس الدرجة من التحذير الإلهي.

لطالما ظلت منطقة المخدرات أو الأشياء التي تُغيب وعي الإنسان بدرجة ما دون الخمر، منطقة رمادية اللون بحجة أنه لم ينزل فيها نص قاطع. الأمر الإلهي صدر في حالة الخمر والميسر بالإرشاد إلى ضررهما، ثم جاء بالاجتناب وختم بالتحذير في قوله (فهل أنتم منتهون).

ثالثاً: الأنصاب

كلمة نصب معناها الإعياء أو التعب والإجهاد، ولذلك يصبح مفهوم الأنصاب، هو كل ما يسبب الإعياء والتعب والإجهاد وليس كما قال المفسرون أن الأنصاب هي الأصنام.

مفهوم النصب، شديد الوضوح في كتاب الله على أنه يعني الإعياء والتعب، وسوف نكتفي بآية واحدة من آيات القرآن الكريم توضح المعنى.

(وَادْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ) (سورة ص :

آية 41).

النصب المذكور في الآية هو المرض والإعياء ولا يحتاج إلى توضيح. هنا أيضا قد يشكل على الناس لفظ النصب بفتح النون ولفظ النصب بضم النون ويظن البعض أن الكلمتين مختلفتين عن بعضهما البعض. الحقيقة هذا ليس متوافقاً منسجماً مع طبيعة الألفاظ القرآنية بالمره. حركات الإعراب تضيف بعداً آخر ولكن لا يمكن أن تغير المعنى بالكامل وهذه المسألة يمكن ملاحظتها من خلال تتبع اللفظ القرآني دون تعنت وتحميل اللفظ فوق ما يطيق.

حتى لفظ النصب بفتح النون والذي يعتقد المفسر أنه يصف الأصنام لانها منصوبة أي واقفة يبدو لي انه معنى فرعي لكلمة نصب نفسها. لو تأملنا الوقوف وما فيها من إجهاد وتعب والنصب نفسه هو نوع من الإجهاد يستطيع أهل الفيزياء فهم ذلك بسهولة لأدركنا لماذا سمى القدماء الأصنام أنصاب. فما هي إلا دلالة على حالة الإجهاد نتيجة الوقوف لفترة طويلة أو تحمل الصعوبة. لا يجب أن يطغى المعنى الفرعي على حالة الكلمة ويجعلنا نحرف الكلم عن مواضعه ونضيع معاني الكلمات العظيمة ومدلولاتها في كتاب الله.

جاء لفظ الأنصاب في كتاب الله في موضع واحد وهو الموضع المرتبط بالخمر والميسر. لذلك فإن مفهوم الأنصاب بأنه كل مؤثر قد يسبب الإعياء والتعب والإجهاد و المفهوم الأقرب للآية الكريمة. تحديد الأنصاب لا شك يعتمد على أهل العلم فكل ما ثبت ضرره للجسم فهو من الأنصاب، لذلك يدخل التدخين بكافة أنواعه تحت مفهوم الأنصاب. مفهوم الأنصاب يختلف كما سوف نري عن مفهوم الأزلام لان الأنصاب كل ما يسبب ضرر مطلق أو أن نفعه غير مبين؛ وكما قلنا أن أقرب مفهوم للأنصاب هو التدخين.

رابعاً: الأزلام

أصل كلمة أزلام هو زلم وتعني الخفة والدقة، ويقال للرجل إذا نهض فانتصب قد أزلام. النهوض والخفة والدقة من خصائص لفظ زلم ولو أردنا ترجمة اللفظ من خلال المفاهيم المعاصرة، لقلنا دون تردد أن زلم تعني نشط ويصبح مفهوم الأزلام هو كل ما يزيد من النشاط أو من العمليات الحيوية بغير المعتاد (منشطات، وهرمونات،... ألخ).

كل المواد التي تزيد معدل العمليات الحيوية مثل المنشطات أو الهرمونات هو من الأزلام بحسب أصل الكلمة وحسب سياق الآية التي تتحدث عن الخمر والميسر والأنصاب والتي جميعها تصب في خانة الإضرار بالجسم. من الملاحظ أن الأمر الإلهي جاء في الآية التي جمعت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام بالاجتناب وكأنه توجيه إلهي رحيم لمن كان قلبه أو ألقى السمع وهو شهيد. على الجانب الآخر جاء الأمر بالتحريم صراحة في آية تحدثت عن الذبح على النصب و عن الأزلام عندما تعلق الأمر بالطعام.

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسِقُ الْيَوْمِ يَكْفُرُوا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) (سورة المائدة : آية 3).

إن كان لديك دراية بتفسير هذه الآية فسوف يتبادر إلى ذهنك عندما تقرأ الآية للوهلة الأولى أن مفهوم النصب هو الصنم وأن الأزلام تعني القمار أو ما شابهه. لكن لو نظرنا إلى الآية الكريمة والموضوع الذي تناوله وهو الطعام ولا يجب تجزئة الآية حسب الأمزجة دون دليل.

لدينا في هذه الآية أمر بتحريم صريح متعلق بما ذبح على النصب. كما عودنا القرآن أن التحريم عميق جداً وأبدي. مسألة تحريم لحوم ذبحت لصنم بهذا الشكل ليس نهج قرآني. التحريم في الآية متعلق بعلّة الضرر البدني وذبائح جميعها ماتت بطرق غير سوية قد تسبب ضرر لمن يأكلها. مفهوم النصب، هو الإعياء والتعب والإجهاد؛ فيصبح تعبير (ذبح على النصب) يعني ذبح على ما فيه من إعياء أو مرض وليس ذبح لصنم. القرآن يحذر الناس من الأكل من الذبائح التي ذُبحت وهي مريضة، أو أصابها إعياء، أو يظهر عليها الإجهاد، بل وحرّمها لما فيها من ضرر.

مدلول (تستقسموا بالأزلام)

كما بينا أن مفهوم الأزلام هو المنشطات أو الأشياء التي تزيد من معدل سرعة العمليات الحيوية (هرمونات)، فإذا يعني التعبير القرآني (تستقسموا بالأزلام)؟ القسم بالشيء هو ما يعني تعظيم وزيادة قدر هذا الشيء. الاستقسام بالشيء، هو طلب تعظيم الشيء وزيادة قدره، وبما أن الآية تتحدث عن الطعام والذبائح فيكون تعبيره (تستقسموا بالأزلام) يعني تطلبون تعظيم وزيادة قدرة الذبائح عن طريق الأزلام وهي كما ذكرنا كل المواد التي تزيد من العمليات الحيوية والنشاط. إعطاء البهائم مواد تسرع عمليات النمو وزيادة اللحم عن المعدل المعتاد. يبدو أن الأمر خطير وأخطر مما نتوقع لأن التوجيه الإلهي وضع كل هذه الأشياء في خانة التحريم وليس في خانة النهي أو الإرشاد أو التوجيه. إن كان العلم الحديث اثبت خطورة اللحوم المعالجة بالهرمونات، وبالرغم من ذلك مازالت متداولة، إلا أن تحريم هذه اللحوم بهذا الشكل يدق جرس إنذار لأن التحريم جاء من رب العالمين المحيط بخفايا واسرار وصفات وخصائص الأشياء.

من استطاع الاحتراز فليفعل ومن لم يستطع نُحِيله إلى قول الله تعالى (فَمَنْ اضْطُرَّ فِي

مُحْتَضِرَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِيْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ).

نأتي الآن على فهم لفظ منافع وهل القمار فيها منافع للناس؟

عندما يقول الله سبحانه وتعالى منافع، فهذا لا بد أن تكون المنافع حقيقية وليست وهمية أو ما يتخيل الإنسان أنه منافع وهو ليس في الحقيقة منافع. القمار يدخل تحت بند أكل أموال الناس بالباطل والتي أكلها إثم ليس فيها منافع.

(وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدُلُّوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (سورة البقرة : آية 188).

الارتباط الوثيق بين الخمر والميسر، حيث أن الميسر ذكر فقط في ثلاث مواضع من كتاب الله كلها مرتبطة بالخمر هو ما دفعنا بقوة للقول أن الخمر والميسر بينهما تشابه في بعض الخواص. وعلى ذلك، قلنا أن الخمر هو كل تأثير يفقد الوعي بشكل كامل أو شبه كامل، بينما الميسر هو كل ما يفقد الوعي أو يؤثر بشكل بسيط أو جزئي ويدخل تحت بند الميسر كل أنواع المخدرات التي تؤثر في الوعي. لا يمكن أن يكون المال الناتج من القمار في حد ذاته منافع؛ لأن قياساً على ذلك يمكننا اعتبار السرقة فيها منافع لأنها تعود بالنفع على السارق.

هل يمكن اعتبار السرقة تحوي منافع لأن المال المسروق يعود بالنفع على السارق؟؟

عندما ذكر القرآن أن الخمر والميسر كلاهما يحتوي منافع، دفعنا ذلك للقول بأنه لا بد أن تكون المنافع حقيقية وليس ما يتوهمه الناس أنها منافع. الله سبحانه وتعالى لا يصف ما يعتقد الناس وإنما يصف حقائق الأشياء.

أكل الأموال بصفة عامة لا يمكن أن يكون فيه منافع بل على العكس قد يصيب الإنسان بكوارث وأمراض، ولا ابالغ إذ قلت أن اضطرابات فسيولوجية تحدث في أجسام أولئك الذين يأكلون المال بالباطل، يمكن أن تسبب أمراض خطيرة للغاية، والشاهد على ذلك الوصف الذي جاء في كتاب الله عن أكل مال اليتيم.

(إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) (سورة النساء: آية 10).

الآية تتحدث عن حالتين:

الحالة الأولى: يأكلون في بطونهم ناراً في الدنيا

الحالة الثانية: سيصلون سعيراً في الآخرة.

لفظ يأكلون في بطونهم ناراً تشير إلى تغيرات تحدث لهم وعن طريق فهم العمليات الحيوية وخصوصاً عمل الخلايا وما يؤثر عليها، وارتباطها بالسلوك الإنساني والذي أشرت إليه في فصل فطرة الله التي فطر الناس عليها يمكننا وضع تصور لما يصيب هذا الشخص في حالة أكله مال اليتيم ولكن لا يتسع المجال هنا لذلك.

أكل الأموال بدون وجه حق ليس فيه نفع حقيقي وإنما هو نفع مزيف والقرآن لا يتعامل مع الألفاظ المزيفة وإنما يصف حقائق وجواهر الأشياء.

مما يؤكد ما ذهبت إليه هو إن لفظ منافع نفسه ورد في كتاب الله في ثماني مواضع جميعها بلا استثناء منافع حقيقية وليست وهمية كما يلي:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ) (سورة البقرة : آية 219).

(لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ) (سورة الحج : آية 28).

(لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ) (سورة الحج : آية 33).

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (سورة الأنعام : آية 5).

(وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً لَتُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ) (سورة المؤمنون : آية 21).

(وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (سورة يس : آية 73).
(وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ) (سورة غافر : آية 80).

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (سورة الحديد : آية 25).

المنهج الذي نستخدمه في فهم اللفظ القرآني قائم بالأساس على تجريد اللفظ من كل المؤثرات وبحث حالته وخصائصه وصفاته ثم فهم تكامله مع الجملة التي هو من ضمن مكوناتها فيما يشبه العملية الرياضية وهذه الطريقة مختلفة تماماً عن الطريقة الحالية السائدة في تفسير آيات الله.

مثال ذلك كلمة نصب وانصاب ونصب بضم النون وكلمة نصيب أيضاً وجميعها ترجع إلى كلمة نصب بدون أي حركة وتشير إلى اقتطاع شيء أو عدم اكتمال، وعند تم توظيف الكلمة في سياق الآيات ومقارنة وورد الكلمة في كتاب الله خلصنا إلى أنها تفيد التعب أو الإعياء وهو نقص في الصحة أو عدم اكتمال قدرة الجسم.

نحتاج لوقف طويلة مع كل كلمة من كلمات هذا الكتاب العظيم ولا داعي للعجلة والتسرع والكسل فهذا الكتاب أمانة بين أيدينا وإن لم نبذل الوقت والجهد في فهم مدلولاتها وسبر أغوار تعبيراته فما أدينا حق كلمات الله .

تم بحمد الله

المصادر

1. لسان العرب لابن منظور (دار المعارف) 2008.
2. المختار الصحاح (مكتبة لبنان) 1995.
3. معجم مقاييس اللغة لابن فارس (المكتبة الوقفية) 1979.
4. كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (دار الكتب العلمية) 2003.
5. القرآن والكتاب، محمد شحرور 2011.
6. الإسلام والإنسان، من نتائج القراءة المعاصرة محمد شحرور (2016).
7. القصص القرآني، محمد شحرور 2010.
8. الأرض: مقدمة في الجيولوجيا الفيزيائية، إدوارد تار بوكفريدريك كلوتجيسدينس تازا، 2014.
9. رحلة الإيمان في جسم الإنسان - دكتور حامد أحمد حامد (دار العلم دمشق) 1991.
10. اضطرابات النطق واللغة، د. فيصل العفيف، 2015.
11. اضطرابات النطق والكلام (التشخيص والعلاج)، سهير محمود أمين، 2017.
12. اضطرابات النطق والكلام التشخيص والعلاج، عبد العزيز السيد الشخص، 2010.
13. Historic Earthquakes-chile-Argentina Border. U.S. Geological Survey, October 26, 2009.
14. Weather Modification by Cloud Seeding, International Geophysics, Dennis, Arnett S. (1980).
15. Nonlinear climate response to regional brightening of tropical marine stratocumulus". Geophysical Research Letters. Hill, S A.; Ming, Yi, 2012.
16. Does cloud seeding really work?. Chemical and Engineering News. Pelley, Janet, 2016.

17. "Opportunities for High-Power, High-Frequency Transmitters to Advance Ionospheric/Thermospheric Research: Report of a Workshop", National Academies Press. National Academy of Sciences, Engineering, and Medicine. 2014.
18. Global Research and Want To Know, Fred Burks, 2010.
19. US ionospheric research facility to close". Nature. Nature. Weinberger, Sharon 2014.
20. "The Military's Pandora's Box", Nick Begich and Jeane Manning.
21. Under new management, Alaska's HAARP facility open for business again, Rozell, Ned, 2015.
22. Climate Manipulation as a War Weapon, Michel Chossudovsky, 1999.
23. Future Operations of HAARP with the UAF's Geophysical Institute. American Geophysical Union, McCoy, Robert, 2015.
24. Alaska's controversial HAARP facility closed, Anderson, Ben, 2013.
25. HAARP Completed!. Indybay, J. E. Smith, 2006.
26. Simulations of ELF radiation generated by heating the high-latitude D- region, H. L. Rowland, 1999.
27. Naval Research Laboratory, Plasma Physics Division, Beam Physics Branch, 2009.
28. Angels Don't Play this HAARP: Advances in Tesla Technology, Nick Begich, 1995.
29. The Lost Journals of Nikola Tesla : Haarp - Chemtrails and Secret of Alternative, Tim R.Swaartz, 2000.
30. Planet Earth: The Latest Weapon of War, Rosalie Bertell, 2002.
31. Turkmen president wants to close "Hell's Gate", Marat Gurt, 2010.
32. Progress in Materials Science, J.J. Moore, H. Feng, 39 (1995) .273-243
33. Metallurgical and Materials Transactions,F.K. Urakaev, K.A. Akmalayev, E.S. Orynbekov, B.D. Balgysheva, D.N. Zharlykasimova, B, 47 (2015) .66-58
34. Metallurgical and Materials Transactions B, F.K. Urakaev, K.A. Akmalayev, E.S. Orynbekov, B.D. Balgysheva, D.N. Zharlykasimova, 47 (2016) .66-58



35. Powder Technology, V.G. Ahmadabadi, S.M. Azghandi, J.V. Khaki, M. Haddad-Sabzevar, 267 (2014) .345-339
36. Combustion and Flame, A. Delgado, E. Shafirovich, 160, ,1882-1876 2013.
37. The Chemistry of Lithium, Sodium, Potassium, Rubidium, Cesium and Francium: Pergamon Texts in Inorganic Chemistry, W.A. Hart, O. Beumel, T.P. Whaley, Elsevier, 2013.
38. Metallurgical and Materials Transactions B, B. Mishra, J. Moore, 25, ,154-151 1994.
39. International Journal of Self-Propagating High-Temperature Synthesis, V. Myagkov, V. Zhi-galov, L. Bykova, G. Bondarenko, 18, ,124-117 2009.
40. Journal of the American Chemical Society, M. Ding, D.C. Sorescu, G.P. Kotchey, A. Star, V. Sanin, D. Andreev, D. Ikornikov, V. Yukhvid, .3479,2012-134,3472
41. Physics of Atomic Nuclei, V. Zhuravlev, V. Bamburov, L. Ermakova, N. Lobachevskaya, 78,1389- ,1405 2015.
42. Theoretical Foundations of Chemical Engineering, A. Nikolaev, F. Larichkin, O. Nikolaeva, 42, ,679-675 2008.
43. Chemical engineering journal, J.M. Córdoba, E. Chicardi, F.J. Gotor, 192, ,66-58 2012.
44. Hyperfine Interactions, V. Šepelák, M.N. Isfahani, M. Myndyk, M. Ghafari, A. Feldhoff, K. Becker, 202, .46,2011-39
45. CMU. J. Nat. Sci. Special Issue on Nano technology, N. Chaichana, N. Memongkol, J. Wannasin, S. Niyomwas, 7, ,57-55 2008.
46. International Journal of Self-Propagating High-Temperature Synthesis, A. Rogachev, F. Baras, 16 (2007) .153-141
47. S. Kim, Y. Lee, T. Lee, H.H. Nersisyan, M. Kong, D. Maeng, J. Lee, Combustion and Flame, 160 (2013) .2637-2631
48. High Temperature Material Processes: An International Quarterly of High-Technology Plasma Processes, C.-L. Yeh, Y.-S. Huang, 16 (2012).
49. Combustion, Explosion, and Shock Waves, E. Balakir, Y.G. Bushuev, N. Bareskov, A. Kosyakin, Y.V. Kudryavtsev, O. Fedorova 11 (1975) .38-36

50. Combustion, Explosion, and Shock Waves, S. Kostin, A. Strunina, V. Barzykin, 18 (1982) .529-524
51. Journal of Materials Science, L.L. Wang, Z. Munir, Y.M. Maximov, 28 (1993) .3708-3693
52. Symposium (International) on Combustion, Elsevier, M. Frenklach, H. Wang, in, 1991, pp. .1566-1559
53. Steel in Translation, M. Gasik, O. Sezonenko, 38 (2008) .401-391
54. Texas Tech University, E. Collins, in, 2013.
55. International Journal of Refractory Metals and Hard Materials, Y. Zhou, F. Zhang, C. Wang, 28 (2010) .423-416
56. Cleavage and blastula formation. Biological physics of the developing embryo. Cambridge University , Forgács, G. Newman, Stuart A, 2005.
57. Human Ontogeny: Gastrulation, Neurulation, and Somite Formation". Atlas of anatomy: general anatomy and musculoskeletal system. Thieme. Ross, Lawrence M. Lamperti, Edward D., ed. 2006.
58. Developmental Biology , Gilbert, S.F, 2010.
59. Control of segment number in vertebrate embryos". Nature. 454 (7202): 335–339.
60. Notch signalling and the synchronization of the somite segmentation clock", Jiang, Y et al. 2000, Nature. 408 (6811): 475–479.
61. Human Ontogeny: Gastrulation, Neurulation, and Somite Formation. Atlas of anatomy: general anatomy and musculoskeletal system, Ross, Lawrence M. Lamperti, Edward D., ed, 2006.
62. Anatomy physiology, Betts, J. Gordon, 2013.
63. Human Embryology (3rd ed.). Larsen, W J, 2001.
64. Did High-Altitude EMP Cause the Hawaiian Streetlight Incident? Sandia National Laboratories, Vittitoe, Charles N., 1989.
65. Operation Dominic. Nuclear Weapon Archive. Retrieved .01-09-2008
66. Defense Atomic Support Agency. Project Officer's Interim Report, 1962.



67. Defense Nuclear Agency. Operation Dominic I. 1962. Report DNA 6040F. First published as an unclassified document on February 1, 1983.
68. Dyal, P., Air Force Weapons Laboratory. Report ADA995428. "Operation Dominic. Fish Bowl Series. Debris Expansion Experiment". December 10, 1965. Page 15. Retrieved .17-07-2010
69. Vittitoe, Charles N., Did High-Altitude EMP Cause the Hawaiian Streetlight Incident? Sandia National Laboratories, 1989.
70. United States Department of Defense. Report ADA955411. A Quick Look at the Technical Results of Starfish Prime, 1962.
71. Global TV: New Media and the Cold War, 69-1946 (Illinois, 2009), Schwoch, James, 2012.
72. Particle and field measurements of the Starfish diamagnetic cavity". Journal of Geophysical, Dyal, Palmer, 2006.
73. Dimension-changing exact solutions of string theory; Supercritical stability, transitions and (pseudo)tachyons, Ofer Aharony and Eva Silverstein, Simeon Hellerman and Ian Swanson, 2006.
74. The Heart's Code: Tapping the Wisdom and Power of Our Heart Energy, Pual Pearsall, 1999.
75. Volcanic eruptions and climate. Reviews of geophysics, Robock, Alan (2000). 38 (2): .219-191
76. Uncertainty estimates in regional and global observed temperature changes: a new dataset from 1850. J. Geophysical Research 111: 8. Brohan, P., J.J. Kennedy, I. Haris, S.F.B. Tett and P.D. Jones (2006).
77. With a Bang: Not a Whimper, "Pinatubo Climate Investigation". NASA Goddard Institute for Space Studies, James Hansen, January 1997.
78. Volcanic Eruption Of 1600 Caused Global Disruption. ScienceDaily. Davis (April 25, 2008).
79. In the wake of the plague: the Black Death and the world it made. New York: Free Press. p. 74. Cantor, Norman L. (2001).
80. Rhyolite magma processes of the AD 1315 Kaharoa eruption episode, Tarawera volcano, New Zealand. Journal of Volcanology and Geothermal Research 131 (3-4):265-94., Nairn I.A., Shane P.R., Cole J.W., Leonard G.J., Self S., Pearson N. (2004).